بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة اليرموك
كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

النقد الاجتماعي في شعر العصر العباسي الثاني

(٢٣٢هـ – ٣٣٤هـ)

The Social Criticism In The Poetry Of The Second Abbasid Era (232_ 334hj)

إعداد الطالبة

أمينة عبدالمولى حمد الحراحشة

٢٠٠٦٢٠٠٠١٧

إشراف الأستاذة الدكتورة

مي أحمد يوسف

٢٠١٠م/ ٢٠١١م

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

النقد الاجتماعي في شعر العصر العباسي الثاني

(٢٣٢ _ ٣٣٤ هـ)

إعداد

أمينة عبدالمولى حمد الحراحشة

ماجستير لغة عربية، أدب ونقد، جامعة آل البيت ٢٠٠٣

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة دكتوراة في اللغة العربية أدب ونقد – كلية الآداب في جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

وافق عليها

الأستاذة الدكتورة مي أحمد يوسف ..... مشرفاً ورئيساً

أستاذة الأدب العباسي، جامعة اليرموك

الأستاذ الدكتور عبد القادر الرباعي ..... عضواً

أستاذ الأدب العباسي، جامعة اليرموك

الأستاذ الدكتور قاسم المومني ..... عضـــــواً

أستاذ النقد الأدبي، جامعة اليرموك

الأستاذ الدكتور ماجد جعافرة..... عضـــــواً

أستاذ الأدب العباسي، جامعة اليرموك

الأستاذة الدكتورة إبتسام الصفّار..... عضـــــواً

أستاذة الأدب العباسي، جامعة الزيتونة

تاريخ مناقشة الرسالة ٢٢ / ١٢ /٢٠١٠ م

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الإهداء

إلى روح.....

والدي الحبيب أسكنه الله فسيح جناته .

إلى نبع الدفء والحنان.....

والدتي أطال الله عمرها .

إلى رمز الوفاء والإخلاص .....

زوجي الغالي

إلى نور عينيَّ .....

اليزيد وآية .

أمينة

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

شكر وتقدير

يسرني أن أتقدم إلى أستاذتي الدكتورة مي أحمد يوسف بوافر الشكر والتقدير على تفضلها بالإشراف على هذه الدراسة ، وتعهدها لها ولصاحبتها بحسن الرعاية والاهتمام ، فكانت وفيّة ومخلصة في ملاحظاتها ومتابعتها لها في المراحل جميعها.

ويسرني أن أتقدم إلى أساتذتي الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة : الأستاذ الدكتور عبدالقادر الرباعي ، والأستاذ الدكتورقاسم المومني ، والأستاذ الدكتور ماجد جعافرة ، والأستاذة الدكتورة إبتسام الصفّار بخالص الشكر والامتنان على قبولهم مناقشة هذه الدراسة . شاكرة لهم عناء ما بذلوه من جهد في قراءتها .

وأشكر صديقتي المخلصة الدكتورة إنصاف المومني على دعمها المعنوي الكبير وملاحظاتها .

والشكر موصول إلى زوجي العزيز وأبنائي الذين صبروا عليّ وتحملوا كثيراً من الأعباء مدة انشغالي عنهم بأمور الدراسة . والشكر لأشقائي وشقيقاتي لقاء اهتمامهم ودعمهم المعنوي الدائم .

أمينة

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

قائمة المحتويات

الموضوع ..... الصفحة

الإهداء ..... ج

الشكر والتقدير .....د

قائمة المحتويات .....هـ

الملخَّص .....و

المقدمة..... ١- ٣

الفصل الأوَّل : موقف الشاعر العباسي من مجتمعه .....

أولاً – نبذة تاريخية عن الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العصر العباسي الثاني ..... ٥ _ ١٧

ثانياً – موقف الشاعر العباسي من مجتمعه :.....

أ –الشاعر الرافض (رفضاً مباشراً) .....١٨ _ 29

ب – الشاعر الرافض (رفضاً غير مباشر) ..... 30 _ 36

ج – الشاعر الساخر ..... 36 _ 46

الفصل الثاني : نقد الشعراء للفئات الاجتماعية .....

أولاً – : نقد الشعراءللفئة الحاكمة .....

أ – نقد الشعراء للخلفاء ..... 48 _ 55

ب – نقد الشعراء للوزراء والولاة ..... 56 _ 69

ج – نقد الشعراء للقضاة ..... 70 _ 74

ثانياً – : نقد الشعراء للفئة المثقفة : .....

أ – نقد الشعراء للكتَّاب ..... 75 – 76

ب – نقد الشعراء للنُّحاة ..... 77 _ 78

ج – نقد الشعراء للمعلِّمين ..... 78 _ 79

د – نقد الشعراء للشعراء ..... 79 _ 81

ثالثاً : نقد الشعراء لفئة العامة :.....

أ – نقد الشعراء للبخلاء ..... 81 _ 93

ب– نقد الشعراء للأغنياء ..... 94 _ 97

ج – نقد الشعراء للتُّجار ..... 98 _ 99

د– نقد الشعراء للطفيليين ..... 100 _ 104

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

هـ- نقد الشعراء للمدّيين ..... 104 _ 106
الفصل الثالث : نقد الظواهر الاجتماعية (السلبية) .....
أولاً - الفقر والجوع ..... 108 _ 122
ثانياً - البخل ..... 123 _ 128
ثالثاً - النفاق والرياء ..... 129 _ 133
رابعاً - الغدر والخيانة ..... 134 _ 137
خامساً - الظلم والجور ..... 137 _ 139
سادساً- التّكبُّر ..... 140 _ 141
الفصل الرابع : دراسة نصيّة .....
أولاً - توطئة ..... 142 _ 143
ثانياً - بائية ابن الرومي في عتاب سهل بن نوبخت ..... 144 _ 202
ثالثاً - رائية العطوي يشكو فيها الزّمان ..... 203 _ 216
- الخاتمة ..... 217 _ 219
- قائمة المصادر والمراجع ..... 220 - 232

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ملخص

النقد الاجتماعي في شعر العصر العباسي الثاني (232- 334hj)

إعـــــداد

أمينة عبد المولى حمد الحراحشة

إشـــــراف

أ. د مي أحمد يوسف

استطاع شعراء العصر العباسي الثاني أن يسجلوا أحداث عصرهم السياسية والاجتماعية والتاريخية والاقتصادية، وقد انبرى عددٌ منهم إلى تصوير الحياة الاجتماعية من كافة جوانبها، سلباً وإيجاباً، والوقوف على أبرز المؤثرات فيها.

تروم هذه الدراسة إلى استجلاء صورة المجتمع العباسي في عصره الثاني ، عند الشعراء ونقدهم لأبرز ظواهره، ومواقفهم منه.

عرضت الدراسة بداية لمحة تاريخية عن الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في العصر العباسي الثاني وما لها من أثر في المجتمع آنذاك.

ثم تتبعت موقف الشاعر من مجتمعه من حيث فئاته وقيمه الاجتماعية، وبينت طبيعة ذلك الموقف من خلال النصوص الشعرية، وقد تباين موقفه بين الرفض المباشر والرفض غير المباشر والسخرية.

وقد تناولت الدراسة الفئات الاجتماعية التي تعرض لها شعراء العصر العباسي الثاني، وقد توزعت تلك الطبقات على ثلاثة محاور: نقد الشعراء للطبقة الحاكمة، ونقد الشعراء للطبقة المثقفة، وأخيراً نقد الشعراء لطبقة العامة من الشعب.

ثم عرضت لأهم الظواهرالاجتماعية (السلبية) التي صورها شعراء العصر العباسي الثاني وموقفهم منها.

وتناولت الدراسة نصين شعريين يمثلان موقف الشاعر من مجتمعه، وأبرز الظواهر الاجتماعية (السلبية) التي ظهرت فيه.

وختمت الباحثة الدراسة بخاتمة عامة أجملت أهمّ الجوانب التي عرضت لها، والنتائج التي توصلت إليها.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

المقدمة :

" الشعر ديوان العرب " احتفظ الشعر بأهميته منذ العصر الجاهلي ؛ لما يقوم بـــه مـــن وظائف فنيّة وتاريخية واجتماعية وسياسية ، إذ إنّه يعبّر عن فكر الإنسان العربي ، ومراحل حياته ، وأنشطته الاجتماعية والسياسية ، ويكشف عن علاقة الفرد بأسرته وقبيلته ومجتمعـــه ومسؤوليه ، فهو _الشِّعر _ وعاء ثقافي يستوعب الأنشطة الإنسانية في كل الأزمان وبمختلف أنواعها .

إنَّ المهتمَّ بالشعر وأثره في حياة المجتمع يجد أنهما على علاقة وثيقة ، فالشاعر يعبـــر عـــن أفراد المجتمع : مناسباتهم ، ومأكلهم ومشربهم ومسكنهم ومستواهم الاقتصادي ، وفئـــاتهم ، ومن ثمَّ معاناتهم ومشاكلهم ، وموقفهم من السلطة والمسؤولين .

وقد أدّى الشعر العباسي الثاني دوراً عظيماً في تجلية أهم الأحداث السياسية والحركات الفكرية والنزعات الفلسفية ، كما بيّن ملامح الحياة الاجتماعية من حيث فئات المجتمع وطبقاته وطبيعة حياة كل فئة ، وأبرز القيم الاجتماعية السائدة ، وكذلك موقف الشاعر العباســـي مـــن مجتمعه ، وما ظهر فيه من تفاوت طبقي وأمراض اجتماعية .

وتأتي أهمية هذه الدراسة أنّها تتناول موقف الشاعر من مجتمعه من خلال نماذج شعرية ، وتحدد رؤيته المتمثلة بالرفض المباشر وغير المباشر والساخر من السلطة خليفة ووزيـــراً ووالياً ، أو الفئات الاجتماعية الأخرى ، وطبيعة حياتها ، وكذلك الكشف عن شعراء مغمورين كان لهم مشاركات في الإضاءة على صورة المجتمـــع ومـــستوياته المعيـــشية ، وأمراضـــه الاجتماعية ، ومتابعة التقنيات الفنية واللغوية في إنتاجهم الشعري .

ودراسة كهذه لا بدَّ أن تواجه صعوبات ، منها : صعوبة الفصل بين الموقف السياسي والاجتماعي أو النقد السياسي والاجتماعي من جهة ، والفصل بـــين الاتجاهـــات والنزعـــات الفلسفية والمادة الاجتماعية البحتة التي يقدمها الشاعر من جهة أخرى .

ويضاف إلى ذلك أنَّ الدراسات حول هذا الموضوع كانت قليلة ، فلا توجـــد إلا بعـــض الدراسات منها دراسة سعد شلبي " الشعر العباسي التيار الشعبي " إلا أنَّ هذه الدراسة صبَّت

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library Yarmouk University

اهتمامها على شعر العصر العباسي الأول، وتناولت الملامح الاجتماعية عامة دون تناول فئات اجتماعية معينة .

ومن الدراسات السابقة _ أيضاً _ دراسة الدكتور محمد نجيب أبو طالب بعنوان " الصراع الاجتماعي في الدولة العباسية " وهي دراسة اجتماعية تأريخية ، تناولت البنى الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع العباسي ، والصراع السياسي ، ثمَّ الحركات الاجتماعية . ومن الجدير بالذكر أن هذه الدراسة خلت تماماً من النصوص الشعرية إلا في موضعين منها .

ومن الدراسات السابقة _أيضا _ دراسة عبدالخالق عبدالله عيسى بعنوان " السخرية في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين " ودراسة فاطمة الزعبي بعنوان " الشعر القديم ونقد السلطة " بالإضافة إلى دراسة الدكتور عبدالفتاح نافع " الشعر العباسي قضايا واتجاهات " وهي دراسة أدبية تناولت أبرز قضايا الشعر العباسي وظواهره السياسية والاجتماعية ، وقد غطَّت الدراسة العصر العباسي وتناولت أبرز شعراء العصر .

فضلاً عن الدراسات الأخرى التي تناولت الجوانب الاجتماعية جزئية من جزئياتها . وأفادت هذه الدراسة كثيراً من الدراسات الأدبية التي تناولت شاعراً بعينه في هذا العصر .

وتعتمد الدَّراسة منهجاً اجتماعيا وتحليلياً ، مع الإفادة من معطيات بعض المناهج الأخرى ، كالمنهج الجمالي لاسيما في الفصل الرابع في دراسة النصوص الشعرية .

وقد جاءت الدراسة في أربعة فصول وخاتمة ، يبدأ الفصل الأول بنبذة موجزة عن الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العصر العباسي الثاني ، ثمَّ بيَّنت الباحثة موقف الشاعر من مجتمعه بفئاته وقيمه ، وقد تجلى موقفه في ثلاثة أنماط : نمط الشاعر الرافض لفئات مجتمعه وقيمه (السلبية) رفضاً مباشراً يتَّسم بالجرأة والوضوح والصراحة ، ثمَّ نمط الشاعر الرافض رفضاً غير مباشر ، وقد اتخذ شكوى الزَّمان والدَّهر أسلوبا لرفضه وهروباً من

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

مواجهة السلطة واتباعاً لفلسفة فكرية ورؤية حياتية تبنَّاها ، وأخيراً نمط الشاعر الساخر ، الذي اتخذ من السخرية أسلوباً يعبر فيه عن موقفه من الفئات الاجتماعية ومظاهر حياتها .

أمّا الفصل الثاني فقد جاء بعنوان " نقد الفئات الاجتماعية " إذ توقفت الدراسة عند نقد الشعراء لفئات مجتمع العصر العباسي الثاني ، وقسّمت الطبقات إلى ثلاث : الطبقة الحاكمة وضمّت نقد الخلفاء ، ونقد الوزراء والولاة ، ونقد القضاة ، ثم نقد الشعراء للفئة المثقفة ، وضمَّت نقد الشعراء للشعراء وللنحاة وللكتَّاب ، وأخيراً نقد الشعراء للطبقة العامة ، وقد ضمَّت نقد الشعراء للبخلاء والأغنياء ، والتجار ، والمتدينين والطفيليين .

وقد بيَّنت الدراسة صورة تلك الطبقات في شعر العصر العباسي الثاني ، ودور الشاعر في الكشف عن ملامح حياة كل طبقة .ومن ثمَّ عرضت الدراسة في فصلها الثالث إلى أبرز القيم الاجتماعية (السلبية) التي توقف الشعراء عندها وسجلوا مواقفهم إزاءها ، كالبخل ، والفقر والجوع ، والغدر والخيانة ، والتَّكبر .

أمّا الفصل الرابع فجاء بعنوان " دراسة نصية لنصين شعريين لشاعرين مختلفين من شعراء العصر العباسي الثاني ، وسبقت الدراسة توطئة تبيّن السبب في اختيار هذين النصين ، ومنهج الدراستهما ، وهذان النّصان هما :

١_ بائية ابن الرومي في عتاب سهل بن نوبخت .

٢_ رائية العطوي يشكو فيها الزَّمان .

وختمت الباحثة الدراسة بخاتمة أجملت النتائج التي توصلت إليها .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library- Yarmouk University

الفصل الأول

أولاً- نبذة تاريخية عن الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العصر العباسي الثاني

ثانياً- موقف الشاعر من مجتمعه في العصر العباسي الثاني:

أ - الرفض المباشر

ب - الرفض غير المباشر

ج - السخرية

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

أولاً : نبذة عن الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العصر العباسي الثاني:- السيادة التركية:-

يختلف العصر العباسي الثاني في كثيرٍ من مظاهره عن العصر العباسي الأول ، فقد امتاز العصر الأخير بقوة الخلافة ، وتركيز السلطة في يد الخلفاء الذين اتَّصفوا بالبراعة السياسية ، وقوة الشخصية . وقد أظهروا كفاية نادرة في كبح جماح العناصر المتوثِّبة والمتطلعة إلى النفوذ والسلطان بينما تغيرت هذه الظواهر في العصر العباسي الثاني حين انتقلت الدولة من المركزية إلى اللامركزية في نظام الحكم ، وضعفت شخصية الخليفة وأصبح مجرد رمز ديني ، كما دخلت شعوب جديدة في المجتمع الإسلامي تمكَّنت من الوصول إلى الحكم ، ووقع الخلفاء تحت نفوذهم مما أدَّى إلى تحجيم دورهم السياسي الفاعل ، ففقدوا التقدير الذي كان يتمتع به أسلافهم خلفاء العصر العباسي الأول .

ومن تلك الشعوب الجديدة التي دخلت بنية المجتمع العباسي الأتراك ، الذين خدموا الدولة وساندوها في حروبها الداخلية والخارجية ، ومع مرور الزمن بدأ هؤلاء الأتراك يتجهون إلى تكوين كيان خاص بهم سواء في كنف الخلافة أو منفصلاً عنها كما طمع بعضهم في الاستئثار بشؤون الحكم في العاصمة حين أدركوا أن الخلافة لا يمكنها الاستغناء عن خدماتهم[1].

---

[1] انظر محمد سهيل طقوش : تاريخ الدولة العباسية ، الطبعة الأولى ، دار النفائس ، بيروت ، ١٩٩٦ ، ص ١٦١ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library Yarmouk University

وفي عهد الواثق بن المعتصم (٢٢٧هـ - ٢٣٢هـ) أصبح للأتراك نفوذ كبير ، فقد خلع الخليفة على أشناس لقب السلطان معترفاً له بحقوق تتجاوز نطاق المهام العسكرية فكان بذلك أول خليفة استخلف سلطاناً[١].

وعلى الرغم من محاولة بعض الخلفاء الإصلاح والتخلص من النفوذ التركي أو الحدّ منه فإنّ هذه المحاولات كانت غالباً تحظى بالفشل أو الاحباط بسبب إحكامهم – الأتراك – القبضة على زمام الأمور والمناصب السياسية الهامة ، ومن ذلك محاولة المتوكل التي انتهت بالقتل ، وتعدُّ حادثة مقتل المتوكل أول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين ، وأدَّت إلى ترسيخ أقدام الأتراك في السلطان والنفوذ ، مثلما كانت إنذاراً موجَّهاً لكل عباسي يريد أن يعتلي الخلافة ، أن يختار أحد أمرين : إمَّا الإذعان التام لأهوائهم ، أو القتل .

وكذلك كانت محاولة المنتصر (٢٤٧ هـ- ٢٤٨هـ) في الحدّ من تسلط الأتراك والتخلص منهم، وكان يسميهم " قتلة الخلفاء " لكن الأتراك تنبهوا للخطر المحدق بهم فتخلصوا منه بواسطة الطبيب الطيفوري الذي سمَّه بمشرط حجمه به [٢].

وعلى الرغم من نجاح محاولات بعض الخلفاء في الحدّ من سيطرة الأتراك وكسر شوكتهم أمثال المعتمد (٢٥٦هـ - ٢٧٩هـ) والمعتضد (٢٧٩هـ ٢٨٩هـ) فإنّ نفوذهم ازداد في خلافة المقتدر (٢٩٥هـ- ٣٢٠هـ) إذ انكب الخليفة المقتدر على لذاته ، وترك أمور الدولة

---

(١) السيوطي ، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محيي الدين عبدالحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص٣٤٠ .

(٢) الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٠ ، ج٩ ، ص٢٥١ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

إلى إدارتهم ، وبرزت في عهده ظاهرة تدخل النساء في أمور الدولة وانتشرت الفتن الداخلية والخارجية[1].

أمّا القاهر (٣٢٠هـ - ٣٢٢هـ) فرغم خلافته إلا إنه استطاع أن يخلع بعض القادة الأتراك لكنهم تمكنوا من القبض عليه وخلعوه ،وسملوا عينيه ، وبايعوا الخليفة الراضي (٣٢٢هـ- ٣٢٩هـ) [2].

وصفوة القول في شأن خلفاء بني العباس في هذا العصر قول البيروني:- " إنّ الخلفاء العباسيين، لم يكونوا قادرين على القيام بأدوار سياسية مهمة، في ذلك الوقت، غير أنهم لا يزالون يتمتعون بقوة معنوية تجعل الحكّام والسلاطين، يحرصون على الظفر بمواقفهم على توليّهم السلطة، حتى تكتسب سلطتهم صفة الشرعيّة، لأنّ الخليفة العباسي، كان أمير المؤمنين الذي تهفو إليه قلوب المسلمين، في جميع أرجاء العالم السني" [3].

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج١٠ ، ١٤١

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٣٨٦.

(٣) البيروني ، أبو ريحان محمد بن أحمد الخوارزمي : الآثار الباقية عن القرون الخالية ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٢٣ ص ١٣٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library- Yarmouk University

الثورات والفتن الداخلية:-

- ثورة الزنج (٢٥٥هـ - ٢٧٠هـ) :-

كانت منطقة البصرة وواسط، تعجُّ بآلاف الزنوج الأفارقة، الذين كانوا يُجلبون من سواحل إفريقيا الشرقيَّة، وقد زاد خطرهم بعد أن قاموا بثورتهم قرب البصرة، واستمرت ثورتهم أربعة عشر عاماً (٢٥٥ هـ - ٢٧٠ هـ).

والذي دعا إلى الثورة رجلٌ فارسي، اسمه علي بن محمد، وكان ذكياً طموحاً، بحث عن سبيل يوصله إلى الزعامة، فادّعى كذباً أنه علويُّ النسب، وذكر أنّ اسمه علي بن محمد بن أحمد، وينتهي نسبه إلى عليّ بن أبي طالب ، وقد جرّب الناس تأييدهم له، فلم ينالوا منه كبير فائدة، فجهر الرجل بعقائدِ الخوارج، اعتقاداً منه أنها تلائم اتجاهات المساواة، والحرية، التي يتطلّع إليها أبناء الطبقات الدنيا[١]. ثم خطا خطوة أخرى باتجاه النبّوة أو الإلوهية، إذْ زَعَم أنّه قد ظهرت له آيات عرف بها ما في ضمائر الصحابة ، وقد أحلَّه أتباعه من أنفسهم محل النبي حتى جبي له الخراج[٢].

وقد رأى في حياة العبيد الذين يعملون في المستنقعات فرصة لتحقيق طموحاته ، فتوجّه إلى البصرة، وحرَّض الزنوج الذين كانوا يكسحون السِّباخ - أي يعملون على إزالة الطبقة المالحة عن التربة لتصبح صالحة للزراعة- واستطاع صاحب الزنج " أن يؤلّب هؤلاء العمال الزنوج، بعد أن استغل فقرهم وبؤسهم ، فاجتمع إليه خلق كثير، وقد منّاهم الأماني، برفع الظلم عنهم، ووعدهم أن يقودهم ويملّكهم الأموال[٣].

---

(١) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٢١.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٤١٢/٩.

(٣) ابن الأثير عز الدين أبو الحسن علي الشيباني : الكامل في التاريخ، دار الكاتب العربي ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ٧٣/٧.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

يظهر أنّ ثورة الزنج لم تنطلق من أيديولوجيا راسخة أو هدف واضح، بل تشكلت من أيديولوجيات متعددة، وتمثل تمرد طوائف العبيد من غير العرب [١].

كانت ثورة الزنج بداية ضد كبار المّلاك من أصحاب الأراضي، ثم تطورت فصارت حركة ضد الدولة ، فقد دخلوا في معارك طاحنة مع جيوش الخلفاء، وكانت ثورتهم مدمّرة، تحرق المدن، وتبيد الزرع، وكانوا إذا دخلوا بلدة أحرقوها، وذبحوا أكثر سكّانها، ونهبوا ما فيها من خيرات.

وبذلك "انحرف مسار هذه الثورة من ثورة اجتماعية للمطالبة بالتحرر والمساواة إلى اللصوصية ودمار المدن، وانتهكوا الحرمات وسبوا الحرائر وارتكبوا المجازر اللاإنسانية، من مثل هتك الأعراض، وترويع الآمنين "[٢].

وبذلك خرجت هذه الحركة عن مسارها فمن الإصلاح إلى الانتقام ، ومن التقويم إلى الانقلاب الاجتماعي ، وقد انتهى أمر هذه الثورة في عهد الخليفة المعتمد بعد أن استمرت أكثر من أربعة عشر عاماً وسقط فيها مئات الآلاف[٣].

- ثورة القرامطة:-

ثورة شملت مناطق واسعة من البلاد الخاضعة للخلافة العباسية، ويطلق عليها اسم القرامطة، نسبة إلى قرمط بن الأشعث "[٤]. وقد قامت دعوته في أعقاب القضاء على حركة الزنج . واتجهت إلى أولئك الذين نجوا في المناطق التي عمّت فيها الحركة المذكورة ،

---

(١) سعد فهد الذويخ: صورة الآخر في الشعر العربي من العصر الأموي حتى نهاية العصر العباسي، الطبعة الأولى، عالم الكتب الحديث، اربد، ٢٠٠٩، ص ٢٠٠.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٠٠.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٢٢٤.

(٤) الشهرستاني ، أبو الفتح محمد بن عبدالكريم : الملل والنحل، تحقيق أحمد محمد فهمي ، الطبعة الأولى ، دار السرور ، بيروت ، ١٩٤٨ ، ص٣٣٥.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library- Yarmouk University

فصادفت رواجا كبيرا ففي صفوف الأعراب الذين يتوقون للغنائم وفلاحي السواد والطبقات الفقيرة [1].

وتعدُّ هذه الثورة امتداداً للحركات التي ظهرت في العصر العباسي الأول، مثل حركة المقنّع الكندي، والحركة البابكية الخرميّة. وتطلق حركة القرامطة على الجماعات التي ثارت ضد العباسيين، في فترات الاضطراب التي ظهرت بين فرقتي الإسماعيلية، والقرامطة، في الشمال الغربي لبلاد العراق، وبعض بلاد الشام، وفي سواحل الجزيرة العربية والكوفة[2].

كانت فلسفة أنصار القرامطة تقوم على التقية – أي أن يظهر الإنسان خلاف ما يُبطن – حتى يصلوا إلى هدفهم،وهو التحلل من الدين الحنيف وفروضه، حتى أن البغدادي يقول فيهم:– " إنّهم انكروا البعث، والحساب، والجنّة، والنّار، وقالوا: هل الجنّة إلاّ هذه الدنيا ونعيمها، وهل النار وعذابها، إلاّ ما فيه أصحاب الشرائع من التعب، والنصب في الصلاة، والصيام، والحج، والجهاد"[3]..

إلا أن بعض الدارسين يعرفها بأنها " انتفاضة اجتماعية ، آراؤها خليط من عقائد مختلفة ؛ ثم أنها توسلت ظاهريا بالدِّين من أجل ضرب النظام العباسي الذي يستند إلى الإسلام ، وإنشاء نظام اجتماعي اقتصادي يحقق على حد زعمهم المساواة الاجتماعية والرفاه المادي [4]."

وقد هاجموا الحواضر العباسية، وعاثوا فيها فساداً، ونجحت حركتهم بإقامة مناطق خاصة بهم كالإحساء، والبحرين، إذ أسسّوا دولتهم التي استمرت إلى نحو منتصف القرن

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٢٥/١٠.

(2) المصدر نفسه ، ٩٦/١٠.

(3) البغدادي ، عبدالقاهر بن طاهر بن محمد : الفرق بين الفِرق، تحقيق محمد محيي الدين ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص٢٩٥.

(4) فاروق عمر : الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية ، الطبعة الثانية ، منشورات مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٩٧٧، ص١٦٦.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

الرابع الهجري، وكانت آخر أعمالهم ما قام به أبو طاهر سليمان بن الحسن الجنّابي الذي بدأ عهده بحرق قبور الصحابة في البصرة[1].

وتعد حادثة احتجاز الحجر الأسود من أهم الأحداث البارزة في تاريخ القرامطة ، بما تمثله من تحدٍّ كبير لسياسة الدولة العباسية السائدة . والجدير بالذكر أنهم كانوا يقصدون من هجومهم على مكة والحجاج مضايقة السلطة العباسية .(٢) أما هجماتهم التي نفذوها على البصرة فكانت تهدف إلى بث الفوضى وعدم الاستقرار فيها لتحويل تجارتها إلى موانئ الخليج التي يسيطرون عليها ، إلا أنهم فقدوا تماسكهم بعد وفاة أبي الطاهر في عام (٣٣٢هـ) .

---

[1]أمين أبو ليل: العصر العباسي الثاني، الطبعة الأولى ، دار الوراق ، ٢٠٠٧، ص ٣٢.

(٢) محمد نجيب أبو طالب : الصراع الاجتماعي في الدولة العباسية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٠، ص١٧٦- ١٧٧.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- **الحياة الاجتماعيّة في العصر العباسي الثاني:-**

- **المجتمع العباسي:-**

ينقسم المجتمع العباسي إلى ثلاث طبقات: الطبقة العليا، وتشمل الخلفاء، والوزراء، والقواد، والولاة، ومن يلحق بهم من الأمراء، وكبار رجال الدولة وكبار التجار وأصحاب الإقطاع من الأعيان وذوي اليسار. والطبقة الوسطى ، وتشتمل على رجال الجيش، وموظفي الدواوين، والتجار والصنّاع الممتازين، وأخيراً الطبقة الدنيا ، وتشتمل على العامة من الزّراع، وأصحاب الحرف الصغيرة والخدم، والرقيق، ويأتي في إثر تلك الطبقة أهل الذمة[1].كانت الطبقة العليا غارقة في الترف والنعيم، يتقدمها الخلفاء، وكانت تُجبى إليها أموال الخراج من سواد العراق وأقاصي الدولة وأدانيها ، غير ما كان يجُبي من المكوس على الواردات والصادرات. وقد قدّرت الأموال التي تجُبي للدولة بعشرات الملايين، مما يزيد عن إنفاق الولايات على الجيش، والمساجد، والعمّال، والمستخدمين، والتي كانت ترسل إلى بغداد فيتصرف بها الخليفة، وحاشيته، ورجاله، كما يشاؤون.

وتنقل بعض المصادر أخباراً تكاد تفوق الخيال عن إنفاق الخلفاء، ومن ذلك ما كان يُنفق على حواشي الخليفة وداره وعلى القصر والحرم والخدم في عصر المعتضد والمقتدر أكثر من عشرة آلاف دينار شهريّاً، بل قد يبلغ ذلك أكثر من ثلاثين ألفاً، غير ما يُنفق على البوابين من البيض والسودان، وكان يبلغ ألف دينار، وغير ما يُنفق على المماليك والحرس وكانوا يُعَدُّون بالآلاف، وغير ما يُنفق على المرسومين لخدمة الدار من القرّاء ، وأصحاب الأخبار، والمنجمين ، والبوقيين والمضحكين ، والطبالين ، وأصحاب الصيد والملاّحين في

---

(1) شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني، الطبعة الثانية ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٥ ، ص ٥٣.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

السّفن ، وأصحاب المشاغل والأطباء، ويقال إن نفقة ذلك كله تُقدر بأكثر من مليونين وخمسمائة ألف دينار سنوياً. ويقال إنّه كان في الدار لأيام المكتفي عشرون ألف غلام للحرس، وعشرة آلاف خادم من السّود، وأربعة من الصقالبة، وأربعة آلاف امرأة بين حرّة ومملوكة، وألوف الغلمان، وكان عدد الفراشين ثمانمائة[١].

أمَّا عصر المتوكل، فيُقال : إنّ النفقات لم تبلغ في عصرٍ من عصور الخلفاء ما بلغته في عصره، لاسيما في بناء القصور، إذ بنى ما يزيد على عشرين قصراً بلغ ما أنفقه عليها مائتين وأربعة وسبعين مليوناً من الدراهم[٢].

وكان الوزراء يعيشون في هذا النعيم أيضاً ؛ لَمِا كانوا يأخذونه من رواتب ضخمة، وإقطاعات، وما كانوا يختلسونه لأنفسهم من أموال الدولة، ويُقال إنّ الوزير كان يأخذ إقطاعاً يدرُّ عليه مائة وسبعين ألف دينار، حتى إذا كان عهد المقتدر أُجْرِي عليه راتب قدره خمسة آلاف دينار في كل شهر، ثم صار سبعة آلاف[٣].

وعلى نحو ما كان الوزراء والخلفاء يعيشون في هذا العصر كان يعيش القوّاد، والولاة، وكبار الدولة، وكبار التجار، وأصحاب الإقطاع أيضا . أما الطبقة الوسطى فأغلبها من العلماء والمعلّمين، والشعراء، والمغنين والمفسّرين، ومتوسطي المهارة من الصّناع، وموظفي الدواوين، ورؤساء الجند الذين كانوا يتقاضون رواتب تكفي حاجاتهم دون زيادة، ولكنهم لا يعانون من العَوَز والفقر، وأبناء هذه الطبقة كانوا متوسطي النفقات، بحيث يكفي الواحد منهم

---

(١) الصابي ، أبو الحسن الهلال بن المحسن : الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، تحقيق عبدالستار أحمد فراج ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ١٩٥٨ ، ص ١١ وما بعدها.

(٢) الشابشتي ، أبو الحسن علي بن محمد : الديارات، تحقيق كوركيس عواد ، الطبعة الثانية، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٩٦٦ ، ص ١٥٩.

(٣) انظر الصابي: الوزراء، ص ٢٨٢، ٣٥١.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أن يدفع ألف دينار، ليشتري بيتاً لنفسه، وإذا ما احتاز سبعمائة دينار، فإنه يعدّ ميسور الحال، ولا يعاني فاقة، بل قد يعدّ صاحب مال[1].

وتأتي بعد الطبقة الوسطى طبقة العامة، وتمثل الأغلبية في مجتمع هذا العصر ، وقد كان يقع عليها عبء العمل كله في الزراعة والصناعات الصغيرة وخدمة أرباب القصور، فهي التي تعمل في الإقطاعات والضياع، وهي التي تقوم على تقديم أسباب الحياة للطبقتين الوسطى والعليا، عاملة تارة أو صانعة، أو خادمة تارة ثانية[2].

إن هذه الطبقة ، وإن كانت تمثل غالبية المجتمع العباسي ، إلا إنّها كانت من أسباب الرخاء والنعيم الذي كانت ترفل به الطبقتان العليا والوسطى، فقد كانت الطبقة الدُنيا تكدّ وتشقى ليسعد غيرها، ليكون حظها البؤس والضنك والشقاء.

وقد عبّرت هذه الطبقة عن رفضها ونقمتها على الأوضاع السائدة، بالثورات أحياناً كثورة الزنج، وثورة القرامطة.

أمّا مَن كانوا يعملون في الأرض من الأكرة والزراع فكانوا عبيداً لا يُتْرَكُ لهم إلا ما يسدُّ رمقهم، أمّا صغار الصنّاع والتُّجار الأصاغر والفعلة والفرّاشون والبّوابون وكل من يؤلفون الطبقة العامة ، فقد كان مثلهم مثل رقيق الأرض لا يكادون يجدون ما يضمن قوتهم اليومي.

كما كانت الضرائب تفرض حتى على الأسواق وما يُصنع فيها وما يُباع ويُشترى، ومما زاد هذه الطبقة بؤساً أنّ الأسعار لم تكن ثابتة. فقد كان للقلق السياسي- في بعض

---

(1) انظر الطبري: تاريخ الرسل والملوك ، ١ / ١١٧.

(2) شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني، ص ٦٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

الحالات- أثر في وضع الأسواق، وأسعار السلع فحين يسمع الناس بمرض الخليفة ويتوقعون وفاته فإنهم يتوقعون بعد ذلك خلافاً يقع واضطراباً سياسياً "[١].

وقد أدّى بؤس هذه الطبقة إلى أن ينشأ فيها كثير من القَرَّادين وأصحاب الملاهي الصغيرة، والمهرّجين وراضة الخيل وأصحاب القنص والصيد والأدباء المتسولين المسمّون بالمُكدِين، ويدل دلالة قوية على ما كانت تعانيه هذه الطبقة العامة من البؤس والعيش المرّ أن كَثُر اللصوص حتى أصبحوا في أوقاتٍ كثيرة مصدر خطرٍ عظيم ببغداد لكثرتهم ولشدة فتكهم[٢].

المجون والشعوبية والزندقة:

نتيجة لتباين طبقات المجتمع العباسي، ودخول كثير من العناصر غير العربية وكثرة الجواري والقيان والمغنين والمغنيات، فضلاً عن الترف والغنى - شاع في ذلك العصر شرب الخمر، وضعفت سيطرة ولاة الأمور على مقاليد الحكم، وعبث الأتراك في الحكم، وانصرف الناس إلى الملّذات حتى تجرأ بعض فقهاء الأحناف إلى تحليل بعض الأنبذة غير المسكرّة، فشربَ الناسُ والخلفاء، وتجاوزوا فتوى الأحناف إلى المحرّم من الخمور، ويقول ابن الرومي في ذلك: [٣]

١. أبـاحَ العراقيُّ النبيـذَ وشْربَـهُ وقال حرامـانِ: المُدامـةُ والسّكرُ
٢. وقـالَ الحجـازيُّ: الشَّرابانِ واحـدٌ فحَلَّ لنا مـن بيـن قوليْهما الخمـرُ
٣. سآخذُ مـن قَوْلَيْهِمَـا طَرَفيْهِمَـا وأشربُها لا فَـارِقَ الوَازِرَ الـوِزْرُ

---

(١) بدري محمد فهد : تاريخ العراق في العصر العباسي، المكتبة الوطنية ، بغداد ، ١٩٧٤، ص٣٨٠.

(٢) شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني ،ص ٦٣ .

(٣) ابن الرومي ، أبو الحسن علي بن العباس بن جريح : الديوان ، تحقيق حسين نصار ، الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٣، ٣ / ٩٨٣- ٩٨٤ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويقصد ابن الرومي بالحجازي، الإمام الشافعي، وبالعراقي، أبا حنيفة، وقد شاع المجـون وشرب الخمر عند بعض الخلفاء أمثال المتوكل، وولده المعتز[1].

لم يقتصر الخمر على الخلفاء، بل امتدّ إلى العلماء والشُّعراء وغيرهم، وتحولت الأديرة إلى أماكن للّهو، وشرب الخمر، والعبث الماجن.

وبقيت جذوة الشعوبية الفارسية مستعرة، نظراً لنكبتهم في البرامكة، وآل سهل، وانـضمّ السريان، والهند، والترك إلى زمرة من يشيدون بفـضائل الأمـم المقهـورة، وحـضارتها ومدنياتها، مفاخرين على العرب، ومندّدين بفعالهم، من خلال كتب تجمع مثالب العرب، ومن خلال شعراء شعوبيين، جنّدوا أنفسهم للنيل من كرامة العرب.

وقد تصدى الجاحظ لظاهرة الشعوبية في كتابة " البيان والتبيين " في فصل من فـصوله سماه " كتاب العصا " مصوراً فيه طعن الشعوبية على العرب ورادّاً عليهم.

وقد كانت الشعوبية تؤدي إلى الخروج عن الدّين، فقد اتخذت في العصر العباسي مساراً لم يكن فيما سبق وهو التشكيك في النبّوات، ومن هؤلاء، أحد مدّعي الاعتزال واسـمهِ أبـو عيسى الورّاق"[2].

وقد تصدى لأمثاله عدد من علماء المسلمين ونقضوا آراءهم وبينّوا ما فيها مـن كـذب وزيف.

---

(1) المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين : مروج الذهب،تحقيق شارل بلا ، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ١٣١/٤.

(2) المصدر نفسه، ج٤، ص ٢٣.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

- التَّصوُّف:-

كان الزهد ردّة فعل انعكاسية لحياة الترف والمجون التي سادت العصر العباسي الأول، وتطّور مفهومه في العصر العباسي الثاني، حتى أصبح له أئمته وأفكاره، إذ اتسم هذا العصر بطغيان الخلفاء، والأمراء، والقادة، والطبقة المترفة، وتفاخروا بالنعيم الزائل حتى أنفقوا الملايين على قصورهم، وجواريهم، وشاع الفساد حتى أضحى غير مستنكر في قصورهم، فنهض علماء الأمة، يذكِّرون النَّاس بالجنة ونعيمها، وثواب التائبين العابدين[1]..

وقد صاغ شعراء المتصوفة أفكارهم ومعتقداتهم شعراً، فعبّروا بذلك عن اتجاهٍ من اتجاهات عصرهم، رافضين الواقع، ناظرين بشوقٍ وتضرّع إلى ما في العالم الآخر من نعيم ومتاع.ويرى بعض الدارسين " أن المتصوفة اتخذوا ستار الزهد للدفاع عن حركات التحرر الفكري والتي جسدتها في ذلك العصر حركة القرامطة"[2]..

هكذا كانت المذاهب السياسية، وتعدد الاتجاهات الدينية،وتباين الطبقات الاجتماعية، مجالاً خصباً للنقد الاجتماعي لدى عددٍ كبير من شعراء العصر العباسي الثاني، ومن خلال دراسة أشعارهم اتضح للباحثة أن الشعراء العباسيين في العصر الثاني تباينت مواقفهم فمنهم من كان رافضا لمظاهر مجتمعه رفضا مباشرا ، وتارَةً رافضاً بأسلوب غير مباشر، وتارة أخرى ساخراً منه.

---

(١) أمين أبو ليل: العصر العباسي الثاني، ص ٥٠.

(٢) عبدالرزاق أيوب : انعكاس الفكر السياسي على الأدب العربي في العصر العباسي ، الطبعة الأولى ، دار طلاس ،دمشق ، ١٩٩٠ ،ص ١٦٥

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ثانياً : موقف الشاعر في العصر العباسي الثاني من مجتمعه.

أ : الشاعر الرافض: (رفضاً مباشراً)

يشكل نمط الشاعر" الرافض" في العصر العباسي الثاني واحداً من عدة أنماط، لكنه هو أكثرها جرأةً ومباشرة في نقد المجتمع، وتصويره، " رافض"، أي لا يقبل مصالحةً أو مهادنة لطرف من الأطراف في مجتمعه، ويتجلى رفضه لكل ما يخرجُ على جادّة الصواب، والخير والصلاح الذي ينشده كل مجتمع. إذن هو شاعرٌ رافضٌ إيجابي؛ لأنه يسعى إلى تغيير الواقع من الأسوأ إلى الأفضل. ويتخذُ الرفض لدى هذه الفئة من الشعراء عدة أشكال، لعل أبرزها الرفض السياسي، أي رفض السلطة ، على اختلاف أشكالها ، سواء أكانت متمثلة بخليفة أو وزيرٍ أو والٍ أو قائدٍ ، والشاعر الرافضُ هنا أبعد ما يكون عن السلطة فعلاقته معها علاقة غير ودّيّة ، ومن ثمَّ فهو يتخذ من الهجاء غرضاً يعبر من خلاله عن موقفه المعارض ، مبتعداً في الوقت نفسه عن الغرض المفضل للسلطة ؛ غرض المدح ، وإن كانت الظروف تضطره أحيانا لمدح بعض الخلفاء والوزراء رغبةً في عطائهم .

يرفض شاعر العصر العباسي الأول من ذي قبل تولي الأتراك إدارة الدولة والتحكم في أمورها ، مثلما كان في عهد الخليفة المعتصم، الذي ولىّ فضل بن مروان– وهو غير مسلم– وعيّن قادة أتراكاً أمثال وصيف وأشناس ، وقد وصف دعبل الخزاعي ذلك قائلاً : [1].

لَقَدْ ضَاعَ أَمْرُ النَّاسِ إِذْ سَاسَ مُلْكَهُم وَصِيفٌ وَأَشْنَاسٌ[2] وَقَدْ عَظُمَ الأَمْرُ

وَفَضْلُ ابْنُ مَرْوَانَ سَيَتْلُمُ ثَلْمَـــةً يَظَلُّ لَهَا الإِسْلامُ لَيْسَ لَهُ شِعْبُ

---

(1) دعبل الخزاعي: شعر دعبل الخزاعي، تحقيق عبدالصاحب عمران الـدجيلي ، الطبعـة الثانيـة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٥١.

(2) وصيف وأشناس غلامان تركيّان دخلا مع الأتراك الذين جلبهم المعتصم ليستعين بهـم علـى العـرب والفرس فصارا من قوادهِ وكان لهما دور كبير في حكم المعتصم والواثق

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

فدعبل الخزاعي يرفض سياسة الدولة ، في تعيين وزراء من غير العرب،أو غير المسلمين، لأن فضل بن مروان" لا يبالي أن يصدعَ الإسلام صدعاً مميتاً لا يمكن شِعْبَهُ لأنه من غير أبناء الشعب العربي ولا يدينُ بدينهم"[١].

يحمل هذا الرفض للعناصر غير العربية و غير المسلمة في إدارة الدولة مطالبة بتعريب إدارتها، لأنَّ -الوزراء أو الولاة العرب المسلمين أكثر حرصاً على الأمة وأشّد أمانة و تحمّلا للمسؤولية، وقد رفض شعراء العصر العباسي الثاني تفّرد الطبقة الحاكمة بالنعيم والترف لاسيما الخلفاءُ، و كذا انشغالهم عن أمور العامة أو الإحساس بمعاناتهم، مثلما نجده في قول ابن الرومي :[٢].

تَمْشُونَ مُخْتَالينَ فـــي حُجُـــراتِكُمْ ثَقِالَ الخُطا أكْفَـــالُكُمْ تترجْـــرَجُ

ويرفض ابن بسام* التدهور السياسي الذي كان يشهده عصره إذ ما إن تنقضي خلافة حتى تأتي أضعف منها، فيقول في ذلك: [٣]

١. قالوا: خَلِيْفَتُنا قَدْ ماتَ، قُلْـــتُ لَهُـــمْ: في الكَلْبِ منهُ وفي أمثالِـــهِ خَلَـــفُ

٢. حَتّى إذا قَامَ شَرٌّ مِنْـــهُ قُلْـــتُ لَهُـــمْ: الآن طَابَ عليه الهَمُّ والأَسَـــفُ

يمثل هذان البيتان حواراً متخيلاً بين الشاعر وعامة الشعب، يكشف الشاعر خلاله عن

---

(١) راجحة عبد السادة سلمان الزبيدي: شعر النزعات الشعبية في العصر العباسي الأول، رسالة ماجستير، الجامعة المستنصرية، ١٩٨٩، ص ١٤٤

(٢) ابن الرومي: الديوان ٢ / ٤٩٨ .

*ابن بسام :علي بن محمد بن نصر بن منصور بن بسام ، كنيته أبو الحسن ، ويقال له البسامي .عاش في بغداد، وتوفي سنة ٣٠٢هـ وقيل ٣٠٣هـ ، وقيل بعد ٣١٥ هـ، وله من العمر سبعون عاماًوكان ديوانه مئة ورقة ، وله :ديوان الرسائل وأخبار عمر بن ربيعة وأخبار الأحوص .

- انظر ياقوت الحموي :معجم الأدباء ،٥/٣١٨-٣٢٦ / ابن خلكان : وفيات الأعيان ،١/ ٤٤٤_٤٤٥ .

(٣) العبدلكاني الزوزني ، أبو محمد عبدالله بن محمد : حماسة الظرفاء، تحقيق محمد جبار المعيبد ، الجمهورية العراقية ، وزارة الثقافة والفنون ، ١٩٧٨ ، ٢/ ١٦٧.

- وانظر : د. يونس أحمد السامرائي: شعراء عباسيون، الطبعة الأولى ، عالم الكتب ، مكتبة النهضة العربية ،بيروت ، ١٩٨٧، 2/ ٤٦٣.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

رفضٍ مباشر لصفات الخليفة الحاكم، يجرّده ابن بسام من آدميته بقوله:(في الكلب منه)، ويجسدُ هذا الحوار أمل الرعية بالخليفة المنشود والمنتظر، الذي سيخلصها من بؤسها وشقائها، لكنْ سرعان ما يتبدّد هذا الأمل، فالخليفة الجديد شرٌّ من سابقه.

وقد كان ابن بَسّام من أكثر الشعراء جرأة وشجاعة في التعرض لأقطاب الدولة، لاسيما تعرضه للوزراء، وقد فاق شعراء عصره نقداً وذماً وهجاء لهم.

فقد رفض _ ابن بسام _ إسراف بعض هؤلاء الوزراء من أمثال : حامد بن العباس، والعباس بن حسن، وابن مُقلة، وغيرهم، مذّكراً إياهم بأنّ كل ما يصبون إليه من مالٍ وجاهٍ وثراء سيؤول يوماً إلى الزوال، وبخاصة ما يأتي عن طريق الظّلم والمصادرة، من ذلك قوله في ابن مقلة*- أحد وزراء المقتدر-:[1]

١. قُلْ لابنِ مُقْلَةَ مَهْلاً لا تكُنْ عجـلاً فإنّما أنْـتَ فـي أضْـغَاثِ أَحْـلامِ

٢. تبني بأنقاضِ دورِ الناسِ مُجْتَهِداً دَارَاً سَـتَنْقَضُّ بَعْـدَ أَيْـامِ

يُعلن ابن بسام رفضه استغلال الوزير لعامة الناس، وقد كان رفضه صريحاً ومباشراً ، ينمّ عن جرأته في التنبؤ لمستقبل وزارته.

---

* ابن مقلة : الحسن بن علي بن الحسن بن عبدالله بن مُقْلة ، أبو عبدالله ، ومُقْلة اسم أُمٍّ لهم كان أبوها يرقصها ، فيقول : يامُقْلة أبيها ، فغلب عليها . ولد في سلخ (آخر رمضان) سنة ثمانٍ وسبعين ومائتين ،ومات في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة .

انظر : ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، دار المستشرق ، بيروت ، (د.ت) ٣/ ١٥.

١- ابن أبي حديد : شرح نهج البلاغة ،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الأولى ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٧،١٩ /٧٣.

* أبو علي محمد الخاقاني : كان أبو علي أكبر ولد أبيه ، وتقلد بعد وفاته ديوان زمام الخراج والضياع السلطانية في وزارة الحسن بن مخلد ، ثم تقلد الوزارة للمقتدر ، وقد بسط يده وأيدي أولاده وكتّابه بالتوقيعات بالصِّلات والإطلاقات والإقطاعات والتسويغات وأخذ المرافق على إضاعة الحقوق وإسقاط الرسوم ، فسخفت الوزارة وأخلقت الهيبة وزادت الحال في إخلال الأعمال .....وقد كان الخاقاني متَخلِّفاً عامياً إلا أنّه كان خبيثاً داهيةً .

انظر : الصابيء: الوزراء ، ص٢٨٤-٣٠٤ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

ويكشف شاعر العصر العباسي الثاني عن تعامل بعض الوزراء بالرشوة في تعيين الولاة ،ومن ثمَّ تولية أصحاب المطامع الشخصية وتنحية من هم أجدر وأحق ، مثلما يصف ابن بسام وزارة أبي علي محمد الخاقاني* قائلاً:(١)

١. وَزِيْرٌ ما يَفْيقُ مِنَ الرَّقَاعَةِ ... يُوَلّي ثُمّ يَعْـزِلُ بَعْـدَ سَـاعَهْ
٢. وَيُدْني مَنْ تَعَجَّلَ مِنْهُ مـالٌ ... ويُبْعِدُ مَنْ تَوَسَّـلَ بالـشَّفَاعَهْ
٣. إذَا أَهْلُ الرِّشا صَارُوا إَلَيْهِ ... فَأَحْظى القَومِ أَوْفرُهُمْ بِـضَاعَهْ

يمثل هذا الرفض المباشر والجريء عند ابن بسام وغيره من شعراء العصر العباسي الثاني دعوة الشّعب للمشاركة في رفض سياسة السُّلطة الجائرة، و رفض التباين الشديد في هرم المجتمع القائم على الطبقية والفوقية التي تزرع الحقد والكراهية في قلوب أبنائه.

ويتصاعد الرفض لدى شعراء العصر ليصل إلى منصة الحكم وقرارات الخليفة ، التي تخالف العُرف السياسيّ للدولة، كتعيينه وزيرين للدولة في آنٍ معاً، مثلما نَدّد بذلك ابن بسام قائلاً: (٢)

١. فَقَـدْتُكُمُ يَـابَنِي الجَاحِـدَهْ ... ففـي كُـلِّ يَـومٍ لَنَـا آبِـدَهْ
٢. مَتَى كَانَ يُعْرَفُ فِيْمَـا مَـضَى ... وَزِيْـرَانِ فِـي دَوْلَـةٍ واحِـدَهْ

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء : ١٤/ ١٤٦/ وانظر : الراغب الأصفهاني ، أبو القاسم محمد بن فضل: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ، تحقيق د.عمر الطباع ، الطبعة الأولى ، دار الأرقم ، بيروت ، ١٩٩٩، ١/ ١٨٩.

(٢) الثعالبي ، أبو المنصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل : خاص الخاص، قـدَّم لـه حـسن الأمـين ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ١٣٧.
وانظر :الأصفهاني : محاضرات الأدباء ١/ ١٨٤.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لابُدّ أنّ سيادة العناصر الأجنبية في الدولة- لا سيما العنصر التركي - ستؤدي إلى اضطرابات سياسية، وتخلخلٍ في جهاز الدولة الإداري، فالخليفة أصبح تابعاً ومحكوماً لتلك العناصر بل أصبح أداة توجهها كيفما تشاء .

إنّ الشّاعر الرافض في العصر العباسي الثاني شاعرٌ مشبعٌ بالمعاناة الذاتية ، وقد تمتد هذه المعاناة حتى تصبح معاناة جماعية ، فابن الرومي مثلاً شاعرٌ مُثْقَلٌ بالهمومِ والمعاناة الذاتية من فقرٍ، وتطيّرٍ، وغدرِ الأصدقاء، وهامشيةٍ متناهية، وتزداد معاناته ليثور على الأوضاع السائدة في مجتمعه ، و على الخلل الذي أصابه فأعلى قوماً من أراذل الناس، وحطّ من شأنِ أصحابِ العقول والقدرات الذين يرى نفسه واحداً منهم، فيقول: [1]

١. أَتُرَانِي دُونَ الأُلَى بَلَغُوا الآ ... مالَ مِنْ شُرْطَةٍ ومِنْ كُتّابِ
٢. وتُجَارٍ مِثْلَ البَهَائِمِ فَازوا ... بالمُنَى فِي النُّفُوسِ والأَحْبَابِ
٣. فِيهِمُ لُكْنَةُ النَّبِيطِ[2] ولكِنْ ... تَحْتَهَا جَاهِلِيَّةُ الأَعْرَابِ
٤. أَصْبَحُوا يَلْعَبُونَ فِي ظِلِّ دَهْرٍ ... ظَاهِرِ السُّخْفِ مِثْلِهُم لَعَّابِ

يُقارن ابن الرومي بينه وبين من بلغوا أرفع المناصب ويعجب، هل تقصّر به مواهبه وقدراته عن الوصول إلى ما وصل إليه أصحاب الشُرطةِ والكتّاب، ولعلّه في قرارة نفسه يسعى لإدراك منصبٍ في هذين المجالين فخابَ مسعاه، ولهذا يثور على هذا الوضع الشاذ في المجتمع : لا بدافع الغيرة والحسد، كما فهم بعض الذين قالوا " إنّ ابن الرومي حسودٌ و شاذّ في تصرّفاته ، فالمجتمع هو الشّاذ بوضعه، والتناقض العجيب في المجتمع مع فقدان العدالة يولد كرهاً عند المحرومين "[3].

---

(١) ابن الرومي: الديوان، ١/ ٢٨٢.

(٢) لكنة النبيط: لهجة الأنباط

(٣) عبد الحميد محمد جيده: الهجاء عند ابن الرومي، المكتب العالمي، بيروت، ١٩٧٤، ص ٢٩٢- ٢٩٣.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

ويرفض ابن الرومي التّباين الطبقي لما فيه من ظلم وجور لعامة النّاس، فالطبقة العليا غارقة في نعيمٍ ولذّة ، فيقول مصوّراً ترفَ ساسة الدّولة وقادتها: (١)

١. ويَظَلّــونَ فــي المَنــاعِمِ واللّــذّ ... اتِ بَــيْنَ الكَواعِــبِ والأَتْــرَابِ
٢. لَهُمُ المُسْمِعَاتُ مــا يُطــرِبُ الــسّا ... مِــــعَ والطّائِفِــــاتُ بــــالأَكْوابِ
٣. نَعَمٌ أَلْبَــسَتْهُم نِعَــمُ اللّــهِ ظِــلالَ ... الغُــــصُونِ مِنهــــا الرَّطــــابِ

لقد رفضَ ابن الرومي المجتمع العباسي، بساسته وبعامته أحياناً، ويرى أنه مجتمع فاشل،لأنّه قَدّم هذه الشريحة التي حكمتهم ورعت شؤونهم وتحكمت في مستقبل دولتهم، فهو لا يرتضيهم عبيداً، فكيفَ يرتضيهم المجتمع سادة وقادة، فيقول: (٢)

١. لَــو تَــرى القَــومَ بَيْــنَهُنَّ لأُجْبَــرْ ... تَ صُــرَاحاً ولَــمْ تَقُــلْ باكتِــسَابِ
٢. مِــنْ أُنَــاسٍ لا يُرْتَــضَون عَبِيْــداً ... وهــم فــي مَرَاتِــبِ الأَرْبَــابِ
٣. حَــالُهُم حَــالُ مَــنْ دَارَتْ لَــهُ الأفْــ ... ــلاكُ واستَوسَقَتْ علــى الأقْطَــابِ

يسعى ابن الرومي ، في هذه الأبيات ، إلى إبراز فسادِ النظام السياسي، وشيوع الظلم الواقع على بعضِ أفراد المجتمع، " فقد استمدّ من حركة الأفلاك " استوسقت على الأقطاب " الدلالة غير المنطقية لدوران الأزمان وتبدّلها، فجاءت هذه الدلالة انعكاساً عن نفسية الشاعر بكونها جزءاً من نفسية المجتمع، لتعكس طبيعة التركيب الاجتماعي في تلك الفترة، حين صار العبيد أسيادا "(٣).

ويشكل القضاء قطباً من أقطاب الدولة السياسية، وإحدى سلطاتها المتمثلة بالتشريعية، فالقضاة هم رجال الشرع والمسؤولون عن تدبير شؤون المسلمين الدينية والدنيوية، فقد كانوا أيضاً ممن رفض عدد من شعراء العصر العباسي -- الثاني- بعض سلوكاتهم الخارجة عن

---

(١) ابن الرومي: الديوان، ١ / ٢٨٢.
(٢) المصدر نفسه، ١ / ٢٨٤.
(٣) محمد صالح الخوالدة: صورة المجتمع في شعر ابن الرومي، رسالة دكتوراه، اربد، جامعة اليرمــوك، ٢٠٠٩، ص ٧٤.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الإطار العام لسمات القضاة من ورعٍ، ونزاهةٍ، وعدلٍ، واستقامةٍ، فإن كان خلاف ما يُراد فيه من كياسةٍ وحلمٍ فإنه يتعرض أيضاً لرفض المجتمع له، فها هو عبد الصمد بن المعذل يرفض القاضي غير العالم، لأن الجهل ، خاصة بأمور الدين والشريعة ، يفضي بالتأكيد إلى أحكام جائرة، فيقول في القاضي إبراهيم بن محمد التيمي:[١]

١. أبو إِسْحَاقَ صَاحِبُهُ مُعَنّى[٢] يروحُ وَيَغْتَدي في غَيْرِ مَعْنَى

٢. وَيَنْظُرُ في القَضَاءِ بغير عِلْمٍ وأَجْهَلُ ما يكونُ إِذَا تَأَنّى

ويرفض ابن الرومي تهافت القضاة على الدّنيا، وسعيهم إلى تحقيق المآرب الخاصة من خلال منصبهم الإداري، إذ إن العمل في القضاء يتطلّب نزاهة مطلقة وزهداً في الدّنيا، ومجاهدة دؤوبة للنفس البشرية الأمّارة بالسوء، فيقول – ابن الرومي – رافضاً القضاة المشغوفين بالدنيا: [٣]

١. ألا إِنّما الدُّنيا كَجِيْفَةِ مَيْتَةٍ وَطُلاّبُها مِثْلُ الكِلابِ النّوَاهِسِ[٤]

٢. وأَعْظَمهُم ذَمّاً لها وأشدُّهم بها شَغَفاً قَوْمٌ طِوَالُ القَلانِسِ

يوظف ابن الرومي التصوير الفني لإقرار حقيقة ثابتة، حينما شبَّه الدّنيا بالجيفة الميتة التي تشمئزُ منها النفوسُ السّوية، لكنّ القضاة وإن كانوا أكثر الناس ذمّاً للدنيا إلاّ إنَّهم في واقعِ الأمر أكثرهم شغفاً وحبّاً لها.

ويرفض ابن طباطبا العلوي العمّال والقضاة الذين يصدرون أحكامهم بسرعةٍ ودون تروٍ وأناة، متسببين في ظلمٍ عامة الناس وضياع حقوقهم ، فيقول في قاضي أصبهان: [٥]

---

(١) عبد الصمد بن المعذل: شعر عبد الصمد بن المعذل، تحقيق زهير غازي زاهر ، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف ، ١٠٧٠ ، ص ١٩٢.

(٢) معنّى: مُتعب.

(٣) ابن الرومي: الديوان، ٣ / ١٢٢٨ .

(٤) نهس الكلب فلاناً: قبض على لحمهِ ومدّه بالفم.

(٥) ابن طباطبا العلوي الأصبهاني: شعر ابن طباطبا العلوي الأصبهاني، جمعه وحققه وقدم له د. شريف علاونة، دار المناهج، عمان، ٢٠٠٢، ص ١٧٦.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

١. وفِيْنَــا عَــامِلا عَــدْلٍ وجَــوْرٍ هُمَا حِلْفَــا انْبِــسَاطٍ وانْقِبَــاضِ

٢. فوالى حَرْبَنا في وَصْفِ قَــاضٍ وَقَاضِــينَا عُقَــابٌ ذُو انْقِــضَاضِ

يمثّل الشاعر الرافض صوت الشعب، فهو بمثابة الناطق الرسمي باسمه، يكشف همومهم وآلامهم، وآمالهم، ويندّد ويشجب كُلّ ما يتعارض مع العــرف الــسياسي والاجتمــاعي فــي مجتمعهم ، ومن ثمَّ فهو الصوت الجريء الذي استطاع أن يعلو في وجه السلطة ومسؤوليها ؛ إحساساً منه بالانتماء إلى الجماعة ، وكذلك الدور الاجتماعي الذي أخذه على عاتقه .

وقد رفض شاعر العصر العباسي الثاني أنماطاً من الفئة المثقفة في مجتمعه كالشعراء، والعلماء، والأدباء، والكتّاب، وقد كانت دواعي الرفض تتفاوت بين أسباب شخصية وأســباب تمثّل الواقع السلبي لحال هذه الفئة المثقفة، إذ اعتورها الضعف والخلل الذي اعتور الجهــاز السياسيّ والإداريّ في الدّولة.

لقد برز في العصر العباسي الثاني عددٌ من الكتّاب يتصفون بالجهل، وقلــة المعرفــة ، وهذا ما عبّر عنه ابن بسام في أبياته التي تعرض فيها إلى أسد ابن جهور الكاتب ، قائلاً: [١]

١. تَعِسَ الزَّمانُ لَقَــدْ أَتَــى بِعُجَــابِ وَمَحَــا رُسُــومَ الظَّــرْفِ والآدَابِ

٢. وأَتَى بِكُتّابٍ لَــو انْبَــسَطَتْ يَــدي فِــيْهِمْ رَدَدْتُهُــمُ إلَــى الكُتَّــابِ

٣. أوَ مَا تَرى أَسَدَ بنَ جَهْوَرَ قَدْ غَــدا مُتَــشَبِّهاً بِأَجِلَّــةِ الكُتَّــابِ

إنّه زمن العجائب والمتناقضات، فكتّابُ العصرِ بعضهم أشــبه بــالأميّين، وكــأنهم لا يمتلكون أدوات الكتابة وفنونها فهم يستحقون أن يُرَدّوا إلى الكتّاب. وإن كان بعضهم يتــصف بالجهل فإن بعضهم الآخر يتصف بفسادِ الأخلاق ، مثلما عبّر عن ذلــك الــشاعر البحتــري بقوله:[٢]

---

(١) ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين محمد بن أبي بكر : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٩ ، ٣ / ٣٦٤.

- المسعودي : مروج الذهب: ٥، / ٢٠٢

- وانظر إبراهيم النجار : مجمع الذاكرة أو شعراء عباسيون منسيون ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الجامعة التونسية ، (د. ت) ، ٣ / ١٨٥

(٢) البحتري : الديوان ، تحقيق د. عمر الطباع ، دار الأرقم ، بيروت ، ٢٠٠٠، ١ /٢٣٩.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library Yarmouk University

١. أَبَــا نَهْــشَلٍ! لأبــي غَــانِمٍ[١] خَلائِقُ يوحشُ مَــنْ جانَبَــهْ
٢. بِغَــاءٌ يَعــودُ علــى نَفْــسِهِ وشُؤْمٌ يَعُودُ علــى صــاحِبِهْ
٣. ومِنْ عَجَبِ الدَّهْرِ أنّ الأَمِيْـــــ ـــرَ أَصْبَحَ أَكْتَبَ مِنْ كَاتِبِــهْ

ولشاعر العصر العباسي الثاني موقف من الترف والغنى اللذين يتــسببان فــي اللهــو والمجون، والانشغال عن أمور الدولة، وشيوع الظلم، فابن الرومي مثلاً يصور حال الطبقــة الغنية في عصره، وفي تصويره لها رفضٌ شديدٌ لما هي عليه، فنجده يقول: [٢]

١. أَصْبَحُوا ذَاهِلِيْنَ عَنْ شَــجَنِ النَّــا سِ وإنْ كَانَ حَبْلُهم ذَا اضْــطِرابِ
٢. في أُمورٍ وفي خُمُــورٍ وســمُورٍ وفــي قَــاقُمٍ وفــي سِــنْجَابِ
٣. وتَهاوِيلَ غَيْرِ ذاكَ مِنَ الرَّقْـــــ ـــمِ ومِنْ سُنْدسٍ ومِنْ زِرْيَــابِ
٤. عِنْدَهُمْ كُلُّ ما اشْــتُهُوهُ مِــنَ الآ كَــالِ والأشْــرِبَاتِ والأشْــوَابِ

يعزي ابن الرومي أسباب الخلل والاضطراب في الدولة وسياستها ، لانشغال الطبقة الحاكمــة بالملذات من طرب ولهو وشراب ،وانقطاعهم عن الرعية ومتابعة شؤونها .

ومثلما رفض ابن الرومي- وغيره من الشُعراء- الترف الفاحش الذي كانت تــنعم بــه الطبقة العليا دون غيرها، كذلك فإنه يرفض الفقر الذي حَلّ بالطبقة الكادحة التي تمثّل غالبيــة الشَعب، فهذا التفاوت الكبير بين الطبقتين قسمةٌ غير عادلة، فيقول ابن الرومي يصف حمــالاً عجوزاً مُضطهداً في مجتمعه، حرمته الدَنيا ما أعطته غيره: [٣]

١. رَأَيْتُ حَمّالاً مُبِــينَ العَمَــى يَعْثُرُ بالأكْمِ وفــي الوَهْــدِ
٢. مُحتْمِلاً ثِقْلاً عَلــى رَأْسِــهِ تَضْعُفُ عَنْهُ قُــوةُ الجَلْــدِ
٣. بــين جَمِــالاتٍ وأشْــباهِهَا مِنْ بَشَرٍ نَامُوا عَنِ المَجْــدِ
٤. وكُلُّهُــمْ يَــصْدِمُهُ عَامِــداً أو تَائهَ اللُّــبِ بِــلا عَمْــدِ
٥. والبائسُ المِسْكِينُ مُسْتَسلِمٌ أَذَلُّ للمكْــرُوهِ مِــنْ عَبْــدِ

---

(١) أبو غانم محمد بن إسحاق الخثلي، كان كاتباً لأبي نهشل بن حميد.

(٢) ابن الرومي: الديوان، ١ / ٢٨٥.

(٣) ابن الرومي: الديوان، ٢ / ٧٠٥.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

يكشف ابن الرومي الشاعر الإنسان عن مشاكل مجتمعه وعيوبه، مدافعاً عن المظلومين المسحوقين، واقفاً في وجه المتسلطين الأقوياء المتنفذين، وقد عبّر النص عن قوة التصوير العاطفي المؤثر، فصورة الحمّال هي رمز للإنسان الفقير البائس المظلوم في عصره، وهو معادلٌ موضوعي للطبقة الكادحة في المجتمع، " وهنا يختلط الرمزُ بالواقع الحي، ليعبر عن مأساة الإنسان في المجتمع العباسي بل في كل مجتمع في أي مكان وأي زمان"[1].

وقد رَصَدَ شاعر العصر العباسي الثاني الظواهر الاجتماعية السلبية التي غزت مجتمعه وتفشت فيه حتى أضعفت بنيته، مثلما جاء في شعر ابن الرومي في مواضع متعددة، حيث يعلن رفضه الحازم لما اعتور مجتمعه من فساد، فقد وصف دار خالد القحطي وما كان بها من تحررٍ وفساد، قائلاً[2]:-

١. هيَ الدَّارُ يُؤوِي لَيلُها كُلَّ فَاسِقٍ ... وَفَاسِقَةٍ مَقْبُوحَةِ السِّرِّ والجَهْرِ
٢. لَهَا ربُّ سَوْءٍ مِثْلُها، خُلِقَتْ لَهُ ... وفَاقاً وكَانَ الأمْرُ يُقْدَرُ للأَمْرِ
٣. إذَا جُمِعَتْ ضِيفَانُهُ ونِسَاؤُهُ ... فَبَطْنٌ على بَطْنٍ، ونَحْرٌ عَلى نَحْرِ
٤. خَلِيطَانِ فوضَى مِنْ رِجالٍ ونِسوَةٍ ... يَبِيتُونَ يُحْيُونَ الفُسُوقَ إلى الفَجْرِ
٥. فَمِنْ لَعْنَةٍ تَغْشَى ضَجِيْعَي خَطِيْئَةٍ ... ومِنْ رَحْمَةٍ تَغْشَى شهيدَيْنِ في قَبْرِ
٦. كَأَنّي أرَاهُم بَيْنَ رِجْسٍ ورِجْسَةٍ ... تُحَنْدِسُ من سَوْءاتِهِم لَيْلَةُ القَدْرِ
٧. يَبِيتونَ لَمْ يَخْشَوا مِنَ اللهِ نِقْمَةً ... وَلاَ حَفِلُوا فِيهِ بِكَيْدٍ ولا مَكْرِ

يرفض ابن الرومي هذه الفوضى الأخلاقية رفضاً قاطعاً، إذ إنها فوضى لم يعتدها المجتمع الإسلامي والعربي من ذي قبل، حيث الاختلاط، والزنا،والفسق بل وتخصيص بعض الدور لممارسة اللهو والفاحشة ، ولذا فهؤلاء يستحقون لعنه الله وسخطه.

يشهدُ المجتمع العباسي في هذا العصر تناقضات كالغنى والفقر، والمجون والزهد، والعلم والجهل، وغيرها من التناقضات، وقد رفض بعض شعراء العصر العباسي الثاني هذا

---

(١) محمد صالح محمد الخوالدة: صورة المجتمع في شعر ابن الرومي، ص ١٤٧.

(٢) ابن الرومي: الديوان، ٣ / ١١١١- ١١١٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الزمان الذي اختلفت فيه مساعي الناس، فجلُّهم يسعون إلى الشر ويعرضون عن الخير، وفي ذلك أسباب الشقاء والتعاسة، فها هو منصور الفقيه، يصف هذا الزمان، ويشكو من الفساد الذي لحق بمجتمعه[1].

١. لَمْ يَرَ النّاسُ زَماناً كَزَمَانٍ نَحْنُ فيهِ
٢. لَسْتَ تَلْقَى أحداً يسـ ـعى بخَيْرٍ يَرْتَجِيْهِ
٣. إنّما أكْثَرُ مَنْ يسـ ـعَى بخَيْر يَبْتَغِيهِ
٤. أَحْمَدُ اللهَ فَكُلٌّ يَشْتَكِي مَا أَشْتَكِيْهِ

لقد تغيرت المفاهيم والقيم الاجتماعية – أيضاً – مثلما تغيّر الناس وأحوالهم، فالخلل السياسي والإداري استشرى حتى أصاب المثل العليا في المجتمع، فالجود – مثلاً – أصبح في نظر البعض ضرباً من الجنون، وأصبح البُخلُ صواباً، وأصبح الهجاءُ مطلباً، والمديحُ مهرباً، وفي ذلك يقول جحظة البرمكي* : [2].

١. تَسَاوى النّاسُ في فِعْلِ المَسَاوي فَمَا يَسْتَحْسنون سِوى القَبيحِ
٢. وَصَارَ الجُودُ عِنْدَهُمُ جُنُوناً فَمَا يَسْتَعقِلُونَ سِوى الشّحِيْحِ
٣. وَكَانُوا يَهْرُبُونَ مِنَ الأهْاجي فَصَارُوا يَهْرُبُونَ مِنَ المدِيحِ

---

(١) عبد المحسن فراج القحطاني: منصور بن إسماعيل الفقيه حياته وشعره، دار القلم، بيروت، ١٩٨١م، ص١٥٩.

*– جحظة البرمكي : هو أحمد بن جعفر بن موسى بن الوزير يحيى بن خالد بن برمك ،أبو الحسن ، نديم وأديب ومغنٍ ،من أهل بغداد .لقب بجحظة لنتوء في عينيه ، لقبه ابن المعتز ، مليح الشعر ، حاضر النادرة ، نادم ابن المعتز والمعتمد ، له ديوان شعر كان موجودا من القرن السابع بحلب ، ولأبي الفرج كتاب في أخباره .توفي ٣٢٤هـ .

– انظر : ياقوت الحموي : معجم الأدباء ١/ ٢٤١– ٢٨٢ طبعة دار الفكر / ابن خلكان :وفيات الأعيان ١/١٣٣– ١٣٤ / الزركلي ، خير الدين : الأعلام ، الطبعة الخامسة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ١/ ١٠٧ .

(٢) جحظة البرمكي ،الديوان ، تحقيق جان عبدالله توما ، إشراف د. سعدي ضناوي ، الطبعة الأولى ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٦ ، ص64 .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

ب – الشاعر الرافض (رفضا غير مباشر)

ومع ما تقدم من مواقف الشُّعراء ورفضهم المباشر لمظاهر الفساد ، ورغم تنديدهم بالسلطة وسياستها، ونقدهم القائمين على إدارة شؤون البلاد فإنَّ هناك مواقف لم يستطع فيها الشعراءُ الكشف عن وجهاتِ نظرهم الحقيقية، فلجأوا إلى أساليبَ لغوية شتى تقوم عنهم بكشف ما يتعرضون له من ظلم وجور ، مثل التورية والكناية ، فألقوا أسباب معاناتهم تلك على الزمن ورأوا فيه الغدر والظلم فسخطوا عليه وذموُه متجاهلين المصدر الحقيقي لبواعث الآمهم ومعاناتهم، ونسبوا إليه كُلّ ما يُصيبهم من شرٍ، وصَبُّوا على الدّهر وأهله كُلّ نقمتهم ولعنتهم.

إنّ هذه الفئة من شعراء العصر العباسي الثاني هم ممن يرفضون الواقع، معلقين أسباب الرفض على الحياة والزمن والدّهر والأيام، أي جعلوا الأسباب عامة غير مباشرة ولا مخصصةً، وذلك هرباً من مُسَاءلة الدولة والاصطدام معها، والوقوع في شباكها من جهة، ولعدم إيمانهم بفاعلية أجهزة الدولة في تغيير الواقع من جهة أخرى ، فهم إنْ صرّحوا بالرفض فذلك لن يغيّر شيئاً لديها ، فاختاروا الرفض غير المباشر سبيلاً للتعبير عن معاناتهم والآمهم.

يصوغ(شاعر الرفض) غير المباشر رفضه عن طريق تقديم خلاصةٍ لتجاربه، أو رؤيته الخاصة في الحياة، وهي خلاصة ورؤية تكشف عن مُعَاناةِ الذات في عالم المتناقضات، فالموازين اضطربت والقيم الاجتماعية قد تغيّرت، فعلا شأنُ السفهاء، وقَلّ نصيب أهل الهّمة والعلم في هذا العصر، مثلما أورد الجاحظ في قصيدة لأحد الشعراء يصف حالة الأديب في عصره، فيقول[1]:-

١. أقَامَ بِدارِ الخَفْضِ راضٍ بحَظِّهِ وذو الحِرْصِ يَسْري مِنْ حَيْثُ لا أحَدَ يَدْري
٢. يَظُنُّ الرِّضَا بالقَسْمِ شَيْئاً مَهُوْناً فحَلَّ لَنَا مِنْ بَيْنِ قَوْلَيْهِمَا الخَمْرُ
٣. أَظُنُّ غَبيَّ القَومِ أَرْغَدَ عِيْشَةً وأَجْذَلَ فِي حَالِ اليَسَارَةِ والعُسْرِ

(1) الجاحظ ، أبو عمرو عثمان بن بحر : رسائل الجاحظ، تحقيق محمد عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١ / ٣٢٩ – ٣٣٠.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إنّ ترويض النفس وتعويدها على قيمةِ الرّضا أَمْرٌ ليس بالهَيِّنِ، بل إنّه يحتاجُ إلى مكابَدَةٍ ومَشَقةٍ وصَبْرٍ، في هذا الزمن الذي تغيّرت فيه المقاييس والقوانينُ الاجتماعية، فالغبيُّ في عيشٍ رغيد، والعَالِمُ والأديب في عُسْرَةٍ وشقاء.

يرفض الجاحظ حَال الأديب في عصره، ويشير من بعيد إلى سوء إدارة المسؤولين في تقديم مَنْ هم أقلّ منه عِلماً وكفاية أدبية، ولذلك لا بُدّ من الرّضا إزاء إرادة السّلطة وسياستها، لكنه رضا يحتاج إلى صَبْرٍ وتعويدٍ، ومكابدة.

ومما يزيدُ إحساس الشاعر بالجور والظلم فقدانه الصديق الحَقّ، الذي يخفّفُ عنه معاناته ويشاركه آلامه ، فالصّديق في هذا العصر تَلَوَّن بتلَوّن الزمن، وتغيّر مفهوم الصداقة، لتصبح نَفْعيّة، محكوماً دَوَامُها بدوامِ المنفعةِ أو زوالها.

فالشاعر، مثلما يرفضُ الزمان المتلوّن، يرفض الصّديق الذي تلّون مثله، كما يقول سعيد بن حميد*:- (١)

١. وما أَنْتَ إلاّ كالزَّمانِ تَلَوَّنَتْ نَوائِبُ من أَحْدَاثِهِ وأُمُورُ
٢. فإنْ قَلَّ إنْصَافُ الزَّمانِ وجُودُهُ فَمَنْ ذَا على جَوْرِ الزَّمَانِ يُجِيْرُ

---

*- سعيد بن حميد : هو سعيد بن حميد ، وكنيته أبو عثمان .كاتب وشاعر ، ومن أصل فارسي ، أقام ببغداد وسامراء ، عرف بأنه كاتب للخليفة المستعين (٢٤٨-٢٥١هـ) وقع تهاج بينه وبين أبي العيناء وأبي علي البصير . وكان صديقا لفضل الشاعرة .

- انظر : الأصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين : الأغاني ، تحقيق عبدالكريم إبراهيم الغرباوي ، إعداد لجنة نشر كتاب الأغاني بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٣ ، ١٨/١٥٤-١٦٧/ وانظر : النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب : نهاية الأرب ففي فنون الأدب ، تحقيق محمد رضا مروة ويوسف الطويل ويحيى الشامي ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٤ ، ٣/ ٩٣

(١) سعيد بن حميد: رسائل سعيد بن حميد وأشعاره ، تحقيق د. يونس أحمد السامرائي ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٧١ ، ص ١٢٩.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

ولا يرى الحمدوي(*)حرجاً من التصريح بأنّ الحرمان هو نصيب المتمهّرين بالكتابة، مُدِيْناً بذلك قيم العصر التي تهين بالنابهين وتفقرهم، وتكرم الخاملين وتُغنيهم، فيقول في ذلك(١):-

١. ثِنْتَانِ مِنْ أدواتِ العِلْمِ قَدْ ثَنَّتا ... عَنَانَ شَأْوِي عَمّا رُمْتُ مِنْ هِمَمي
٢. أمّا الدَّواةُ فَأَدْمى جُرحُها جَسَدي ... وَقَلَّمَ الحَظُّ تحريفٌ من العِلْمِ
٣. وجَبّرَتْ لي صُحفُ الحَرْفِ مَجبرةً ... تَذُودُ عَنّي سَوَامُ المالِ والنّعمِ

ويرفضُ أبو العيناء * هذا المجتمع المتناقض، ويرفضُ – كذلك – السياسة القائمة على النظرة الماديّة للفرد ، التي ترفع من شأنِ الغني، وتحطّ من شأن الفقير، إذ يقول (٢):-

١. مَنْ كَانَ يَمْلِكُ دِرْهَمينِ تَعَلَّمَتْ ... شَفَتَاهُ أنواعَ الكَلامِ فَقَالا
٢. وتَقَدَّمَ الفُصَحاءَ فاسْتَمَعُوا لَهُ ... وَرَأَيْتَهُ بَيْنَ الورى مُخْتالا
٣. لولا دَرَاهِمُهُ التي في كِيْسِهِ ... لَرَأَيْتَهُ شَرَّ البَرِيّةِ حَالا
٤. إنّ الغَنِيَّ إذا تكَلَّمَ كَاذِباً ... قَالُوا صَدَقْتَ ومَا نَطَقْتَ مُحَالا

(*) الحمدوي : هوباعث الطيلسان إسماعيل بن إبراهيم بن حمدويه، ويذكر ابن معتز أن لقبه الحمدوني . كان من أملح الناس شعرا وأقدرهم على الوصف ، وكان عامة شعره في طيلسان ابن حرب . نسب إلى جده ابن حمدويه .عرف بالبصرة ،واشتهر بكثرة ما قال في طيلسان ابن حرب ، وله هجاء في الجاحظ والمبرد.وكان شاعرا متهكما ساخرا .
انظر : ابن المعتز : طبقات الشعراء ، تحقيق عبدالستار أحمد فراج ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ٣٧٠ / وانظر : الكتبي ، محمد بن شاكر : فوات الوفيات ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ١٧٣/١ – ١٧٧ .

(١) الحصري: زهر الآداب، ٢ / ٢٢٣.

*أبو العيناء :محمد بن القاسم بن خلادالهاشمي ، أديب منادم ، تنقّل بين البصرة وبغداد .اتصل بالحسن بن سهل ،والمتوكل ،وكان أبو العيناء من موالي بني العباس ، توفي ٢٨٢هـ،وقيل ٢٨٣هـ،وعدّ من الهجّائين المقلّين .
– انظر ياقوت الحموي :معجم الأدباء ،٧٠/٧–٧٣ /ابن المعتز : طبقات الشعراء ،ص٤١٤ .

(٢) أبو العيناء ، محمد بن القاسم خلاد : الديوان، جمع وتحقيق أنطون القوال ، الطبعة الأولى ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٤ ، ص ٤٠–٤١.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٥. وإذا الفَقِيرُ أَصَابَ قَالُوا لَـمْ تُـصِبْ وكَذِبْـتَ يَـا هَـذا وقُلْتَ ضَـلالا

٦. إنّ الدّرَاهِـمَ فـــي المَواطِنِ كُلّهـا تكْسُـو الرِّجالَ مَهَابَـــةً وجَـلالا

٧. فهيَ اللّسانُ لِمَـــنْ أَرَادَ فَـصَاحَةً وَهِـيَ الـسِّلاحُ لِمَـنْ أرادَ قِتَـالا

يرفض أبو العيناء المكانة التي احتلها الغني في مجتمعه، مثلما يرفض الفقر الذي تعاني منه عامة الناس ، وهو وإن كان يُفَضّل نظرة الناس للفرد وأساس حكمهم عليه القائم علـى أساسٍ مادي، إلاّ إنَّه يرفض بطريق غير مباشر التفاوت الطبقي في مجتمعه، ويرفض – كذلك – الخلل الذي أصاب منظومة القيم، كأنْ يقاس الصدّق والكذب بمعيارٍ مادي.

وتحمل هذه الأبيات تعريضاً بالأغنياء الذين احتلوا المكانة السامية في المجتمع والمناصـب التي شغلوها دون استحقاقٍ أو كفاءة.

وحين ينتقد ابن الرومي المجتمع وصوره المتناقضة، يعزو ذلك كلّه إلى الدّهر، إذ يـراه سبباً في كل ما يحدث من هذه التناقضات، فيرفع أُناساً، ويحطّ آخرين، وهو دهـرٌ جـائرٌ لا يعرف العدل، وينتصر للمبطلين دون المحقين. ودهرٌ هكذا حاله ، لا يملك ابـن الرومـي إلاّ الدّعاء عليه بالهلاك، إذ يقول [1]:-

١. قَاتَـــلَ اللهُ دَهْرَنَـــا أَوْ رَمَـــاهُ باسْتِـواءٍ فَقَـــدْ غـدَا ذَا انْقِلابِ

٢. يَعْلِـفُ النـاطِقِينَ مـن جَـورِهِ الأَ جْلاَلَ والنّاهِقِينَ مَحْـضَ اللُّبَـابِ

٣. ثُـمّ تَلْقَـى الحَكِيْـمَ فيه يُمالِي كُـلَّ وَغْـدٍ علـى ذَوي الآدَابِ

٤. جَامِحـاً فـي هَـوَاهِ يَحْـكُمُ علـى الأَنْبِيَاءِ لِلأَحزابِ

إنه مجتمعٌ تتباين فيه الأحكام والعدالَة، وتتباين فيه حظوظ النّـاس، ويـشبه انقلابـه بانقلاب الأحزاب على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في يوم الخندق.

---

(1) ابن الرومي: الديوان، ١ / ٢٨٦.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

ولا يكتفي الشّاعر الرافض – غير المباشر – بالدعاء على الدهر بالهلاك، بل نجده يتوعده – أحياناً – بالبلى والفناء؛ لما يَرتكبه من ظلمٍ وجور بحق الناس، ليس هذا فحسب، بل ربما يعمد الشاعر إلى أُسلوب التشخيص، فيُقيم حواراً وعتاباً بينه وبين الدّهر، ويَتَنبأ له، إذ ستدور الدوائر عليه، مثلما تَوَعَّده البحتري لمّا نكب الواثق مجموعة من الكتّاب كان من بينهم من آل وهب الحسن وأخوه سليمان، فقال[1]:-

١. أَنَـــاةً أَيُّهَـــا الفَلَـكُ المَـــــدَارُ ... أَنَهـــبٌ مـــا تَطْـــرَّفُ أَمْ جِبَـــارُ
٢. سَتَفْنَـــىَ مِثْـــلَ مـــا تَفْنَـــى وتَبْلَـــى ... كَما تَبْلَـــــى فَيُـــدْرَكُ مِنْـــكَ ثَـــارُ
٣. تُنَـــابُ النَّائِبـــاتُ إذَا تَنَاهَـــتْ ... وَيَـــدْمُرُ فـــي تَـــصَرُّفِهِ الدَّمـــــارُ
٤. وَمَـــا أَهْـــلُ المَنَـــازِلِ غَيْـــرُ رَكْـــبٍ ... مَطَايـــاهُـــــم رَوَاحٌ وابْتِكَـــــارُ

يطلب الشاعر من الزّمن الرفق فيما يصيب النّاس من مَصَائب وويلات ،مذكّرا إيّاه بأنّه سيبلى مثلما يبلى ،ويفنى مثلما يفنى ، وكأنّ الشاعِرَ أرادَ تعزية المنكوبين والتقليل من شأنِ مُصَابهم، فكُلّ شيءٍ مصيره إلى الزوال.

والبحتري هنا يُدينُ المسؤولين في الدّولة بطريقٍ غير مباشر في البيت الأخير حين يقول:-

وَمَا أَهْلُ المَنَازِلِ غَيْرُ رَكْبٍ ... مَطَايَاهُم رَوَاحٌ وابْتِكَـــارُ

فالمناصب التي يشغلونها زائلة، وهي محطةٌ من محطات حياتهم مصيرها الزوال، وسيشغل مناصبهم أُناسٌ آخرون، موظّفاً أسلوبَ النفي (وما أهلُ المنازلِ)لتأكيد فكرته في نفي دوام المناصب لأهلها، وهذا تعريضٌ غير مباشر بساسة الدولة.

وقد يرفض الشاعرُ حرفته حين يضيق به الدهر، مثلما يرفضُ جحظة أدبَهُ وكتبه ومحفوظه، ويرى في ذلك كلّه سبَبَاً لشقائه وحرمانه، فيترك كلّ ذلك ليرُيحَ نفسه، فيقول[2]:-

---

(١) البحتري: الديوان، ج٢، ص ٩٥٩.

(٢) جحظة البرمكي: الديوان، ص ٣٧ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

١. حَسْبي ضَجِرْتُ مِـنَ الأدَبْ وَرَأَيْتُـــهُ سَبَـــبَ العَطَـــبْ
٢. وَهَجَـرْتُ إِغْـرَابَ الكَـلاَ مِ ومـــا حَفِظْـتُ مِـنَ الخُطَـبْ
٣. وَرَهَنْـــتُ دِيْـــوَانَ النَّقَـــا ئِـــضِ واسْـــتَرَحْتُ مِـــنَ التَّعَـــبْ

يمثّلُ هذا الرفض والإعراض عن حرفة الأدب نثراً وشعراً تعريضاً بالدولة من جهة وبالمجتمع من جهة أخرى ؛ لإغفالهما شؤون الأدباء، كما أنَّ جحظة يمثّل شريحة من شرائح المجتمع ، التي تعاني فيه من التباين الطبقي، وقتل القدرات الأدبية وإهمالها.

وَرُبّما اتَّخذَ بعضُ الشعراء الصّبر سلاحاً يواجهون به الواقع لا سيّما الشّعراء المتصوّفون، فالصّبرُ عندهم سبيلٌ للنجاةِ وتجاوز للمكارِه والبلوى، مثلما يقولُ أبو بكرٍ الشبلي(*):(١).

١. سَأَلْبَسُ للصَّـبْرِ ثَوْبَاً جَمِـيْلا وأُدْرِجُ لَيْلَـــي لَـــيْلاً طَوِيـــلا
٢. وأَصْبِرُ بالرَّغْمِ لا بالرِّضَـــا أُعَلِّـــلُ نَفْـــسِـــي قَلِـــيلاً قَلِـــيلا

إنّه الصبرُ القسري الذي فُرِض على هذه النفس، لتستطيع تجاوز محنتها والتعايش مع واقعها المرير، مع البقاءِ على خيوط الأمل متّصلة بين الواقع والمستقبل، لأنّ الحياة الفُضلى غاية كُلّ إنسانٍ في كلّ مكانٍ وزمان.

إنّ كُلَّ ما سبق هو من أوجه الرفض غير المباشر للعلاقات الاجتماعية الفاسدة، والتعريض بالسلطة وأجهزة الدّولة بطريقة غير مباشرة، وقد بَدَا الشاعر مهموماً لِسبب ما آل إليه مجتمعه، وراغباً في إقامة علاقاتٍ اجتماعية متوازنة بهدف إصلاح المجتمع وتنظيم

(*) أبو بكر الشبلي : ناسك ، كان في مبدأ أمره والياً في دنباوند من نواحي رستاق الري ،وولي الحجابة للموفق العباسي ، وكان أبوه حاجب الحجّاب ؛ ثم ترك الولاية وعكف على العبادة فاشتهر بالصلاح . له شعر جيد ، سلك به مسالك المتصوفة . أصله من خراسان ، ونسبه إلى قرية (شبلة) من قرى ما وراء النهر .اشتهر بكنيته ، واختلف في اسمه ونسبه ، فقيل " دلف بن جعفر " وقيل " جحدر بن دلف " .
انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ٢ / ٢٧٣- ٢٧٦ .

(١) أبو بكر الشبلي ، جعفر بن يونس المشهور بدلف بن جحدر : الديوان، تحقيق د. كامل مصطفى الشيبي ، الطبعة الأولى ، مطابع التضامن ، بغداد ، ١٩٦٧ ، ص ١١٩

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

العلاقات بين أفرادِهِ ونبذ الخلافات والخصومات لبناء مجتمعٍ سليم: ولأن تحقيق هذه الرّغبة لا يمكن إلاّ بمبادرَةِ السّلطة إلى الإصلاح ، فإنّ الشعراء لم يعلنوا رفضهم للواقع صريحاً ؛ حتى لا يثيروا نقمة السلطة عليهم، فجاء رفضهم عن طريق إلقاء المسؤولية على عاتق الدّهر والزمن.

ج - الشاعر الساخر:-

السخرية أسلوب متميز في ألوانه المتعددة، وفن قادر على التأثير والاستجابة، من خلال بث مشاعر غاضبة ورافضة.

تستهدف السخرية في جوهرها نقد الحياة، أو تغيير بعض الظواهر السلبية فيها، وهذا التغيير أو التطوير، يبدأ أولاً بتشخيص الحال، ومعالجة الخلل فيها، " والسخرية بدورها لا تكتفي بالنظر إلى الأشياء من السطح، ولا تقتصر في تشخيصها للخلل على ظواهر الأمور، وإنما قد تشك في الإنسان ذاته، وفي النظام العام الذي يسيّر العالم، فتصبح مفهوما عميقاً، ونظرة شاملة، وكأنما أريد لها أن تحل محل الفلسفة والأخلاق[1].

" وتعتمد السخرية أساليب بارعة، تدخل إلى الناس مداخل شتى، فتستنهض عقولهم أحياناً، وتدغدغ مشاعرهم أحياناً أُخرى، وقد تلهو بكينونتهم فتصبح سلاحاً متعدد الأطراف، وهذا يزيد من تأثيرها وقوة سطوتها، ويوسع دائرة نشاطها .ولا نبالغ إذا قلنا:- " إنّ الموقف الساخر هو الأليق بواقع الحياة وتناقضاتها"[2].

إن الناقد الساخر في واقع الأمر هو ناقدٌ رافض لكنه اتخذ للرفض أسلوباً آخر موظفا فلسفة الضحك والإضحاك ، ليجعل من موقفه رؤية جديدة للحياة والأشخاص، وهو ناقدٌ بارع

---

(1) أدونيس ، علي أحمد سعيد : مقدمه للشعر العربي، الطبعة الثالثة ، دار العودة ،بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٤٠.

(2) عادل العوا: مواكب التهكم، دار الفاضل ، دمشق ، ١٩٩٥ ص ١٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يقتحم نفسيات شخوصه بسهوله، ويغيّر في الأنماط والأشكال والوجوه مـــا يجعلهـــا مـــدعاة للضحك، لتثير بعد ذلك عدة تساؤلات، واستنتاجات، وصور حقيقية للواقع والحياة والناس .

ويعدُّ الشعر الساخر أبلغ أنواع الهجاء، مثلما يقول القاضي الجرجاني:- " إن أبلغ الهجو ما خرج مخرج الهزل والتهافت، وما اعترض بين التصريح والتعريض، وما قربت معانيـــه، وسهل حفظه، وأسرع علوقه بالقلب، ولصوقه بالنفس " [١].

ويرى بعض الدارسين المحدثين أن الهزليَّة الرفيعة تنشأ حين تكتشف المعرفـــة العميقـــة للحياة، أما على الجانب الفني فهي تمنح الشاعر وشعره نبرة من الجموح والحركية[٢].

ولعل هذا النمط الشعري – الساخر – أكثر وقعاً وإيلاماً إذ يعمد الشاعر فيه إلى ذكـــر عيوب المهجو ومساوئه، وبعد ذلك يلجأ إلى تشويه صورة مهجوه من خلال المفارقات الحادّة، والتشبيهات التي تخرج عن المألوف، موظفاً اللغة وطاقاتها ليقدم فكـــرة تمتـــزج بالـــصورة المضحكة والمتحركة أحياناً.

إن الشاعر الساخر يلجأ غالباً إلى التمثيل الحيواني، لينتزع عن مهجوه الإنـــسانية، بـــل يتعدى ذلك إلى أن يجعل الحيوانات في مرتبة أسمى من مرتبته، فيقول من ذلك أبو العيناء في ابن الخصيب الوزير[*][٣].

---

(١) ابن رشيق القيرواني ، أبو علي الحسن : العمدة في محاسن الشعر، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، الطبعة الثالثة ، دار السعادة ، مصر ، ١٩٦٣ ، ٢ / ١٧١.

(٢) سعد إسماعيل شلبي: الشعر العباسي التيار الشعبي، مكتبة غريب ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ٨٦.

(*) ابن الخصيب الوزير :أبو العباس أحمد بن عبيدالله بن أحمد ابن الخصيب ، كان صالح الأدب جيد العقل مليح الخط بليغا ، عينه المقتدر وزيرا له ، ثم ضعف أمره وانحرفت عنه السيدة أم المقتدر – وكان كاتبها قبل الوزارة – فعزل وقبضت أمواله سنة أربع عشرة وثلاثمائة .
انظر : ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ، ص٢٦٣-٢٦٤ .

(٣) أبو العيناء: الديوان، ص. ٤٣ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

١. قُلْ لِلْخَلِيفَةِ يَا بْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ أَشْكِلْ[١] وَزِيْرَكَ إِنَّهُ رَكَّالُ

٢. مَا دامَ مُطْلَقَةٌ علينا رِجْلُهُ أو دَامَ لِلنَّزَقِ الجَهُولِ مَقَالُ

٣.اِمْنَعْهُ مِنْ رَكْلِ الرِّجَالِ وَإِنْ تُرِدْ مَالاً فَعِنْدَ وَزِيْرِكَ الأَمْوَالُ

جعل أبو العيناء الوزير ابن الخصيب من الحيوانات الراكلة بأسلوب ساخر يثير الضحك ويبعث عليه إذ ما تزال رجله مطلقة، وقد زادت سخرية أبو العيناء من وزير الخليفة عندما استنجد به لشكل وزيره ولو اقتضى الأمر دفع الأموال.

وقد سخر ابن الرومي كثيراً من مفارقات القدر التي تحطّ من شأنه وتعلي من قَدَر غيره حين قال [٢]:-

١. أَتُرانِي دُونَ الأُلَى بَلَغُوا الآ مَالَ مِنْ شُرْطَةٍ وَمِنْ كُتّابِ؟

إنّ المتمّعن في شعر ابن الرومي، يجده يخرج(بشعره) من إطار الفرد إلى الجماعة، وكأنّ هذا الفرد يمثّل صورة المجتمع وأهله.

فشعره لا يقف عنّد حدّ المهجّو بل يتجاوز الظاهر ليصل إلى واقع عصرٍ برمّتِه، فالمرء لا يوضع في المكان اللائق، حيث عمّ الزّيف والنفاق. وهذا النمط في الأسلوب الشعري ينمّ عن فلسفةٍ تبدأ من الفرد لتنتقل إلى الجماعة ثم تنتهي إلى الوجود، حيث يتدخل قدر الإنسان ومصيره في حياة الإنسان [٣].

---

(١) اشكُل: اربط.

(٢) ابن الرومي:الديوان، ١ / ٢٨٢.

(٣) عبد الخالق عبدالله عوده عيسى : السخرية في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، ص ٢٢٣ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومن ذلك قوله في أبي الصقر- إسماعيل بن بلبل(*)- الذي استوزره الموفـّق وأعلى من شأنه، فاحتلّ منصباً لا يستحقه (١):-

١. عَجِبَ النّاسُ مِـنْ أَبِـي الـصّقْرِ إِذْ ... وَلّيَ بَعْـدَ الإجـازةِ الدّيوانـا
٢. ولَعَمْرِي، مـا ذَاكَ أَعْجَـبُ مِـنْ أنْ ... كَانَ عِلْجاً (٢) فَـصَارَ مِـنْ شَـيْبَانَا
٣. إنّ للحَـظّ كِيْمِيَـاءَ، إِذَا مَـا ... مَسَّ كَلْبَـاً أَصَـارَهُ إنْـسَانَـا

وتظهر سخرية ابن الرومي من خلال جعله أبا صقر كلباً، رفعه الحظ إلى مَصَافّ البشر، وكأنه هنا – ابن الرومي – لا يعني شخص المهجو وحَدَه، بل يقصد العصر الذي أصبح فيه الحظ هو العنصر الأساسي في تولية المناصب السياسية والإدارية في الدولة .

وما يؤكد ذلك قول ابن الرومي " عجب الناس " إذ إن الناس يشاركونه العجب مما يحصل كما يشاركونه الرأي في أنّ الزمان قد تحوّل وأنّ الأدوار الاجتماعية قد اضطربت.

إنّ المتتبع لصور ابن الرومي يجد أنّه يتخذ من السخرية أداة لرسم صوره ومسخ مهجويه ، ومن ثمّ يعمد إلى إثارة الضحك الذي " يحمل معاني الاحتقار والدون ،إذ ليس بالضرورة أن يكون الشخص المسخر منه ، أقل من مرتبة الشخص الساخر ، ومن ثـمّ فإنّ الغاية من هذا الضحك هو الطعن والانتقاص من عقله وتفكيره "(٣) فابن الرومي لا يثنيه علو مرتبة المهجو أو سلطته من السخرية إنما يجد فيها دوراً وظيفياً يتمثل بالإصلاح الاجتماعي

(*) إسماعيل بن بلبل : هو أبو الصقر إسماعيل بن بلبل الشيباني ، ولي الوزارة للمعتمد في ٢٦٥هـ،عزل في ٢٧٧هـ ، ثم حبس وعذب إلى أن مات في جمادى الأولى ٢٧٨هـ .
– انظر : المسعودي : مروج الذهب ٥ / ١٣٢- ١٣٥ / وانظر : ابن الأثير ، عزالدين أبي الحسن علي الشيباني : الكامل في التاريخ ، دار الكاتب العربي ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ٧/ ٣٢٨.

(١) ابن الرومي: الديوان، ٦ / ٢٩٧.

(٢) العلج: الرجل الضخم من كفار العجم، وتأتي بمعنى الحمار الوحشي السمين.

(٣) صالح خريسات : سيكولوجية الضحك ،دار آفاق ،عمان ، ١٩٩٨، ص ١٠٤.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

حينما يهزأُ من أشخاص حالفهم حسن الطالع ووصلوا إلى مراكز مرموقة ليسوا بأهل لها وفي المقابل حُرِمَ أصحاب الكفاءة منها .

وإن كان ابن الرومي قد سخر ممن توصل إلى مناصب سياسية، فقد سخر أيضاً ممن كان لا يملك قوت يومه، وبتوليه منصباً في الدولة، تغيرت أحواله فأصبح يملك القصور والطباخين والخدم، وذلك لما نهبه من أموال الدولة، فيقول ساخراً من الوالي أبي الصقر إسماعيل بن بلبل [1]:-

١. وشُـــيّدتِ القُـــصُـــورُ لَـــــهُ وكانَـــتْ قَبْـــــلُ أَكْـــوَاخا
٢. وَصَـــــارَ أَخَـــسُّ مـــــَنْ مَعَـــهُ لَـــهُ عُـــشْـــــرُونَ طَبَّاخَـــا
٣. وكَانَـــــــتْ أمّـــــــهُ كَمَّـــــاً خَـــــةً وَأَبُـــوهُ كَمّاخَـــــا[2]
٤. عَجِبْـــــتُ لِمَـــــنْ رَأَى هَـــــذَا بِعَيْنَيْـــــهِ فَمَـــــا سَـــــاخَا
٥. إلـــــى اللهِ الـــصُّـــــرَاخُ فَهَـــلْ يُحيـــرُ إلـــيّ إصْـــــرَاخَا
٦. عَـــدِمـــــــتُ المُلْـــــكَ إنّ لَـــــهُ لأَوْضَـــــارَاً وَأَوْسَـــــــاخَا

إن الشاعر هنا يسخر من التناقض الشديد الذي أصاب حياة أبي الصقر ، وهو في الوقت نفسه يريد أن يلفت النظر إلى ما وصل إليه ابن بلبل كان بطريقة غير مشروعة إذ من الواضح أنه نهب أموال الدولة واعتدى على حقوق الآخرين .

ويسخر ابن الرومي من جماعة من التُرك، فيقول[3]:-

١. أُمُورُكُـــمْ بَنِي خَاقَـــانَ[4] عِنْـــــدِي عُجَابٌ في عُجَابٍ في عُجَـــابِ
٢. قُـــرُونٌ فِـــي رُؤُوسٍ فِـــي وُجُـــوهٍ صِلَابٌ في صِلابٍ في صِـــلابِ

---

(١) ابن الرومي: الديوان،٢ / ٥٨١.
(٢) الكَماخة والكَماخ: الغبيّة والغبيُّ
(٣) ابن الرومي : الديوان ، ١ / ٣٥٣ .
(٤) بنو خاقان: أسرة تركية تسلم أربعة من أفرادها منصب الوزارة خلال سبعين عاما .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وإن كانت سخرية شاعر العصر العباسي الثاني قد اصطبغت بطابع سياسي، فإنها أيضاً اتجهت إلى جوانب فكرية وثقافية، فلم يسخر شاعر العصر من أصحاب السلطة فحسب بل سخر أيضاً من الأدباء والمثقفين، ومن ذلك قول سعيد بن حميد في إبراهيم بن العبّاس الصولي الكاتب[١]:-

١. رَأَيْتُ لَهَازِمَ الكُتّابِ خَفَّتْ ولِهَزْمتاك [٢] شَأْنَهُما الفَدَامَهْ [٣]
٢. وكُتّابُ المُلُوكِ لَهُمْ بَيَانٌ كَمِثْلِ الدُرِ قَدْ رَصَفوا [٤] نَظَامَه [٥]
٣. وأَنْتَ إذا نَطَقْتَ كَأَنّ عَيْراً [٦] يَلُوكُ [٧] – بما يَفُوهُ– به لِجَامَهْ

يملك الشاعر الساخر مخزوناً من الصور والتشبيهات، ويخلعها على مهجّويه، فيحوّلهم إلى رسومات متحركة تتسم بالتناقضات لتثير صورهم الضحك والسخرية، ففي صورة سعيد بن حميد التي رسمها لإبراهيم بن العباس – أحد كتّاب العصر – استخفاف شديد بقدراته العقلية واللغوية اللازمة لكل كاتب، لكن إبراهيم بن العباس كان إذا نطق كأنه عِيْرٌ،وهو بهذا التصوير يفتقد إلى العقل و الفكر، إذ لا يعي ما يقرأ ويكتب، ولا يُفهِمُ مَن حوله.

وقد سخر الشعراء أيضاً من بعضهم، مثلما سخر ابن الرومي من شعر البيهقي فيقول[٨]:-

١. يا أَبَا إسْحَاق قُلْ فِيّ كَشِعْرِي لا كَشِعْرِكْ
٢. حَسْرَتي لِلْوَرَق المَكْ ـتُوبِ فِيْهِ مِثْلُ هَذْرِكْ

---

(١) سعيد بن حميد: رسائل سعيد بن حميد وأشعاره ، ص ١٤٩.
(٢) اللهزمتان: مضغتان عليتان في أصل الحنكين في أسفل الشدقين.
(٣) الفدامة: العي عن الكلام.
(٤) رصفوا: ضمّوا بعضه إلى بعض.
(٥) النظام: النظم، نظم الدّر: ألّفه وجمعه في سلك فانتظم.
(٦) العير : الحمار الوحشي.
(٧) يلوك: يمضغ ويعلك.
(٨) ابن الرومي: الديوان، ٥ / ٦٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

٣. لا لِعِرْضِـــي مِـــنْ هِجَـــاءٍ صَـــاغَهُ فَاسِـــدُ فِكْـــرِكْ
٤. يـــا أبَـــا إِسْـــحَاق وَاقْلِـــبْ ثُمَّ صَحِّـــفْ ثُـــمَّ حَـــرِّكْ

تكمن سخرية ابن الرومي في التحسّر على الورق الذي يكتب عليه شعر البيهقي الذي يعّده هذراً، ثم في تلاعبه اللفظي لكلمة إسحاق، إذ جعل معناها في غاية القبح الأخلاقي وهو " السَّحاق ".

وله كذلك براعة خاصة من بين سائر الشعراء – كما للجاحظ من بين سائر الكتَّاب – في التفرس في عيوب الناس والقدرة على رسمها رسما كاريكاتوريا ماسخا في لوحات مضحكة .

ومن هنا فإن الشاعر الساخر ينوِّع في أساليب سخريته من حيث المعنى أو اللفظ، أو المفارقات التي يقيمها، إنّه شاعر ورسّام كاريكاتوري في آنٍ معاً.

وكان لشاعر العصر العباسي الثاني موقفٌ ساخرٌ من بعض الظواهر الاجتماعية التي كثرت في مجتمع تلك الحقبة ، ومنها ظاهرة البخل، وقد تميزت لغة الشاعر العباسي في تعبيره عن هذه الظاهرة بدقة التفاصيل وإضفاء عنصري الحركة والصوت ليجعل من صورهِ رسوماتٍ متحركة تعبّر عن مجتمعها وتثير الضحك الباكي. وهنا تتمثل القدرة الفنية للشاعر بأنه يعبر من خلال الضحك عن البكاء، فالشاعر حيْن يعمل على إضحاكنا يبكي حال مجتمعه، ويبكي قيماً مثلى تلاشت.

ومن الشّعراء الذين تناولوا ظاهرة البخل كثيراً وبأُسلوب ساخر، الشاعر دعبل الخزاعي، فيقول في أحد البخلاء [1]:-

١. إنَّ هذا الفتـــى يَـــصُونُ رَغيفـــاً مَـــا إليـــه لِنَـــاظِرٍ مِـــنْ سَـــبِيْلِ
٢. هُوَ فِـــي سُـــفْرَتَيْنِ مِـــنْ أَدَمِ الطَّـــا ئِـــفِ فِـــي سَـــلَّتَيْنِ فِـــي مِنْـــدِيلِ

(١) دعبل الخزاعي: الديوان، ص ١٣٦.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library- Yarmouk University

٣. خُتِمَتْ كُلُّ سَلَّةٍ بِحَدِيْدٍ وَسُيُورٍ قُدِدْنَ مِنْ جِلْدِ فِيْلِ

٤. فِي جِرَابٍ فِي جَوْفِ تَابُوتِ مُوسَى والمَفَاتِيْحُ عِنْدَ إِسْرَافِيْلِ

يسخر دعبل الخزاعي من هذا البخيل الذي قاده بخله ليحفظ رغيفه في مكانٍ لا يمكن أن تصل إليه الأعينُ بحالٍ من الأحوال، ولهذا اختار مكاناً لا نتوقعه، إذ اختار أن يضع رغيفه في وعائين من أدم الطائف، ثم في سلّتين، ثم في منديل، وختم كل سلة بحديد، وحتى يتأكد من إغلاقها ربطها بمشدٍّ مصنوع من جِلْدِ الفيل، ثم وضعها في جرابٍ يحميها، وأخيراً ألقاها في تابوت، واختار أن يكون هذا التابوت تابوت موسى – عليه السلام – المحفوظ بالعناية الإلهية، وقد كتب له سبل النجاة، و جُعلت مفاتيحه عند الملك إسرافيل – عليه السلام – وبهذا لا تصل إليه عيون البشر .

لقد حرص شاعر العصر العباسي الثاني على متابعة الظواهر الاجتماعية ونقدها ومن ثمَّ تقويمها بغية الإصلاح الاجتماعي موظفا الضحك _ بوصفه ظاهرة إنسانية اجتماعية _ لتلفت النظر إلى ذهول البشر عن منطق الأمور ، لذلك اتخذ المجتمع منها وسيلة لمعاقبة كل من يسهو عن التقاليد الاجتماعية بقصد أو من غير قصد ، وقد عدَّ برجسون الضحك عامل صراع يساعد على استبقاء الحياة الجمعية على ما هي عليه ، فهو يسمح لكل جماعة أن تحافظ على كيانها في حدود تقاليدها من خلال قيامه بوظيفة النقد والإصلاح بالنسبة إلى الجماعة. فيساهم في حماية المنطق الإنساني ويترجم انعدام توافقه مع الجماعة[1].

لا يغفل الشاعر الساخر القيم الاجتماعية في أي حالٍ من الأحوال، ففي قانون الضيافة العربي أن يُكرم الضيف، ويقدم سيد البيت أفضل ما عنده، ويبادر إلى إطعامه وإن لم يكن

---

(1) انظر : هنري برجسون :البحث في دلالة الضحك ، ترجمة سامي الدروبي و عبدالله عبدالدايم ، الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتّاب ، القاهرة ،١٩٩٧ ،ص٣٧-٣٨

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

لديه إلاّ القليل، أو كان فقيراً فيخفي فقره، ويكتم جوعه، إذ إنه من العار أن يبيت الضيف جائعاً، لكن مثل هذه القيم الأصيلة في العصر العباسي الثاني تهشَّمت، وتعّرت عن أصالتها،

وقد كان الجاحظ من أكثرالمهتمين بالبخلاء إذ صورهم وسخرمنهم، إذ ألّف كتابَهُ المشهور " البخلاء " يسخر فيه من بخلاء عصره، فيقول في بخل أهل مرو[1]:-

١. مَيَاسِيْرُ مَـرْوٍ مَنْ يَجُـودُ لضَيْفِـــهِ بِكَـرْشٍ فَقَدْ أَمْسَـى نَظِيْـراً لَحـاتمِ
٢. ومَـنْ رَشَّ بَـابَ الدَّارِ مِنْهُمْ بِغَرْفَةٍ فَقَدْ كَمُلَـتْ فيـهِ خِصَـالُ المَكَـارِمِ
٣. يُسَمّونَ بَطْنَ الشّاةِ طَاوُوسَ عُرسِهِمْ وعِنْدَ طَبِيْخِ اللَّحمِ ضَـرْبُ الجَمَـاجِمِ
٤. فَـلاَ قَدّسَ الرَّحْمَـــنُ أَرْضاً وبَلْدَةً طَوَاويسُهم فِيْهَـــا بُطُـونُ البَهَائِـمِ

تصوّر هذه الأبيات بأسلوب ساخر بخل أهل مرو وخراسان، وتشير إلى أن البخل أصبح ظاهرة عامة تتجاوز الأفراد لتشمل بلدةً أو مجتمعاً بأكمله. ويشير الجاحظ إلى أنّ هؤلاء البخلاء من أغنياء مرو مما يدل على أنّ بخلاءه لم يكونوا من طبقة واحدة ، أو نمط واحد[2].

يستحضر الجاحظ هنا رمزاً من رموز التراث العربي، حاتم الطائي رمز الكرم، الذي لم يستطع أحد أن يتجاوز كرمه، لكنّ أسلوب السخرية يجعل الأمر ممكنا، بل سهلاً، فأهل مرو إذا جادَ أحدهم على ضيفه بما يملأ بطن هذا الضيف يمسي نظيراً لحاتم الطائي، ومن رشّ منهم باب داره بغرفةٍ من الشراب فقد اكتملت لديه الخصال الكريمة.

والجاحظ هنا يوظف كلمة (كَرْش) للدلالة على القِلَّةِ وصغر الحجم، ثم يوظف كلمتي (حاتم – خصال المكارم) للدلالة على الكثرة وعِظَم الأثر الذي يتركه الفعل، وهنا تكمن المفارقة الساخرة من بخل أهل مرو.

---

(١) الجاحظ: البخلاء، تحقيق طه الحاجري ، الطبعة السادسة ، دار المعـارف ، القـاهرة ، ١٩٨١ ، ص ٢٨١-٢٨٢.

(٢) محمد بركات حمدي أبو علي : سخرية الجاحظ من بخلائه ، الطبعة الثانية ، مكتبة الأقصى ،عمـان ، ١٩٨٢، ص٦٠ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

قد يكون الباعث للشاعر الساخر فقره وحاجته، مثلما سخر الحمدوي من سعيد بن أحمد حينما أهداه شاةً هزيلة، فعلى الرّغم من أنّه كان ينتظر الصّدقات وأحوج ما يكون إلى علاقةٍ وديّة مع مجتمعه، إلاّ إنّ لسانه كان ناقداً لمن يقصّرُ في عطائه، أو يقدّم له عطّيةً ليست ذات قيمة، إذ يقول[1]:-

١. أسَعِيـــدٌ قَـدْ أَعْطيَتنـــي أُضْـحِيَةً ... مَكَثَـتْ زَمَانَـاً عِنْـدَكُم مـا تُطْعَـمُ
٢. نِضْوَاً تَعَاقَرتِ الكِـلابُ بِهـا وَقَـدْ ... شَـدّوا عَلَيْها كي تَمُـوتَ فَيُولَمـوا
٣. فَإذَا المَلا ضَحِكُوا بها قَالَـتْ لَهُـمْ ... لاَ تَهْزَأوا بي وارحَمُـوني تُرحَمُـوا
٤. مَرّتْ عَلى عَلَـفٍ فَقَامَتْ لَمْ تَـرِمْ ... عَنْـهُ وغَنَّـتْ والمـدَامِعُ تُـسْجَمُ

تلحظ الدارسة على نموذج الحمدوي حرصه على تقنية الحوار، لتخرج سخريته صورة بين مستويين خطابيين، لكنْ يبقى الحمدوي هو الذي يبتدع الأثر الأدبي في ذات القارئ أكثر من البناء الفنيّ أو الظاهرة الأسلوبية، لأن ذاته أكثر بُروزاً وفكرته أكثر حضوراً.

وللحمدوي أبيات يصف فيها بخل "أبي زرارة " وقد صور فيها بخله تصويرا ساخرا .

أمّا ابن الرومي فكان من أبرز شعراء السخرية في عصره؛ إذ لم يترك فئة اجتماعية إلاّ ووجّه لها سهام سخريته، ولم تبقَ قيمة اجتماعية إلاّ وأنفذ فيها رِهاف كلماته، مبدعاً في الرسم الكاريكاتوري الساخر لشخصياته، وقد كان له إسهامٌ كبيرٌ في ملاحقة البخلاء والتربّص بحركاتهم، والدخول إلى نفوسهم لاستكشاف مكنوناتها، فتزيدهم قبحاً، فمن ذلك سخريته من بخيل يُدعى (ابن جُرَاشة) إذ يقول[2]:-

١. إنّ كَفيْـــــكَ لقُفْـــــلٌ ... مُحْكَـمٌ يـا ابْـنَ جُرَاشَـهْ
٢. فَعَمُـــودُ القُفْـــلِ يُمْنَـــا ... كَ ويُسْـــــرَاكَ الفَراشهْ
٣. لَيْسَ يَنْجُو الفِلْسُ من كَفْـــ ... ـــــفَيْكَ إلاّ بالحُـــشَاشهْ
٤. هَـكَـذا كُـــلُّ لَـئِيـمٍ ... خَـــالَطَ اللُّؤْمَ مُشَاشَـهْ
٥. ضَـــيّق الـــصّدرِ بَخيْـــلٍ ... ضَـــيّقَ اللهُ مَعَاشَـــهْ

---

(١) الحصري: زهر الآداب وثمر الألباب، ١ / ٥٤٩.

(٢) ابن الرومي: الديوان، ٣ / ١٢٥١ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

فابن جراشة يجمع إلى بخله الماديّ بخلاً في التعامل مع الناس والاستماع إليهم ، فهو ضيّق الصّدر لا يحتمل غير نفسه يدعو عليه الشاعر بأن يضيّق الله عليه أرزاقه .

لقد وظّف ابن الرومي صورة القفل للدلالة على البخل وشدة الحرص لدى ابن جراشة ،ولم يكتف بذلك بل فصّل أجزاء القفل ليتناسب ذلك مع المعنى الذي يرمي إليه ، فتكون الصورة أكثر إثارة للضحك والسخرية ، فعمود القفل تشبه يده اليمنى ،وفراشته تشبه اليد اليسرى .

وقد سخر ابن الرومي من عدم الوفاء ، إذ يقول في ابن طاهر(*)(١):

وَجْهُكَ يَا عَمْرو فِيْهِ طُوْلُ ... وفي وُجُوهُ الكِلابِ طُوْلُ
مَقَابِحُ الكَلْبِ فيكَ طراً ... يزولُ عنْها ولا تزولُ
والكلْبُ وَافٍ وَفِيْكَ غَدْرٌ ... ففيكَ عَنْ قَدْرِهِ سُفُولُ
وَقَدْ يُحَامِي عَنِ المَوَاشِي ... وَمَا تُحَامِي وَلا تَصُولُ

جعل ابن الرومي الكلب يتفوق على ابن طاهر من خلال مفارقة أجراها بينهما ،فالأول وفيّ يحامي عن المواشي ، والثاني ينعدم لديه الوفاء ،وتتلاشى عنده النخوة والمحاماة .

يعتمد الشاعر الساخر على الصورة والمفارقات التي يجريها بين طرفين أو صورتين في نقده لمجتمعه وفئاته،متحكما بعباراته ودلالاتها ،وقد استطاع الشاعر في هذا الدور – الساخر – أن يكون رافضا وساخرا في آنٍ واحدٍ ، لكن رفضه في صورة السخرية وتعمّد الإضحاك .

(*)– ابن طاهر : محمد بن عبدالله بن طاهر الخزاعي ، أبو العباس ، ولي نيابة بغداد في أيام المتوكل العباسي وتوفي بها ، وله في فتنة المعتز بالله أخبار كثيرة ، أورد ابن الأثير بعضها .
انظر : الكتبي : فوات الوفيات،٣ / ٢٢٦.

(١) ابن الرومي : الديوان ، ٥ / ١٨٧ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الثاني

- نقد الفئات الاجتماعية

أولاً - : نقد الشعراء للفئة الحاكمة

أ - نقد الشعراء للخلفاء

ب - نقد الشعراء للوزراء والولاة

ج - نقد الشعراء للقضاة

ثانياً - : نقد الشعراء للفئة المثقَّفة :

أ - نقد الشعراء للكتَّاب

ب - نقد الشعراء للنُّحاة

ج - نقد الشعراء للمعلِّمين

د - نقد الشعراء للشعراء

ثالثاً : نقد الشعراء للعامة :

أ - نقد الشعراء للبخلاء

ب - نقد الشعراء للأغنياء

ج - نقد الشعراء للتُّجار

د - نقد الشعراء للطفيليين

هـ- نقد الشعراء للمتدينين

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

أولاً :- نقد الفئةالحاكمة

أ - نقد الشعراء للخلفاء:

" كان من أسباب ضعف الأمة الإسلامية أنَّ الخلافة أصبحت مجرد رمز لا أكثر "[١]

وقد أشار ابن خلدون في مقدمته إلى بعض أسباب ضعفها بقوله :" انتزاء ممالك العجم على سدتها ، وامتطائهم صهوة التغلب عليها، وتصريفهم أحكامها طوع أغراضهم في رجالها وجباياتها ، وأهل خططها ، وسائر نقضها إبرامها كما يقول شاعرهم :

خَلِيْفَةٌ فِي قَفَصٍ بَيْنَ وَصِيْفٍ وَبُغَا

يَقُولُ مَا قَالا لَهُ كَمَا تَقُولُ البَّبْغَا"[٢]

وقد برزعدد من شعراء العصر العباسي ، الذين تصدوا للخلفاء بالنقد ،ومعارضة سياستهم ، كابن الرومي إذ عارض سياستهم وسخر من طغيانهم وضلالهم واستهتارهم بأمور الرعية ، ففقد ثقته بهم لسقوطهم السياسي والخلقي _مثلما يصور عصرهم _ فكان قليل المدح لهم ، ناقماً على العصر وأبنائه ،ساخراً من ملامح الحياة في مجتمعه وبؤسها ،وقد قال فيهم:[٣]

مَلَكْتُمْ- يَا بَنِي العَبَّاسِ- عَنْ قَدَرٍ بِغَيْرِ حَقٍّ ولا فَضْلٍ عَلَى أَحَدِ

تُقَدَّمُونَ أَمَامَ النَّاسِ كُلِّهِمُ وَأَنْتُمْ – يَا بَنِي العَّباسِ – كَالنَّقَدِ[٤]

شَبَّهْتُكُمْ إِنْ بَغَى بَاغٍ لَكُم مَثَلاً صُغْرَى الأَصَابِعِ تُثْنَى أَوَّلَ العَدَدِ

---

(١) د.محمد رفعت زنجير : الاتجاه المعاكس في الأدب العربي ، دار قتيبة ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣م ، ص١٠ .

(٢) ابن خلدون ، عبدالرحمن بن خلدون المغربي :المقدمة ، دارالكتاب اللبناني ،مكتبة المدرسة ،بيروت ، ١٩٨٣ ، ج١، ص٣٩-٤٠ .

(٣) ابن الرومي : الديوان ، ٢ / ٨٠٣.

(٤) النَّقَد : صغار الغنم ، أو جنس منها صغير الأرجل قبيح الشكل .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library Yarmouk University

يشير ابن الرومي إلى اغتصاب بني العباس الخلافة بغير حق وقد ساعدهم القدر ، فأصبحوا علية القوم وسادتهم ، بعد أن كانوا من صغار الناس .

ويبدو في هذين البيتين عنصرا السخرية والتصوير ، "وقد اجتمع لابن الرومي منهما ما لم يجتمع لأحد في عصره ، اجتمعت له دقة الملاحظة والإحساس ، وعمق الشعور بالمتناقضات في نفسه وفي زمنه، وسعة النظر إلى الفوارق ، وسماحة العطف التي تقابل مرارة العصبية . فهو ساخر لا يبارى في سخره ، وعابث مطبوع على العبث بكل شيء حتى صحبه ونفسه "[1] فهاهو يسخر من بني العباس الذين تبدلت أحوالهم وعلا شأنهم مصورا إياهم بصغار الغنم التي اعتادت أن تمشي وراء راعيها ، وقد أصبحوا في هذا الزمن المتناقض يتقدمون الناس جميعا، لكنهم أسرع فرارا يوم الشدائد .

ويُحْكِم ابن الرومي أوجه سخريته موظفا طرافة التصوير وجدّته وخفّة الحركة ؛ ليجعل من نفسه مصورا بارعا يعرف كيفية التقاط صوره و يدرك ما يزيدها إثارة ، فبعد أن صور بني العباس بصغار الغنم ، أضاف إلى صفاتهم الجبن والخوف من خلال تعبيره عن حركة أصابع اليد أثناء عملية العدّ ، فهم صغرى الأصابع التي تنطوي قبل غيرها .

"وقد تكون الحركة أصعب ما في التصوير؛ لأنّ تمثيلها يتوقف على ملكة الناظر ، ولا يتوقف على ما يراه بعينه ويدركه بظاهر حسّه ، ولكن تمثّل هذه الحركة المستعصية كان أسهل شيء على ابن الرومي ، وأطوعه وأجراه على ما يريد من جدٍّ أو هزل ، وحزن أو سرور "[2]

---

(١) عباس محمود العقاد : ابن الرومي حياته من شعره ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص١٤١.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٠٩ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

وكأنّ ابن الرومي لم يسعفه الحظ للتقرب من الخلفاء ،ولم يجد عندهم مبتغاه إذْ إنّــه مدحهم فلم ينل عطاءهم ، فسدوا عليه أبواب التواصل معهم ، فراح يهجوهم ويكــشف عــن شخصياتهم الضعيفة المضطربة ، حيث يضعون أنفسهم في غير أماكنها ، إذ يقول : [1]

قَدْ بُلِيْنَا فــي دهْرِنــا بِمُلُــوكٍ أُدَبَاءَ _عَلِمْــتُهُمْ شُــعَرَاءِ
إنْ أَجَدْنَا في مَــدْحِهِمْ أَنَّبُونَــا وَهَجَوا شِعْرَنَا أشــدَّهِجَاءِ
قَدْ أَقَامُوا نُفُوسَهُمْ لِذوي المَــدْ حِ مَقَامَ الأَنْدَادِ والنُظَــرَاءِ

وقد سجّل ابن الرومي مواقف الشعب السياسية ومشاركتهم في تأييد السلطة أو معارضتها ، مثلما حدث في الفتنة التي أوقعها الأتراك بين المستعين بالله والمعتز سنة ٢٥١هــ، إذ وقف أهل بغداد إلى جانب المستعين ، في حين وقف أهل سامراء إلى جانب المعتز . [2]

وقد كان ابن الرومي يقف إلى جانب المستعين ضد المعتز، ولم يخشَ التصريح بذلك،إذْ هجا المعتز في قصيدة طويلة مصوِّرا فيها تلك الفتنة وكيفية التعامل معها ، وانقسام الناس وتفاعلهم مع الأحداث السياسية، إذ يقول : [3]

عَجِبْتُ لِلْمَــرْءِ لا يَحْمــي حَقِيْقَتَــهُ مَسْلُوبَةً كيْفَ يَحْمي بَعْـدَها سَــلَبا
دَعِ الخِلافَةَ يــا مُعْتَــزُّ مــن كَثَــبٍ فَلَيْسَ يكْسُوكَ مِنْهَا اللهُ مَــا سَــلَبَا
أَتَرْتَجي لِبْسَهَا مِــنْ بَعْـدِ خَلْعِكَهَــا هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ فَاتَ الضَّرْعُ مَا حَلَبا
تَاللهِ مَا كَانَ يَرْضَــاكَ المَلِيْــكُ لَهــا قَبْلَ احْتِقَابِكَ مَا أَصْبَحَتْ مُحْتَقَبَــا[4]
حَتَّــى أَذَلَّــكَ عَنْهَــا ثُــمَّ أَبْــدَلَهَا كُفُــوْاً رَضِــيًّا لِــذَاتِ اللهِ مُنْتَجِبَــا
فَكَيْفَ يَرْضَاكَ بَعْـدَ المُوبِقَــاتِ لَهَــا لا كَيْــفَ إلاَّ المَــيْنَ والكَــذِبَا[5]

---

(١) ابن الرومي : الديوان ، ١ / ٧٥ –٧٦

(٢) انظر المسعودي :مروج الذهب ، ٩ / ٣٣٧-٣٥٤.

(٣) ابن الرومي : الديوان ، ١ / ٣٣٧– ٣٣٨ .

(٤) احتقابك : ارتكابك .

(٥) المين : الكذب .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يصوِّر ابن الرومي في هذه الأبيات ضعف الخليفة المعتز الذي أصبح عاجزا عن حماية نفسه وملكه وعرشه ، ومن ثمّ يعلو صوت ابن الرومي وتزداد جرأته ليطلب من المعتز التنحي عن الحكم باستخدامه صيغة الأمر "دع" ، موظفاً أسلوب النفي " فليس يكسوك منها الله ملتبسا " ليدل على فقدان المعتز ثقة شعبه به ، وبالتالي بحث الشعب عن القيادة الأمثل .

وقد نجح ابن الرومي في التعبير عن ضعف المعتز إذ استحضر القوة الإلهية مقابل قوته البشرية، وقد سدَّ عليه أبواب الأمل باستعادة الخلافة وذلك من خلال أسلوب الاستفهام الإنكاري " أترتجي" ثمَّ اسم الفعل الماضي " هيهات " وتكراره مرتين للتأكيد على بعد المأمول واستحالته ، وأخيراً وظَّف الجملة الفعلية " فات الضرع ما حلبا " لقطع الأمل والرجاء في نفسه، إذ تحمل هذه الجملة معنى منطقياً أشبه بالحكمة ؛ فالحليب إذا خرج من الضرع فلن يعود إليه مطلقاً ، وهكذا الأمر بالنسبة للخليفة المسلوب.

ويؤكد الفعل " فات " بدلالته المعنوية واللغوية على انتهاء الحدث في الزمن الماضي فضلاً عن معنى " فات" الذي يوحي بالخسارة واللاعودة .

ثمَّ يوظِّف ابن الرومي أسلوب القسم في قوله :"تالله ما كان يرضاك المليك لها " ليؤكد عدم قدرة المعتز على إقامة دولة الخلافة وحماية عهده الذي سُلِبَ ، ثمّ يستدرك حسرته وندمه على ما حلَّ بالدولة من خراب وفساد بـــ "حتى" أملاً بالقائد الجديد ، ويريد المستعين ، فهو كفؤٌ ورضيٌّ .

تمثِّل هذه الأبيات الأحداث السياسية التي كانت تجري في بلاط الخلافة العباسية وما تعكسه من آثارٍ اجتماعيةٍ كعلاقة أفراد الأسرة الحاكمة وما يشيع بينهم من حقد وكراهية وحسد ، وتدبير المؤامرات بهدف الإطاحة بحكم الخليفة والفوز بكرسي الخلافة مهما اختلفت الأسباب

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

وتعددت الطرق ، مثلما اتّهم ابن الرومي المعتز في القصيدة نفسها بأنّه كان أداة قتل أبيه المتوكل ، إذ يقول :- [1]

لَقَدْ جَزَيْتُمْ أَبَـاكُمْ حِـيْنَ كَـرَّمَكُمْ ... بالعَهْدِ أَسْوَأَ مَا يَجْزِي البَنُونَ أَبَـا
أَضْحَى إمَامُ الهُدى أَوْلَى بِهِ صِـلَةً ... مِنْكُمْ وإنْ كُنْتُمُ أَوْلَى بِـهِ نَـسَبَا
هوَ الَّذي سَلَّ سَيْفَ الثَّأْرِ دُوْنَكُـمُ ... لا يَـأْتَلِي الَّـذي ضَـيَّعْتُمُ طَلَبَـا

يستنكر ابن الرومي أن يكون جزاء الأب من ابنه القتل ، وأن تلغى أقرب العلاقات الاجتماعية وأقواها في سبيل الوصول إلى السلطة ، لكن العرف السياسي جرى على غير عادته على يد المعتز ، إذ إنّ الابن غالبا ما يحمي كرسي الخلافة لأنه وريثه ويستمد من أبيه المعرفة والعلم بكيفية سياسية البلاد ، بينما المعتز خان أباه فكان مغتصباً لا حامياً .

تمثل هذه الأبيات _لابن الرومي_ الصراع على السلطة بين أفراد الأسرة الحاكمة أولاً ، ثمَّ اطلاع أفراد المجتمع ومعرفتهم بما كان يدور من أحداث في بلاط الدولة .

ويُعَدُّ ابن بسام من الشعراء الذين سخطوا على السلطة وتجرأوا على قمة هرمها _ الخليفة _ فابن بسام غير راضٍ عن صورة خلفاء عصره ، وهو لايقيم أملاً بواحدٍ منهم في بناء دولة قوية ، أو رعاية الشعب وحمل همومه ، إذ يقول فيهم : [2]

قَالُوا : خَلِيفَتُنَا قَدْ مَاتَ ، قُلْتُ لَهُمْ: ... في الكَلْبِ مِنْهُ وفي أَمْثَالِهِ خَلَفُ
حتَّى إِذَا قَامَ شَرٌّ مِنْهُ قُلْـتُ لَهُـمْ : ... الآنَ طَابَ عَلَيْهِ _الهَمُّ وَالأَسَـفُ

يمثّل هذان البيتان جزءاً من مشاركة الشعب في قراءة الأحداث السياسية والتنبؤ بها، وتكشف واو الجماعة وضمير المتكلم في الفعلين "قالوا ــ قُلْتُ" عن تلك المشاركة جماعـاتٍ وأفراداً ، وتحمل الجملة الاسمية " خليفتنا قد مات " معنى التفجع والفـرح فـي آنٍ واحـد،إذْ يوحي الفعل " مات " المسبوق بحرف التحقيق " قد " بالفناء المحتوم على الإنسان الذي لم يسلم

---

(١) ابن الرومي : الديوان ١ / ٣٣٨-٣٣٩

(٢) العبدلكاني : حماسة الظرفاء ،٢ / ١٦٧.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

منه الخليفة ، أمّا الفرح فيتمثل في موت الخليفة الذي يشير إلـــى زوال الكربـــة ، والـــشعور بالفرج والأمل القادم ، لكنّ الآمال تخيب ، والأبواب تنسدُّ ، والفرج يتبدد بالقائد الجديد ، فإذا كان الخليفة السابق شرّاً على الشعب ، فإنّ الخليفة الجديد يفوقه شرّاً ، ومن هنا استحقَّ الخليفة السابق الهمّ والأسف عليه .

ولا يفوّت ابن بسام فرصة النيل من الخليفة حتى بعد مماته ، إذ جعله شريكاً للكلب في صفات لم يفصح عنها ، بل ترك القارئ يكتشفها ، ولا نظن أن تكون تلك الصفات إيجابية إذ جعله بمرتبة الحيوان واختار الكلب دون سواه النجاسة ، لذا فهو مصدر شرٍّ على الشعب .

وقد أخذ ابن بسام على الخليفة العباسي المعتضد عدم وفائه له بوعده له بالعطاء مقابل مدحه، وقد كان حقا عليه الوفاء ، فلا يليق بالحكام والخلفاء أن يخلفوا الوعد ، كما أنّ للشعراء حقاً في بلاطهم حينما يلقون قصائد المدح فيهم ، إذ يقول : [1]

وَعَـــدْتَ بِوَعْـــدٍ فَأَخْلَفْتَـــهُ وَمَا كَانَ ضَرَّكَ أَلاَّ تَعِـــدْ

تُحِبُّ الثَّنَاءَ وَتَأْبَى العَطَـــاءَ وَمَا تَمَّ ذَلِكَ لِلْمُعْتَـــضِدْ

هكذا يرى الشعراء أنّ لهم حقّاً في أموال الخلفاء وأنّ الخلفاء قد غصبوهم هذا الحق،مما دفعهم إلى هجائهم .

وقد أدرك الخلفاء أنفسهم بأنَّهم أصبحوا مجرد دُمى لا أكثر يلعب بها الترك والجند والوزراء والمستشارون ، فقد قال الخليفة المعتمد : (٢)

أَلَيْسَ مِنَ العَجَائِبِ أنَّ مِثْلِي يَرَى مَا قَلَّ مُمْتَنِعَاً لَدَيْـــهِ

وَتُؤْخَذُ باسْمِهِ الدُّنْيَا غِرَّاً وَيُمْنَعُ بَعْضُ مَا يُجْبَى إِلَيْهِ

يتضح من أبيات المعتمد أنّ سلطة الخليفة أصبحت ضعيفة ، وهو مجرد رمز ، وقد صرّح في أبيات أخرى بضعفه وقلة حيلته وتجريده من صلاحيات الحكم والسياسة ، فيقول:(٣)

---

(١) الحصري ، أبو إسحاق إبراهيم بن علي : جمع الجواهر في الملح والنوادر ، تحقيق علي محمد البجاوي ، الطبعة الثانية ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٥٣ ، ص ٢٢٣ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٣٣٨-٣٣٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص٣٤١ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

أَصْبَحْتُ لا أَمْلِكُ دَفْعَاً لِمَا ... أُسَامُ مِنْ خَسْفٍ وَذِلَّةِ

تَمْضِي أُمُورُ النَّاسِ دُونِي وَلا ... يَشْعُرُنِي فِي ذِكْرِهَا قِلَّتِي

إِذَا اشْتَهَيْتُ الشَّيء وَلَّوا بِهِ ... عَنِّي وَقَالُوا هَهُنَا عِلَّتِي

وهو أول خليفة قُهِر وحُجِر عليه ، ووكِلَ به[1].

وقد عبّر الشعراء عن سياسة ولاة عصرهم الذين وصلوا إلى تلك المناصب بالرشاوة أو المداهنة أو غيرها من السبل ، ولذا فلم يرض عنهم أبناء المجتمع ، ففضحوا سوء أعمالهم وشدة طغيانهم ، فهاهو علي بن الجهم يهجو أحمد بن أبي داؤد[2] قائلاً : [3]

يَا " أَحْمَدُ " بنَ " أَبِي دُؤَادٍ" دَعْوَةً ... بَعَثْتُ إِلَيْكَ جَنَادِلاً وَحَدِيْدَاً

مَا هَذِهِ البِدَعُ الَّتِي سَمَّيْتَهَا ... بِالْجَهْلِ مِنْكَ العَدْلَ والتَّوحِيْدَا[4]

لقد كان المذهب الديني مدخلا للشعراء لينالوا من مهجويهم ، ويكشف هذان البيتان عن اختلاف الناس في مذاهبهم الدينية والفكرية من جانب ، وعن الصراع بين أفراد المجتمع وجماعاته ممن يختلفون في المذهب والمعتقد .

وقد كشف علي بن الجهم في موضع آخر عن شر أفعال ابن أبي دؤاد وظلمه ، إذ يقول فيه لما فُلج:[5]

لَمْ يَبْقَ مِنْكَ سِوَى خَيَالِكَ لامِعَاً ... فَوقَ الفِرَاشِ مُمَهَّدَاً بِوِسَادِ

فَرِحَتْ بِمَصْرَعِكَ البَرِيَّةُ كُلُّهَا ... مَنْ كَانَ مِنْهُمْ مُوقِنَاً بِمَعَادِ

كَمْ مَجْلِسٍ للَّهِ قَدْ عَطَّلْتَهُ ... كَي لا يُحَدَّثُ فِيهِ بِالإِسْنَادِ

---

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٣٣٩.

(٢) كان أحمد بن أبي دؤاد منحرفاً عن علي بن الجهم لاعتقاده مذهب الحشوية، فلما حُبس علي بن الجهم سأل ابن أبي دؤاد أن يشفع فيه فلم يفعل . فلما سخط المتوكل على ابن دؤاد وكفأه شمت به علي بن الجهم وقال فيه هذه الأبيات .انظر الأصفهاني : انظر الأصفهاني : الأغاني ، ١٠ / ٢١٨ .

(٣) علي بن الجهم : الديوان ، تحقيق خليل مردم بك ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ،(د. ت) ص١٢٥ _١٢٦ .

(٤) يسمي المعتزلة أنفسهم أهل التوحيد.

(٥) علي بن الجهم : الديوان ، ص ١٢٨ _١٢٩.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وَلَكَــمْ مُــصَابِيحٍ لَنَــا أَطْفَأْتَهَــا حَتَّى نَحِيْدَ عَنِ الطَّرِيقِ الهَادِي

وَلَكَمْ كَرِيْمَــةِ مَعْــشَرٍ أَرْمَلْتَهَــا وَمُحَدِّثٍ أَوْثَقْــتَ فِــي الأَقْيَــادِ

إِنَّ الأُسَارَى فِي السُّجُونِ تَفَرَّجُوا لَمَّــا أَتَتْــكَ مَوَاكِــبُ العُــوادِ

وَغَدَا لِمَصْرَعِكَ الطَّبِيبُ فَلَمْ يَجِــدْ لِدوَاءِ دَائِــكَ حِيْلَــةَ المُرْتَــادِ

فَذُقِ الهَــوَانَ مُعَجَّــلاً وَمُــؤَجَّلاً وَاللهُ رَبُّ العَــرْشِ بِالمِرْصَــادِ

لا زَالَ فَالِجُكَ الَّــذِي بِــكَ دَائِمَــاً وَفُجِعْتَ قَبْلَ المَــوْتِ بِــالأَوْلادِ

يعبرعلي بن الجهم في هذه الأبيات عن فرحة الشعب بما أصاب ابن دؤاد من مرض، ثم يسترجع سياسته وأحكامه الظالمة ، حيث كان يعطّل مجالس العلم لأهل السنة _ وفي ذلك إشارة لسياسة محاربة المذاهب الدينية والفكرية – ويقتل الأبرياء ويرمّل النساء ، ويسجن المحدثين _ إشارة إلى الاضطهاد الفكري من قبل بعض السلطات الحاكمة – ولذا كان الفالج جزاء له وسبيلا لخلاص الشعب من شرور أفعاله .

وفي ظل هذه السياسة الظالمة ضاعت حقوق الناس وخابت آمالهم ، وسلبت حرياتهم،ولذلك هجا البحتري العباس بن عمرو [1] قائلا: [2].

لَعَمْرُكَ مَا العَجَبُ العَاجِــبُ سِوَى غَنَوِيٍّ لَهُ حَاجِــبُ !

وَمَوْتِ الحُقُوق فَلا يَــائِسٌ يَرُدُّ غُلامِي ، ولا رَاغِــبُ

---

(1) هو العباس بن عمرو الغنوي ، من قبيلة غنى ، كان عاملا على فارس ثم عزله المعتضد ثــم أقطعــه اليمامة والبحرين وأمره بمحاربة القرامطة عندما عظم أمرهم ولكنه هزم وأسر ثم أطلق ، فعــاد إلــى بغداد.

(2) البحتري : الديوان ، ١ / ١٠٩.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

ب – نقد الشعراء للوزراء والولاة:–

إذا كان الوهن قد أصاب خلفاء الدولة العباسية فإنّ وزراءها أشدُّ وهناً بل هم سبب في ما آلت إليه حال خلفائها ، لمِا اتسموا به من عُجمة، أو فسادِ عقل، وقلّة تدبيرٍ وإدارة، أو مجون وخلاعة. ولم يغَب عن بال شعراء العصر العباسي الوقوف عند وزراء الدولة وولاتها، فأطلقوا سهام شعرهم لتنفذ في بيت الداء، الذي تسّرب منه إلى جسد الدولة ليصيبها بدائه ويزيدها ضعفاً وهواناً.

لقد تقلّد منصب الوزارة من هم ليسوا بأهل لها، ولا مؤهلين أو قادرين على إدارة البلاد، إذ شاع في عهد وزاراتهم الظُّلْم، والرشاوة، والترف، وبخس الناس حقوقهم، وهذا علي بن الجهم يصوّر إحدى وزارات الدولة العباسية في عصرها الثاني، فيقول ساخراً من محمد بن عبد الملك الزيات[1] :–

١. أحْسَنُ من تسعينَ بيتاً سُدىً جَمْعُكَ مَعْنَاهُنَّ في بَيْتِ

٢. ما أحْوجَ المُلْكَ إلى مَطْرَةٍ تَغْسِلُ عَنْهُ وَضَرَ الزَّيْتِ

إنَّ هذين البيتين يكشفان عدم قناعة الشاعر بوزارة عبدالملك الزيات ، ومن ثم عدم قناعة الشعب– أيضا – إذ إنّ الشاعر يجد نظم الشعر في ابن الزيات خسارة ؛ فما لديه من معان وقيم لا تحتاج إلى كثير قول ،إذ يمكن إجمال القول فيه من خلال بيت واحد ،وهذا البيت ليس مدحا إنما هجاء قاسٍ ،والشاعر يدرك أن غرض المديح الشعري يحتاج إلى أن يطيل الشاعر ليحظى برضا ممدوحه ، ويدرك – أيضا –أن بيتا في الهجاء يكون أشد وقعا من قصائد طوال، ولذا فإنّ محمد بن عبد الملك الزّيات– من منظور علي بن الجهم – لا يحتاج إلى بذل الشعر الوفير ،وإجهاد الذهن في البحث في طوابعه وشخصيته ،أو تتبع سيرته، إنّه يكفيه من الشعر بيتٌ واحدٌ، وهو:–

ما أحْوجَ المُلْكَ إلى مَطْرَةٍ تَغْسِلُ عَنْهُ وَضَرَ الزَّيْتِ

---

[1] علي بن الجهم: الديوان،ص ١٢٠.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

إنّ الدولة العباسية بما يمثلها من حكام، ووزراء، وقادة ، وأشراف، وأولي أمر، هم بحاجة إلى مطرٍ يغسل نفوسهم وأخطاءهم، ويجلي عثراتهم، وقد صوّب الشاعر دعوته هذه – التي تمتزج بالتعجب من حال البلاد، وحال مهجّوه محمد بن عبد الملك الزيّات – نحو إحدى وزرائها مستظرفاً تارة، وساخراً تارة أخرى؛ إذ إنّ محمد بن عبد الملك الزيّات ليس بالوزير المنشود، إنما هو مُلَبَّدٌ بالتراكمات والوضر، وربما يشير ابن الجهم إلى أن الوزير الذي تحتاج إليه الدولة له مواصفات تؤهله ليكون وزيراً ناجحاً مقبولاً لدى عامة الناس، كأن يكون في أسرته عراقة سياسية ورثها عن آبائه وأجداده، فضلاً عن مواصفات بديهية كالحكمة، والذكاء، والعلم، ... وإنْ كان ابن الجهم قد جمع في بيت وصف فيه وزارة الزيّات، فقد فَصّلَ في موضع آخر موقفه، وبيّن أسباب تعريضه به، فيقول، [1]:-

١. لَعَائِنُ اللهِ مُتابَعَاتٍ ... مُصَبَّحَاتٍ مُهَجَّرَاتِ
٢. على ابْنِ عَبْدِ المَلِكِ الزَّيّاتِ ... عَرّضَ شَمْلَ المُلْكِ للشَّتَاتِ
٣. وأنْفَذَ الأحْكَامَ جَائِرَاتٍ ... عَلَى كِتَابِ اللهِ زَارِيَاتِ
٤. وَعَنْ عُقُولِ النَّاسِ خَارِجَاتٍ ... يَرْمِي الدَّوَاوِينَ بِتَوْقِيْعَاتِ
٥. مُعَقَّدَاتٍ كَرُقَى الحَيّاتِ ... سُبْحَانَ مَنْ جَلَّ عَنِ الصِّفَاتِ
٦. بَعْدَ رُكُوبِ الطَّوْفِ [2]فِي الفُرَاتِ ... وبَعْدَ بَيْعِ الزَّيْتِ بالحبّاتِ

٧. صِرْتَ وزِيراً شامِخَ الثَّبَاتِ ... هَرونُ يَابْنَ سَيِّدِ السَّادَاتِ
٨. أَمَا تَرَى الأمُورَ مُهْمَلاتِ ... تَشْكُو إِلَيْكَ عَدَمَ الكُفَاةِ
٩. فَعَاجِلِ العِلْجَ [3] بِمُرْهَفَاتٍ ... مِن بَعْدِ أَلْفٍ صُخَّبٍ[4] الأَصْوَاتِ
١٠. بِمُثْمِرَاتٍ [5] غيرِ مُورِقَاتٍ ... تُرى بِمَتْنَيْهِ مُرَصَّفَاتِ

تَرَصُّف الأسنانِ في اللِّثات

---

(١) علي ابن الجهم: الديوان، ص ١١٨- ١١٩ .

(٢) الطّوف: قرب ينفخ فيها ويشدّ بعضها إلى بعض كهيئة السطح يركب عليها في الماء ويحمل عليها.

(٣) العِلج: كل جاف شديد من الرجال، والعلج: الحمار.

(٤) أي ألف سوط.

(٥) مثمرات: لها ثمرو الثمرة من السوط: عقدة في طرفة.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

يلعن ابن الجهم في كل حين الوزير محمد بن عبد الملك؛ إذ إنّه شتّت شمل المُلك، وأنفذ الأحكام الجائرة المتجاوزة لأحكام الله وكتابه، بما فيها من ظلمٍ، واضطرابٍ، وفسادٍ، تسبب الفوضى وتكثر الأمراض الاجتماعية، وابن الزّيات – إلى جانب ذلك – له توقيعات تستعصي على الفهم، معقدات كَرُقى الحيّات، ولعله دخل عالماً غير عالمه بعد أن كان يركب الطَّوف ويبيع الزّيت.

وهو اختيارٌ غير موّفق من قبل الخليفة هارون – الواثق بالله – إذ عيَّن عديمي الكَفاءة أمثال ابن الزَّيّاتِ، وهنا يرى علي بن الجهم أنّ على الخليفة أن يستدرك الأمَر قبل أن يستفحل، كما عليه متابعة الأمور وضرب الخارج عن سياسة الدولة، وخلع مَن هو غير أهل لقيادتها.

ويكشف لنا علي بن الجهم في هذه الأبيات عدة أمور: عدم رضا الرعية والرأي العام عن وزراء الدولة وظلمهم ، وخروجهم في أحكامهم عن كتاب الله، وعدم أهلّية هؤلاء الوزراء، وأعجميتهم، وأخيراً وصولهم إلى منصب الوزارة وتوليهم أمور الناس بعد أن كانوا أقلّهم شأناً.

لقد أصبح الوزراء عبئاً على كاهل الدولة؛ إذ لا يقومون بأعمالٍ تعودُ بالنفع على الأُمة، وقد غرقوا في تحقيق ملذاتهم ، وبناء قصورهم ،وإقامة مآدبهم ومجالس السمر والطرب ، وانشغلوا عن القيام بأمور الرعية ، ويشير أبو علي البصير *إلى ذلك ، فيقول[1]:-

١. يا وُزَرَاءَ السُّلْطَانْ أَنْتُمْ وآلُ خَاقَانْ

---

(١) المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد : الكامل في اللغة والأدب ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ١ / ٩

* أبو علي البصير : هو الفضل بن جعفر بن الفضل الأنباطري النخعي البصير الضرير ، كان كاتبا وشاعرا جيد الشعر ، نشأ في الكوفة ، ورحل في بغداد ،ثمَّ إلى سامراء ، ومدح عددا من الخلفاء ، توفي ٢٥٥هـ أو ٢٥٩ هـ .

– انظر ابن معتز : طبقات الشعراء ،ص٣٩٧ – ٣٩٩ / الزركلي : الأعلام ، ٥/ ١٤٧ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٢. كبَعْضِ مـــا رَوَيْنَـــا فـــي سَـــالِفَاتِ الأَزْمَـــانْ

٣. مَـــاءٌ وَلا كَـــصُدّى مَرْعىً ولا كالـــسّعْدانْ[١]

إنّ أبا علي البصير في هذه الأبيات يكشف عن جوانب متعددة يمكن أن نقرأها في ثناياها، فالوزراء لصيقون بالخليفة، وهم ينعمون برغيد عيشه، لكنهم على قربهم من الخليفة فهم أبعد ما يكونون عن الرّعية: إذ لا يعكسون علامات الخير والنعيم عليها ،فباتوا كمن يضرب بهم المثل في سالف الأزمان ممن يعيشون في حياة هانئة وخير وفير،وجاه ومنصب لكنهم لا يرتجى خيرهم ولا يؤمل بهم .

يمثل الشاعر صوت الشعب ، ويعبر عن طموحاتهم وآمالهم وتنبؤاتهم ورؤاهم المستقبلية ، فهذا ابن أبي فنن يتوقع زوال وزارة إسماعيل بن بلبل ؛ لأنّه لم يكن كفؤاً لها ، فيقول : [٢]

قِفْ يَا أَبَا الصَّقْرِ فَكَمْ طَـــائِرٍ خَرَّ صَرِيْعَاً بَعْدَ تَحْلِيْـــق

زُوِّجْتَ نُعْمَى لَمْ تَكُنْ كُفْأَهَـــا قَضَى لَهَا اللّهُ بِتَطْلِيْـــق

وَكُلُّ نُعْمَى غَيْـــرُ مَـــشْكُوْرَةٍ رَهْنُ زَوَالٍ بَعْدَ تَمْحِيْق

لا قُدِّسَتْ نُعْمَـــى تَـــسَرْبَلْتَهَا كَمْ حُجَّةٍ فِيْهَا لِزِنْـــدِيْق

أمّا ابن بَسّام فهو من أكثر الشعراء هجوما على الوزراء، وهو يقفُ منهم موقف النّد لنّدهِ، الذي لا يخشى من كشف عيوب هذا النِّدّ، أو النيل منه بأيّة وسيلة كانت، والشتم أقربُ ما يكون إلى لسانه، والرسم الكاريكاتوري – كذلك – وسيلة طيّعة وممتعة لديه، إذ نجده يقول[٣]:-

١. فَقَدْ تُكُمُ يا بنـــي الجَاحِـدَهْ فَفِي كُلّ يَومٍ لَنَـــا آبِـدَهْ

---

[١] تضرب هذه الأمثال (ماء ولا كصُدى) و (مرعى ولا كالسّعدان) للشيء فيه فضل وغيـره أفـضل منه.

[٢] الصفّدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك : الوافي بالوفيات ، الطبعة الثانية ، دار صـادر ، بيـروت ، ١٩٨٢ ، ٩ / ٩٨ .

[٣] الثعالبي ، أبو منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل : خاص الخاص ، قدم لـه حـسن الأمـين ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ١٣٧.

– الأصفهاني : محاضرات الأدباء ، ١ / ٢٣٢

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

٢. مَتَى كَانَ يُعْرفُ فيما مَضَى وَزِيْرَانِ فِي دَوْلَةٍ وَاحِدَهْ

لابن بسام انتقادات سياسية تفضي بطبيعة الحال إلى المساس بأمور الرعية وشؤونها، فهو يستنكر وجود وزيرين في الدولة، وبالتأكيد فإنّ تعدد الوزراء، وتغييرهم واستبدالهم بين عشية وضحاها سيفضي إلى الاضطراب وإثارة النزاعات والخلافات السياسية والانشغال من ثم عن أمور الرعية من جهة، والتسبب بسوء أحوال الرعية وتدهورها، وبما تعانيه من آفاتٍ اجتماعية مقابل ثراء وزرائها وبذخهم من جهة أخرى.

لم يكن الوزيرُ في ذلك العصرمن منظور ابن بسام وزيراً قادراً على تحّمل أعباء الوزارة أو النهوض بها والسعي لخير الناس، بل كان وزيراً ظالماً، إذ يقول في العباس بن الحسن الوزير[١]:-

١. تَحَمّـلَ أوزارَ البَرِيَّةِ كُلِّهـا وَزِيْرٌ بِظُلْمِ العَالَمِيْنَ يُجَاهِرُ
٢. أَلَمْ تَرَ أسبابَ الَّذينَ تَقَـدَّموا وَكَيْفَ أَتَتْهُمْ بالبَلاءِ الدَّوائِرُ

لقد عانت الرّعية ظلم الوزراء وقهرهم، ولعل الظلم يكون أكثر مرارةَ وقسوة حينما يكون جهرة، لكن ابن بسام هاهنا يفّوت على العباس سعادته بمنصبة فيذكره بمصائر من سبقوه الذين هلكوا ودارت عليهم الدوائر ووقعوا في شرِّ ظلمهم، لا سيمّا أن الدولة العباسية- في فترة من الفترات – اتسمت بكثرة وزرائها بحيث لا يبقى الوزير في وزارته سوى أيام ، أو أسابيع يعزل ويستبدل بغيره.

كان ابن بسام أحد أصوات الشعب القوية والجريئة فهو يقف موقف الرافض والساخط على كلّ من الوزير العباس بن الحسن وأمير بغداد ابن عمرويه الخراساني، فيقول فيهما[٢] :-

١. لَعَـــــنَ اللهُ الَّـــــذي قَلَّدَ عَبّـاسَ الـوزارهْ
٢. والَّذي ولَّى ابْـنَ عَمْـرَو يـــه بِبَغْـدَادَ الإمَـارَهْ
٣. فَوَزِيْرٌ شَـنِجٌ[٣]الوَجْـــ ـــهِ بَطِينٌ كـالغُرَارهْ[٤]

---

(١) المسعودي : مروج الذهب، ٥ / ٢١٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ٥ / ١٩٨

(٣) الشنج: المنقبض

(٤) الغرارة: وعاء من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح وهو أكبر من الجوالق.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٤. وقَفَــــاً فيـــه سَـــــناما ن ورَأسٌ كَالخِيَـــــــارَهْ

٥. وأميـــــــرٌ أعْجَمِـــــــيٌّ بتولّيـــــــــــهِ الإدَارَهْ

يتجاوز ابن بسّام حَدّ السّخط والرفض لأُنموذجي الوزير والأمير في عصره إلى توجيه اللعنة علانية لمن أولاهما هذه المناصب، فإن كان ابن بسام رافضاً للوزير والأمير فهو رافضٌ كذلك للسّلطة بقمة هرمها، وهو لا يكتفي باللعنة والرفض فحسب وإنما يتناولها بريشة شعره ليرسم بها لوحة كاريكاتورية ساخرة إذ جعلهما في غاية القبُح والتناقض، فالعباس منقبض الوجه وبطنه أشبه بالوعاء الكبير، وهذا يوحي بشراهته من ناحية وربما أكله أموال الدولة وحقوق الناس من ناحية أخرى، وتزداد اللوحة سخرية حينما جعل له قفاً فيه سنامان ورأسٌ كالخيارة، وكأنّ ابن بسام استعار الأشكال الهندسية ليقيم منها صورة للعباس حتى أثقل جسمه وعطلّه عن الحركة كما يبدو.

أمّا ابن عمرويه الخراساني فحاله ليست بأقل من حال العباس، فهو أعجمي في عِيٍ من أمر البلاد، فلذا فهو يشترك مع الحمار في عدم إدراك الأمور أو تقديرها، وهو بذلك يجعله يعيش عالماً غير عالمه، إذ هو حمار أوكلت إليه أمور البشر، فكيف سيستوي الأمر على يديه؟! ومما تذكره كتب المصادر العربية عن أُميّة بعض الوزراء " أنّه تولى شجاع بن القاسم وزارة المستعين وحرص كل الحرص على أن يتعلم الكتابة فما تهيّأ له ، وكان يُحضر معه كاتبا يلقّنه فيفهم عنه جُلَّ ما في الكتب فيعرضه على المستعين "[1]

لذا فابن بسّام في آخر بيت من المقطوعة يقرر الحال التي ستكون إذ إنَّ الإسلام رحل عَنّا، وسيتولىّ أمر البلاد غير أهلها ممن يجهلون دينها أو أسباب عزّها وسيادتها.

---

(١) الأصفهاني : محاضرات الأدباء ١ / ٢٣٣

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

وكان العباس يتأنق تأنقاً شديداً في ملابسه، فأتاه من هذا الجانب، عائباً عليه عيباً شـــديداً تزيُّنَه، حتى ليعده جارية حمقاء ما تزال تُعْنى بزينتها وهيئتها[1] وفيه يقول[2]:-

١. وزَارَةُ العَبّاسِ مِنْ نَحْسِها ... سَتَقْلَعُ الدَّوْلَةَ مِـنْ أُسِّـها
٢. شَبَّهْتُهُ لمّـا بَـدا مُقْـبِلاً ... في خِلَعٍ يُخْجَلُ مِنْ لِبْـسِهَا
٣. جَارِيةً رَعْنَاءَ قَدْ قَـدَّرتْ ... ثِيابَ مولاها عَلى نَفْـسِها

إنّ العباس – برأي ابن بسام – لا يقوى على إدارة الأمور، لأنها أعظم منه بكثير، وهو فقير ليس لديه من قدرات وخبرات في ميدان السياسة، لذا فابن بسام يتوقع أنّ وزارة العباس لن تجني إلاّ وبالاً على البلاد وستكون إنذاراً لخواتيمها، وهو يسوق صورة فنيّة ساخرة حينما صوّر العبّاس في ثيابٍ كجارية لبست ثياب مولاها.

يتضح لنا في البيت الأخير من المقطوعة الشعرية عدّة مَعانٍ، فالعباس يتقلّد منصباً أكبر حجماً ولا يقوى عليه، ثم هو منزوع السيادة والحرية وفوق هذا شبهه بجارية ، وبالتالي فهو تابع لا متبوع، وأخيراً أضفى عليه ملامح الأنوثة وجرّده من ملامح الذكوريّة، ولعل ذلك يوحي بعجزه وضعفه من جهة وبتابعيته من جهة أخرى.

ولم ينج الوزير الخاقاني من سياط شعر ابن بسام،وهو الوزير الذي ابتدع نظاماً جديداً في الرشوة، فأخذ يبيع الولايات، غير مراع للأمة عهداً ولا ذمّة[3]، ويقال إنَّه ولّى على الكوفة في يومٍ واحدٍ، تسعة عشر والياً، آخذاً من كلٍّ واحدٍ رشوة[4]. فيقول فيه[5]:-

١. وَزِيرٌ مَا يَفِيقُ مِنَ الرَّقَاعَـةْ[6] ... يُـولّي ثـم يَعْـزِلُ بَعـدَ سَـاعَهْ
٢. ويُدْنِي مَن تَعَجَّـلَ فِيْـهِ مَـالٌ ... ويُبْعِـدُ مَـنْ تَوسَّـلَ بالـشَّفاعَهْ

---

(١) د. شوقي ضيف: الشعر وطوابعه الشعبية على مرّ العصور، الطبعة الثانية، دار المعـارف، القـاهرة، ١٩٨٤، ص ١٠١.

(٢) الحصري : زهر الآداب، ص ٦٨٩ .

(٣) أمين أبو ليل: العصر العباسي الثاني، ص ٢٢.

(٤) الفخري: الآداب السلطانية ، ص ١٩٨.

(٥) الحموي : معجم الأدباء، ١٤ / ١٤٦– ١٤٧.

(٦) الرّقاعة: الحماقة وضعف العقل وتستعمل فيما ينشأ عنها من قلة الحياء والصّفاقة.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٣. إذا أهلُ الرِّشا [١] صَارُوا إلَيْــهِ فَأَحْظَى القَومِ أَوْفَــرُهُمْ بِــضَاعَهْ

٤. فَلا رَحِماً تُقَــرَّبُ منــه خَلْقــاً سِوى الوَرِقَ الصّحِاحِ، ولا شَفَاعَه

٥. وليسَ بِمُنْكَرٍ ذَا الفْعِــلُ مِنْــهُ لأَنّ الشَّيْخَ أُفْلِــتَ مِــنْ مَجاعَــه

يكشف ابن بسام في هذه المقطوعة الشعرية عن أمراضٍ اجتماعية سادت المجتمع العباسي وسببّت تآكله حتى أصبحَ هَشّاً هزيلاً، ويكشف من ناحية أُخرى الأسباب التي تقف وراء هذه الأمراض الاجتماعية، فالوزير يتصف بالحماقة وقلة العقل، وسوء الخُلق، وحب المال والجاه، وتقديم مصالحه الشخصية على مصالح العامة، حتى أن المناصب أصبحت تبُاع وتشترى، فمن دفع له مالاً أكثر نال منصباً وقُربى، وقد نجم عَن ذلك انتشار الرشوة في الدولة بما تخلّفه من ظُلمٍ وجور، وضياع حقوق العباد، وسيطرة أصحاب المال من الأغنياء، وإقصاء أصحاب القدرات والكفاءة عن إدارة شؤون الدولة. وابن بسام لا يستنكر هذا الفعل من الوزير، لأنه – كما يرى – مَن كان يتصف بالنّهم والشراهة لا يمكن أن يقنع أو يشعر بالشّبع فكلّما نَهَمَ أكثر شَعَرَ بالجوع أكثر لذا فمن يقدم له الطعام الأوفر فهو الأقرب منه.

لم يسلم وزيرٌ من لسان ابن بسام فقد تناول هذا الشاعر الوزير أبا القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب منتهزاً فرصة وفاة ابنه الحسن مترحماً عليه، مادحاً له، وهاجيا إيّاهُ ، غائظاً له ولأبيه، فيقول[٢]:-

١. أَبْلِــغْ وَزِيْــرَ الأَنَــامِ عَنّــي وَنَــــادِ يَــــا ذَا المُـــصِيْبَتَيْنِ

---

(١) الرِّشا: بضم الراء أو كسرها: جمع رشوة، وهي ما يعطى لقضاء مصلحة، أو ما يعطى لإحقاق باطــل أو إبطال حق.

(٢) الحموي : معجم الأدباء ١٤/ ١٤٥ .

* عبيدالله بن سليمان بن وهب الحارثي ، أبو القاسم ، وزير من أكــابر الكتّــاب ، اســتوزره المعتمــد العباسي ، وأقرَّه بعده المعتضد ، واستمرت وزارته عشر سنين إلى وفاته (٢٨٨هــ) وهو ابن وزيــر ، ووالد وزير ، (القاسم بن عبيدالله) .انظر ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ، ٢٤٩ .
انظر :الكتبي : فوات الوفيات ،٢ / ٢٧. والزركلي : الأعلام ، ٤ / ١٩٤ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

٢. يَمُوتُ حِلْـفُ النّـدَى وَيَبْقَـى حِلْفُ المَخَازِي أَبُـو الحُـسَيْنِ
٣. فأنْـتَ مِـنْ ذَا عميـدُ قَلْـبٍ وأنْـتَ مِـن ذا سَـخينُ عَـيْنِ
٤. حَيَـاةُ هَـذا كَمَـوتِ هَـذا فَـالْطِمْ عَلَـى الـرَّأْسِ باليَـدَيْنِ

لم يكتفِ ابن بسام بالكشف عن صورة وزراء عصره السلبية في سياسة الأمـور، بـل استطاع أن يدخل إلى عالمهم الأُسري، ففسادهم الخارجي في السياسة قابله فسادٌ في أسـرهم فإذا كان أبو القاسم عبيد الله الوزير* افتقد ابنه الحسن الصالح فقد بقى ابنه القاسم الذي عـدّه مصيبةً أضيفت إلى مصيبته بفقد الحسن، وكأن القاسم صورة لأبيه ولن يكون أحسن حالاً ممن سبقه، فحياته كموت أخيه.

وإن كان لم يكشف في هذه الأبيات عن موقفه صريحاً تجاه الوزير عبيدالله بن سليمان، إلاّ إنّه في غير موضع كشف عن صورته السلبية، فقال[1]:-

١. عُبَيْدُ اللهِ لَيْسَ لَـهُ مَعَـادُ ولا عَقْلٌ ولَيْسَ لَهُ سَـدادُ
٢. رُدِدْتَ إلى الحياة فَعُدْتَ لـ قولِ اللهِ "لورُدُّوا لعـادوا"

فعبيد الله الوزير يفتقد إلى رجاحة العقل ، وسداد الرأي ، والتي هي من الصفات التي تؤهل الوزير ليدير شؤون البلاد، لقد انشغل الوزراء بالجاه والمال والمنصب ، وأهملوا شؤون الناس ومصالحهم ، وطغت الأنانية عليهم ، وغلب حب الذات على المصلحة العامة فعاشوا في ثراءٍ وترف ، فيقول ابن بسام (١) في العباس بن الحسن الوزير* :-

١. بَنَيْتَ على دِجْلَةَ مَجْلِـساً تُباهي به فِعْلَ مَنْ قَد مَضى
٢. فلا تَفْرَحَنَّ!فكم مِثْـلَ ذا رَأَيْناهُ مَا تَمَّ حتى انقضى !

لعل ابن بسام يشير في هذين البيتين إلى كثرة إقامة الوزراء لمجالس الأنس واللهو ، وبناء القصور الفخمة ، وبالتالي نلمح الثراء الفاحش الذي ينعمون به في حين أنّ عامة الناس

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ، ٥ / ١٩٩ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يعيشون الكفاف، فالعباس بن الحسن الوزير يشيد مجلساً على نهر دجله يباهي به من سبقه من الوزراء، ولابُدّ أن مجلساً على ساحل نهر دجلة سيكون في غاية الهيبة والعظمة ، لكنّ ابن بسام يكدّر عليه فرحته بهذا المجلس ضارباً المثل بمن سبقه من البشر .

ونلاحظ من خلال النماذج الشعرية التي هجت الوزراء وسخرت منهم أنّ الشعراء غالبا ما يشيرون إلى قصر أعمار وزاراتهم ، وهذا بالتأكيد قراءة واعية لسياسة الدولة ومستقبلها .

وقد قال ابن بسام في إسماعيل بن بلبل الوزير[1]:-

١. لأبي الصَّقْرِ دَوْلَـــةٌ مِثْلُهُ في التّخلُّـــفِ
٢. مُزْنَةٌ حين أَطْمَعَتْ آذَنَتْ بالتَّكَـــشُّفِ

ينعى ابن بسام في هذين البيتين الشعريين الدولة ووزيرها ، فإسماعيل بن بلبل الوزير غاية في التخلف ودولته كذلك ، فسوء إدارته وقلة درايته جنت وبالاً على البلاد ، فكان غيمة يؤمّل خيرها لكنّها تَكَشَّفت ولم تمطر الخير المرتجى بل مَرّت كغيرها ، وابن بسام يؤكد أن الدولة بقادتها و وزرائها وسادتها ، تقوى بقوتهم، وتضعف بضعفهم ، وقد كان الضعف والتخلف نصيب دولة إسماعيل بن بلبل.

ويستحضر ابن بسام العادات و الطقوس الاجتماعية ليسخر من وزراء عصره الذين لم يلبثوا أن ينصبوا في الوزارات حتى يتم عزلهم أمثال من سبقوهم ، فابن بسام يذكرنا

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ٥ / ٢١٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ٥ / ١٩٩

* العباس بن الحسن بن أيوب الجرجرائي أو المادراني ، أبو أحمد ، من وزراء الدولة العباسية ، كان أديبـــا بليغا ، استوزره المكتفي ، بعد وفاة القاسم بن عبيدالله ، ولما مات المكتفي قام العباس بالبيعة للمقتدر .
انظر : الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ، ص٢٥٣ . / الزركلي : الأعلام ، ٣ / ٢٦٠ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

بتزيين الجمل ، وهي عادة اجتماعية كانت سائدة في المجتمعات العربية ، فيقول في وزير خلع عليه : [1]

خَلَعُوا عَلَيهِ وَزِيَّنُو ... هُ وَمَرَّ في عِزٍّ ورِفْعَهْ
فَكَذَاكَ يُفْعَلُ بالجِمَال ... لِنَحْرِهَا في كُلِّ جُمُعَهْ

كما يشير البيتان فقد كانت هناك مراسم تجري في بلاط الدولة عند تعيين وزير جديد ، حيث تظهر البهجة والزينة على المدينة ، ويشارك الشعب في هذه المراسم من خلال المشاهدة لموكب الوزير الجديد .

ويبدو أنّ عامة الناس كانت تفرح بعزل الوزراء الذين لم ينهضوا بالبلاد واستبدوا في حكمهم، وفي ذلك يقول ابن بسام في وزير: [2]

سَنَصْبِرُ إذْ وُلِّيْتَ فَكَمْ صَبَرْنَا ... لِمِثْلِكَ مِنْ أَمِيرٍ أَو وَزِيرِ
وَلَمَّا لَمْ نَنَلْ مِنْهُمْ سُـرورَاً ... رَأَيْنَا عَزْلَهُمْ كُلَّ السُّرورِ

ولمّا كان البذخ والترف حال الطبقة الحاكمة خلفاء ووزراء ظلت- هذه الطبقة- محط رجاء عامة الناس تقتات على فتاتها ، ولا تنال منها إلاّ الذّلَ والهوان ، وفي هذا يقول ابن بسام في الوزير صاعد بن مَخْلد*[3]:-

١. سَجَدْنَا لِلقُرودِ رَجاء دُنْيَا ... حَوَتْها دُونَنا أَيْدِي القُـرُودِ
٢. فَمَا نَالَتْ أَنَامِلُنَا بِـشَيءٍ ... عَمِلْنَاهُ سِوى ذُلّ الـسُّجودِ

---

(١) الثعالبي : خاص الخاص ، ص١٣٧ .

(٢) الثعالبي : خاص الخاص ، ص١٣٧ .

* صاعد بن مخلد : نصراني أسلم ، وكتب للموفق ووزر له وللخليفة المعتمد ، وتولى قيادة الجيش الذي أخمد ثورة الليث في فارس وبعد عودته في ٢٧٢ هـ سجن هو وأهله وأصدقاؤه ونهبت منازلهم ومات في ٢٧٦هـ.

انظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ٧ / ٣٢٧،٤١١، ٤١٩ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ٥ / ٢٠٠

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يباين هنا ابن بسام بين الطبقة الحاكمة وطبقة عامة الناس ويكشف عن العلاقة بينهما ، وهي أشبه بعلاقة العابد لمعبوده، لكن الباعث على العبادة هنا الطمع الدنيوي ،إلا إنّ عبادتهم وتقربهم من المعبود –هنا– لم تجزِ شيئا سوى الذلّ والخنوع ، ويصوّر ابن بسام تلك الطبقة الحاكمة قروداً سجد الناس لها ابتغاء عطائها ، لكنهم لم ينالوا منهم خيرا، وقد استخدم ابن بسام صورة القرود ليدل أنهم من جنس الرعية لكنهم مُسِخوا بِشَرِّ أعمالهم .

أما ابن الرومي فلم يخلُ شعره من نقد لوزراء عصره، فقد وجه سهام شعره إلى الوزير أبي يعلى[١]:-

١. أَضْحَى وَزِيْرَاً أَبُو يَعْلَى وَحُقَّ لَــهُ بَعْدَ المَشَارِطِ والمِقْرَاضِ[٢] والجَلَــمِ[٣]

٢. قَدْ قَالَ قَــومٌ وَغَــاظَتْهُمْ كِتَابَتُــهُ لَو شِئْتَ يَا رَبِّ مَــا عَلَّمْــتَ بــالقَلَمِ

إن الفوضى والفساد الإداري يعمان البلاد، وقد استلم زمام الأمور وحكم الدولة أرذل الناس وأقلهم ورعاً وديناً ، فهذا أبو يعلى أصبح وزيراً في بلاط الدولة العباسية ، وهل كان أبو يعلى من سادة القوم أو أشرفهم لتكون الوزارة حقاً له ؟ ! إنَّها حق في غير موضع حق ، في دولةٍ ساد فيها الاضطراب وعمّت الفوضى، حُقَّت له الوزارة بعد أن كان من أصحاب المشارط والمقراض والجلم، وكل هذه أدوات تدل على أن صاحبها كان حرفياً ، وشاء الزمان أن يُعزّ أبو يعلى فنال الوزارة . ثم يكشف ابن الرومي في البيت الثاني عن الرأي العام في مثل هذه الوزارات الضعيفة والدخيلة على عالم السياسة في الدولة العباسية، إنّهم على مضضٍ

---

(١) ابن الرومي : الديوان ،ج

(٢) المقراض : ما يقرض ويقص به الثوب

(٣) الجَلَم: ما يجزّ به وقد يستعمل بمعنى المشراط

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

من الأمر واستهجان لما هو كائن ، فاستحضر قول الله تعالى:-"" اقرأْ باسم ربك الذي خلق"[1]

لكن كتابة أبي يعلى تبعث على الامتعاض والغيظ ، ولعل السبب أنها كتابة مزرية ومتدنية المستوى والأداء اللغوي ، حتى دعوا رَبّهم لو أنّه ما علّمه شيئاً . وهنا إشارة إلى الضعف اللغوي لدى الوزراء والحكام لأعجميتهم .

اتسمت المقطوعات الشعرية السابقة بطابع السخرية والرسم الكاريكاتوري أحيانا ً لبعض الوزراء ، ويمكن أن تعَّد السخرية في الشعر العباسي الثاني نوعا ً من أنواع الثورة على نظام الحكم وسياسته وتصويراً لحاله ، وهي تمثل في عصرنا هذا وسائل الإعلام التي تلعب دورا ً هاما ً في تأييد السلطة أو معارضتها، وقد عزا الشاعر العباسي الساخر فساد الدولة وانحطاط أمور الأمة إلى فساد سلطاتها الحاكمة فتناولها معرضا ً بها ، ومقزما ً لفاعليتها ، ثم مشوّها لهيبتها ، وجدير بالذكر أنَّ بعض أصحاب هذا النوع من الشعر هم من أبناء الشعب وكادحيه ، يصورون مشاعر العامة نحو الطبقة الحاكمة ، بصدقٍ وواقعية إذ وجدوا لزاما عليهم حمل هموم الشعب وبثّها للمسؤولين وأصحاب القرار ليبادروا إلى تحسين أحوالهم .

ويمكن القول" بأنَّ شعرهم نوع من القصاص استخدمته الهيئة الاجتماعية ممثلة بشعرائها الساخرين لحماية تقاليدها وأساليب سلوكها ، وكان سلاحا بيد المجتمع لرد الناس إلى الجادة السوية ، ورادعا ً للشذوذ عن أنظمة المجتمع هادفا ً إلى تحقيق ضرب من التغيير الاجتماعي بتقوية الروح الجماعية والتعاطف الجمعي بين أفراد الجماعة الواحدة ، فالشاعر

---

(1) العلق: ١

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الساخر يقوم بدور الاستهانة وعدم الاكتراث أخلاقيا في قناع عالم ، فكأنه عالم تشريح لا يشرح الا ليثير فينا التقزز"[1]

وإلى جانب هذا الشعر الساخر نجد نمطاً آخر من الشعر يمكن أن نسميه – إذا جاز التعبير – **الهادف والموجه** ، الذي يسعى إلى إصلاح السُّلطة و وزرائها وتوجيههم للعمل من أجل خير الأمة، ومن ذلك، ما نجده لدى الشاعر جحظة البرمكي فيما وجهه إلى الوزير ابن مقلة ، فيقول [2]:-

١. سَلامٌ عليكَ مِنْ شُـيَيْخٍ مُقَـوَّسٍ ... لَـهُ جَسَدٌ بَـالٍ وعَظْـمٌ مُحَطَّـمُ
٢. أَلَمْ يَكُ في حقِّ النَّدام وحُرْمة الـ ... ـمدائحِ أن يُحْنَـى عَلَيْـهِ وَيُـرْحَمُ
٣. أبا حَسَـنٍ أنْصِـفْ فَأنْـتَ مُحَكَّمٌ ... ولا تَقْـرَبَـنَّ الظُّلْمَ ومَا لِظُلْمٍ مُظْلِمِ
٤. أيُصْبِحُ مُثْلِي في جِـوَارِكَ ضَـائِعَاً ... وحَوْضُكَ للطُـرَّاقِ بـالجُودِ مُفْعَـمُ
٥. واللهِ مَا قَصَّرْتُ في شُـكْرِ نِعْمَـةٍ ... مَنَنْتَ بها قِدْماً وذُو العـرشِ يَعْلَـمُ

يمكن أن نلاحظ أن النبرة في خطاب الشاعر للوزير اختلفت في هذا السياق عن سابقه من السياقات ، إنها نبرة الاستعطاف والتودّد والتقرب ، والدعوة إلى المعاودة عن الظلم برفق ولين ، واتخاذ الإنصاف سبيلاً إلى معاملة الناس .

قال عبدالرحمن بن عيسى في أخيه علي بن عيسى الجراح "وزير المقتدر"[3]:

عُمْرُ الوِزَارَةِ أَقْصَرُ الأَعْمَـارِ ... والظُّلْمُ دَاعِيَةٌ لِدَارِ بَـوَارِ
كَمْ بالعِرَاقِ مَنَازِلاً مَهْجُـورَةً ... كَانَتْ لِكُلِّ مُعَظَّـمٍ جَبَّـارِ
دَرَسَتْ وَغُيِّرَ رَسْمُهَا وَتَبَدَّلَتْ ... وكَذَا تَكُونُ مَنَازِلُ الفُجَّـارِ

---

(١) عبد الفتاح نافع : الشعر العباسي قضايا وظواهر ، الطبعة الأولى ، دار جرير ، عمان ، ٢٠٠٨ ، ص ٥٣ ، ٥٤.

(٢) جحظة البرمكي : الديوان ، ص ١٥٩ .

(٣) الزوزني : حماسة الظرفاء ، ص١٤١ .
– علي بن عيسى الجراح : من أهل دير قُنَّى ، ولد ٢٤٥هـ ، كتب في الدواوين ،وتقلد كثيرا منها رئاسة ، وتقلد الوزارة في عهد المقتدر .انظر مزيدا من أخباره في كتاب الوزراء للصابي ، ص ٣٠٣ وما بعدها .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

ج – نقد الشعراء للقُضاة :–

يمثل القضاء حلقة من حلقات الطبقة الحاكمة بوصفه السلطة التشريعية وهي قريبة من عامة الشعب تقضي في نزاعاتهم، وتحكم بين متخاصميهم ، وتحق الحق وتبطل الباطل ، وتحارب الجور والظلم ، وتجعل العدل منارة حكمها .

والتساؤل هنا في ظل تدهور حال البلاد، وضعف السلطان ووزيره، هل سلم القضاء من هذا الضعف أم جرى عليه ما جرى على سلطانه ووزيره ؟! تعرض بعض المقطوعات الشعرية في العصر العباسي الثاني صورة القاضي – آنذاك – وموقف العامة منه .

ومن الشعراء الذين تناولوا بشعرهم القضاة الشاعر عبد الصمد بن المعذل إذ وقف منهم موقف الشاعر والناقد الساخر ، وقد أحسّ ابن المعذل بأهمية القضاة وحساسية موقعهم في المجتمع ، وضرورة فاعليتهم ، لذا نجده يسلّط شعره عليهم ، ويكشف سوءاتهم ، ويهزأ بقدراتهم ، فيقول في القاضي أبي إسحاق إبراهيم بن محمد التميمي[1]:–

أَبُو إِسْحَاقَ صَاحِبُهُ مُعَنّى[2] يروحُ ويَغْتَدِي مِنْ غَيْرَ مَعْنى

٢. ويَنْظُرُ في القَضَاءِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وأَجْهَلُ مَا يَكُونُ إِذَا تَأَنَّى

هكذا يرى عبد الصمد بن المعذل أنّ القاضي التميمي لا يفقه في القضاء قدر أنملة ، يُتعب من يشتكي إليه ويطلب حكمه فلا يسفر عن كلمة تجدي أو معنى يُفهم ، إذ لا علم عنده، ويشير ابن المعذل في هذين البيتين إلى الصفات التي يجب أن يتصف بها القاضي وهي العلم والتأنّي في إصدار الحكم والقضاء ، لكنّ أبا إسحاق القاضي لا نصيب له من هذه ولا تلك ، فلا علم له ، وإذا تأنى فهو غاية في الجهل ، وماذا عساه يفيد التأنّي من لا علم له .

---

(١) عبد الصمد بن المعذل : شعر عبد الصمد بن المعذل ، ص ١٩٢.

– وانظر ابن أبي العون : التشبيهات ، عني بتصحيحه محمد عبدالمعيد ، طبع في جامعة كمبردج،١٩٥٠،ص ٢٨٣ .

(٢) معنى : متعب

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويقول في قاضي البصرة أحمد بن رياح [1]:-

١. أيَــا قَاضِــيَةَ البَــصْرَ ... ةِ قُومِي فَارْقُصِي (خَطْــرَهْ) [2]
٢. وَمُرّي(بِرَاوِسِــيْكِ)[3] ... فَمَــــاذَا البَــــرْدُ وَالفَتْــــرَهْ
٣. أَرَاكِ قَــــدْ تُثِيْــــرِيْنَ ... عَجَــاجَ القَــصْفِ، يَــا حَــرَّه
٤. وَتَحْــذِيْفُكِ[4]خَــدَّيْــكِ ... وتَجْعِيــــــــدُكِ للطُّــــــــرَّهْ

يجرِّد عبد الصمد بن المعذل – بسخرية لا متناهية – القاضي أحمد بن رياح من ذكوريته التي كانت شرطاً من شروط تولي القاضي ، حينما أضفى عليه صفات الأنوثة ، وجعله راقصة ماهرة تثير العجاج ، وتتزين بخدّيها وشعرها ، وفي هذه الصور يمسخ القاضي من صورته الحقيقية – والتي ينبغي أن يكون عليها- إلى أحقر الصور وأزراها ، ويغيــّب فيها السمات الجليلة من وقار و دين ، وعلم ، وورع ، وعدل ، فهذه الصورة نقد لاذع للقاضي في ذلك العصر – وإن كان في بعضها رؤية شخصية – أو عداوات – إلاّ أن جرأة مثل هذه على قاضٍ يمثل الطبقة الحاكمة تدل على معانٍ كثيرة ، كتدهور حال القضاء ، وتبدّل كثير من المفاهيم التقليدية له، وأخيراً إشهار صارخ لجور القضاة وتعديهم على حقوق الناس لبعدهم عن الإنصاف والدين ، لذا فإنّ الشاعر عبد الصمد المعذل ينتقي ألفاظه بعناية فائقة ليعبر عن حال قضاة عصره ، فنجده يؤنث لفظة ((القاضي)) ليسلك في ذلك مسلكين: أولهما : رسم صورة وضيعة للقاضي إذ جرّده من ذكوريته ، والآخر أنّ لفظة – ((قاضية)) تنحى منحى لغوياً آخر وهو المصيبة الشديدة ، فقاضٍ بهذه المقاييس والأوصاف مصيبة قاضيةٌ بحق.

---

(١) عبد الصمد بن المعذل : شعر عبد الصمد بن المعذل ، ص ١٠٤

(٢) الخطرة : المرة

(٣) رواسيك : الرواسي أي الجبال ويقصد بها الأرداف للسخرية .

(٤) التحذيف : التحسين وتسوية الشعر هنا .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

وقد ذمهم الشاعر ابن الرومي في قوله[1]:-

١. أَلاَ إنـّما الدّنْيَا كَجِيْفَةِ مَيْتَةٍ وطُلاّبُها مِثْلُ الكِلَابِ النَّوَاهِسِ[2]

٢. وأَعْظَمُهُم ذَمـّاً لَهَا وَأَشدّهُم بِهَا شَغَفَا قَوْمٌ طِوالُ القَلانِـسِ

يقول ابن الرومي في هذين البيتين إنّ الدنيا زائلة وما هي إلا متاع الغرور، ولأنّها فانية ،فهي كجيفة ميتة ، والذين يتعلقون بها ويلهثون وراءها هم كالكلاب التي تقبض على قطعة منها ، وعلى القضاة أن يكونوا أكثر الناس إدراكاً لهذه الحقيقة – حقيقية الدنيا الزائلة – لكنهم على غير ما ينبغي كما يرى ابن الرومي فهم في ظاهرهم أكثرالناس ذمّاً للدنيا وفي حقيقة الأمر هم أكثر الناس شغفا بها وتعلقا ، وقد صورّهم ابن الرومي صورة يتناقض فيها ظاهرهم مع باطنهم ، إذ يلبسون القلانس الطوال وتبدو عليهم ملامح الدين والورع لكنهم يخفون طمعاً في الدنيا وشغفاً بملذاتها .

يكاد يكون ابن بسام أكثر شعراء العصر العباسي الثاني حملة على القضاة وأشدّهم مقتاً لهم ، فيقول[3]:-

١. يا إِخْـوَتِي إنّ القِيَامَـةَ دَانِيَـهْ زَانٍ يُحَـدّ ولا تُحَـدّ الزَانِيَـةْ

٢. إنْ كَانَ هَذَا في الحُكُومَةِ جَـائِزَاً مُسْتَعْمَلاً زَنَتِ النِّـساءُ عَلانِيَهْ

يدين ابن البسام القضاة إدانة شديدة بأحكامهم الخارجة عن حدود الله وشرعه فَحَدّ الزّنا يقام على الزاني ولا يقام على الزانية ، ويحذر ابن بسام من أمرين :

أولهما : انتشار الفاحشة في المجتمع العباسي ، والآخر خطورة اضطراب القضاء وفساده وعدم نزاهته بما يؤديه من أمراض اجتماعية ، فإذا كانت الحكومة تجيز إقامة حدّ الزّنا على الرجال دون النساء فإنّ النساء سيجاهرن بالزّنا ، وحسبك ما يثير هذا من فساد ٍومجون ٍ

---

(١) ابن الرومي : الديوان ، ٣ / ١٢٢٨.

(٢) نهس الكلب فلانا : قبض على لحمه ومدّه بالفم

(٣) الأصفهاني : محاضرات الأدباء ٣ / ٢٣٧

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وعبث في أمن البلاد واستقرارها ، علماً بأنّ القضاء سلطة لها وزنها في كل العصور السالفة والحاضرة بعظم ما يوكل إليها من مهام من جهة ، وبحساسية عملها ، ومركزيته من جهة أخرى .

وفي هذا اللون الشعري – نقد القضاة– نلمس العشوائية _أحياناً_ التي كانت في الدولة العباسية في تنصيب القضاة ، وهذا مدعاة للفوضى والظلم وانتشار المفاسد ، فالقضاة – آنذاك– كان بعضهم يفتقد لأولى أولويات القضاء ، كالعلمِ بمقاليد القضاء واللغة ، والدين ، والورع، والحكمة، و النزاهة ، وسمو النفـّس وترفعها عن الدنايا أو ملذات الدنيا ومغرياتها . لقد وصل إلى منصب القضاء رجال سقام الفكر والجسم لا يحفلون بذكاء القاضي ولا هيبته أو حتى مظهره ووقاره فقد " ولّى يحيى بن أكثم رجلين أعورين قضاء الجانبين الغربي والشرقي، فقال دعبل الخزاعي: [1]

رَأَيْتُ مِنَ الكَبَـائرِ قَاضَـيِيْنِ ... هُمَا أُحْدوثَةٌ في الخَـافِقَيْنِ
هُمَا اقْتَسَمَا العَمَى نِصفَيْنِ قَدْراً ... كَمَا اقْتَسَمَا قَضَاءَ الجَـانِبَيْنِ
وَتَحسِبُ مِنْهُمَا مَنْ هَزَّ رَأْساً ... لِيَنْظُرَ في مَوَاريـثٍ وَدَيْـنِ
كَأَنَّكَ قَدْ جَعَلْـتَ عَلَيْـهِ دَنَّـاً ... فَتَحْتَ بُزَالَهُ مِنْ فَرْدِ عَـيْنِ

تشير هذه الأبيات إلى الاستهانة بقيمة القضاء وشخصية القاضي، إذ أصبح من أصحاب العاهات كالعور ، مع أنّ صحّة البصر من أهم صفات القاضي الجسمية ، فهو يحتاج إلى مراجعة الأوراق والمعاملات والتدقيق فيها لضمان حقوق الناس .

وقد كانت العامة أيضا تشارك في توجيه سهام النقد لقضاة العصر إذ" يذكر أعرابيٌّ حاكما فقال : يقضي بالعشوة[2]، ويطيل النشوة ، ويقبل الرشوة ." [3]

---

(1) ابن أبي عون : التشبيهات ، ص ٢٨٣.

(2) العشوة : الظلمة ، والعشوة هنا ركوب أمر القضاء على غير بيان .

(3) الأصفهاني : محاضرات الأدباء ،١ / ٢٤٨ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

وقد قال ابن طباطبا العلوي في أحمد بن عثمان البري : [1]

وَفِينَا عَـامِلا عَـدْلٍ وَجُـورٍ هُمَا حِلْفَا انْبِسَاطٍ وَانْقِبَـاضِ
فَوالي حَرْبَنَا في وَصْفِ قَاضٍ وَقَاضِينَا عُقَابٌ ذُو انْقِبَاضِ

واتفق أن وافى أصبهان عليلا _ابن طباطبا _ فاحتجب أياما وحضر فيل فكثرت النظَّارة عليه فمنع عنه الناس إلا ببذل ، فقال : [2]

شَيْئَانِ قَدْ حَارَ الوَرَى فِيْهِمَا[3] بِأَصْبَهَانَ الفِيْـلُ والقَاضِـي

لَيْسَ يُرَى هَـذا ولا ذَا فَكَـمْ مِنْ سَاخِطٍ مِنَّا ومِـنْ رَاضِ
الفِيْلُ يُرْشَـى عِنْـدَ سـنديهِ فأَيْنَ سـنديكَ يَـا قَاضِـي

يشير ابن طباطبا إلى الرشوة التي كان القضاة يقبلون بها من جهة ، وإلى سخط العامة لما كان يجري في سلك القضاء الذي يقع على عاتقه حفظ حقوق الناس .

(1) الأصفهاني : محاضرات الأدباء ، ١/ ٢٤٨
(2) المصدر نفسه ٢٤٨/١
(3) الورى : الناس ، الخلق .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ثانياً: نقد الطبقة المثقَّفة:-

أ – نقد الشعراء للكُتَّاب :-

وإلى جانب نقد الشعراء للفئة الحاكمة نجد لهم نقداً للفئة المثقفة ، وقد هيأت الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلى ظهور كتَّاب ونحاة ومعلمين وشعراء تواضعت قدراتهم وضعفت ، وقد استطاع شعراء العصر العباسي الثاني تصوير هذه الفئة وما أصابها ، ومن أولئك الشعراء ما كان من هجاء البحتري في بني ثوابه[١] :-

١. ألا لله دَرُّكِ يَـــــا "جَلَلْتـــــا[٢]" وَمَا أَحْرَزْتِ مِنْ حَظِّ الكِتَابَــهْ

٢. نَقَلْتِ مِنَ المَــشَارِطِ وَالمَوَاسِــي[٣] إلى الأَقْلامِ حَالُ " بَنِي ثَوَابــه "

إن استثنت الباحثة غرض البحتري في الهجاء الشخصي الموجــّه إلى بني ثوابه لدواعٍ لا تحيط بها ، فإنها تلمح في هذين البيتين حال الكتــّاب في عصره وتنقــّلهم اللامشروع – وفق نظره– من فئة إلى أخرى ، من فئة المهن والحرف كالحلاقة والحجامة إلى امتهان الكتابة وفنونها ، وكأنّ البحتري – وربما غيره– يرى بأنّ الكتابة لها أصولها و أهلها و ورثتها ، لا يمكن أن تنتزع من قومٍ وتودع في قوم آخرين، إنَّها فنّ وإبداع وملكة، لكن بني ثوابه أصبحوا في هذا الزمن من أصحاب العلم والكتابة بعد أن كانوا أصحاب مشارط ومواسٍ.

وكان الشاعر ابن بسام من الشعراء الذين وصفوا حال الكتَّاب بسخرية اعتدناها منه إذ يقول: [٤]:-

١. تَعِسَ الزّمــانُ لَقَــدْ أَتَــى بعُجَــابِ وَمَحَا رُسومَ الظّرْفِ و الآدَابِ

---

(١) البحتري : الديوان ، ص ١١١ .

(٢) جَلَلْتا : قرية من قرى النهروان وقيل هي من قرى جلولاء بطريق خراسان

(٣) قوله عن المشارط والمواسي إشارة إلى أن جدهم كان حلاقاً أو حجاماً .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣ / ٣٦٤ / المسعودي : مروج الذهب ، ٥ / ٢٠٢ مع اختــلاف فــي الرواية .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

٢. وأَتَى بِكتَّابٍ لَـو انْبَـسَطَتْ يَـدِي فِيْهِم رَدَدْتُهُمُ إلـى الكُتَـــّاب
٣. نَعَـــمٌ مـــن الأنَعـــامِ إلاّ أنَّهـــم مِنْ بَينِهم خُلِقُوا بـــلا أذْنَـــابِ
٤. صُـــوَرٌ تروقُـــكَ، ثُـــمّ إنْ فَتَّـــشْتَهَا كَانَتْ مَجَامِعُها كَلَمْعِ سَـــرابِ
٥. أوَ مَا تَرَى أسَدَ بن جَهْوَرَ قَدْ غـــدا مُتَـــشَبِّها بأجلَّـــةِ الكُتَّـــابِ

لقد تسرب الفساد إلى شتى مشارب الحياة العباسية فأصاب عصبها ، وعطل أعضاءها، وضرب سهمه فيها من كل جانب حتى غدت هشة هزيلة ، ومن المفجع أن يصيب الفساد أيدولوجيتها ويغير في أنظمتها العقائدية أو الفكرية أو الاجتماعية ، وها هو ابن بسام يكشف عن تغير غير محمود، بل إنه يجلب التعاسة لهذا الزمن بما أحدثه من عجائب وغرائب، يتمثل هذا التغير في فكر المجتمع العباسي وثقافته، بل الأخطر من هذا أن يكون التغيرقد أصاب الوسيط الثقافي – إن جاز التعبير– ناقل الفكر والمعرفة واللغة ، فمن الهزل بجد أن يكون الوسيط الثقافي خاوي الفكر ، قليل المعرفة ، أُمِّي الوسيلة والأداء ، فابن بسام يرى أن الزمان قدَّم لنا أعجب ما يمكن أن يقدمه حين أتانا بكُتّاب لا يمتلكون أساسيات اللغة ومهاراتها ، إنهم كالأنعام بلا أذناب ، وهنا يردهم إلى أصل حيواني ، ليجردهم من الملكات العقلية والفنية التي يمتلكها الكتاب ، إنهم صورٌ مجردةٌ، مظهرهم لا ينبئ بمخبرهم كحال أسد ابن جهور الذي تشبّه بأجلَّة الكتّاب.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ب – نقد الشعراء للنحاة:-

النحو علمٌ له أصوله وقواعده ، وعلى عالم النحو أن يكون مضطلعاً بـه ، فكيـف لنفطويه[1] أن يكون عالم نحو وفق رأي ابن دريد ونصف اسمه (نفط) يقول فيه [2]:

١. لَو أُنْزِلَ الوَحْيُ عَلَى نَفْطويْـهِ لَكَانَ ذَاكَ الوَحْيُ سَخْطاً عَلَيْـهِ
٢. وَشَاعِرٌ يُدْعَى بِنِصْفِ اسْـمِهِ مُستأهِلٌ للصَّفْعِ في أَخْدَعَيْـهِ
٣. أُفٌّ عَلَـى النَّحْـوِ وَأَرْبَابِـهِ قَدْ صَارَ مِنْ أَرْبَابِهِ نَفْطَوَيْـهِ
٤. أَحْرَقَـهُ اللهُ بِنِـصْفِ اسْـمِهِ وَصَيَّرَ البَاقِي صُـرَاخاً عَلَيْـهِ

لقد دخل علم النحو واقتحم أبوابه مَن هو ليس بأهل له ، لذا يحق لابن دريد أن يتضجر من النحو الذي صيّر نفطويه من علمائه فما كان منه إلا إنَّ سلّط الدعاء عليه بسخرية هي أقرب إلى السخرية اللفظية أو إن أمكن القول التلاعب اللفظي؛ إذ دعا أن يحرقه نصف اسمه الأول " نفط " وأن يتحول النصف الآخر (ويه) صراخاً وعويلاً عليه بعد الاحتراق . وكأنّ، ابن دريد يسعى إلى أن يختفي نفطويه من ميدان علم النحو ،وتجدر الإشارة إلى أنّ ابن دريد لم ينظم في الهجاء إلا في مواضع لم تتجاوز أصابع اليد الواحدة ،كما أنّه لم يوجّه نقداً أو هجاء لنفطويه في غير هذا الموضع من ديوانه الشعري، و يقف ساخراً من بعض النحويين الذين اختلفوا في مسلّمات علم النحو ، فيقول[3]:-

---

(١) نفطويه: هو ابراهيم بن محمد بن عرفة (ت ٣٢٣هـ) من ولد المهلب بن أبي صفرة ، نحوي ، سكن بغداد ، قال الثعالبي لقب بنفطويه تشبيها إيَّاه بالنفط لدمامته أُدْمَتِه ، كان عالمـا بالعربيـة ، واللغـة ، والحديث ،وله مصنفات كثيرة :كتاب التاريخ ، كتاب البارع ، كتاب غريب القرآن وغيرها .
انظر : معجم الأدباء للحموي ، ١ / ١٥٩- ١٧٠ .

(٢) ابن دريد : الديوان ، تحقيق عمر ابن سالم ، الدار التونسية ، تونس ، ١٩٧٣ ، ص ٧٦ .
-وانظر : د، السيد مصطفى السنوسي : ابن دريد حياته وتراثه اللغوي والادبي ، الطبقـة الثانيـة ، مكتبـة الاداب ، القاهرة، ١٩٩٢ ، ص ٢٢٦ .

(٣) ابن دريد : الديوان ، ص ٧٥ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

١. عِظْفِير[١] إنّا اخْتَلَفْنَــا في الفِعْلِ مِنْ فَــاعِلَيْنِ

٢. فَقَــالَ قَــومٌ يُثَنّــى لِجِمَعْتِــا الهَمْــزَتَيْن
٣. وَقَالَ قَومٌ يُعــدَّى بِمُلْتَقَــى الــسَّاكِنَيْنِ
٤. وأنْــتَ أعْلَــمُ مِنّــا بِــذَا وذَاكَ وذَيْــنِ
٥. لأنّــكَ الــدَّهْرَ فِعْــلٌ يَعْتَــلُّ مــن جِهَتِــيْنِ

لم يعد الخلاف في المسائل النحوية البارزة في العصر العباسي الثاني – وفق رأي الشاعر – بل أصبح في أبسطها ،وكأن عالم النحو أصبح هشّاً وقليل العلم والدراية فاستحضر ابن دريد في هذه الأبيات شخصية مجهولة يخاطبها ويكشف لها عن سوء الواقع والحال بين علماء النحو، وربما أراد بعظفير شخصا مبهماً سيء الخلق ، غير واضح المعالم في عصر كادت أن تغيب فيه ملامح القوة سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو فكرية .

ج – <u>نقد المُعَلِّمين :-</u>

لم تعثر الباحثة على نصوص شعرية كافية في باب نقد المعلّمين ، ولعل السبب يعود إلى أنّ هذه الفئة احتفظت بشكلها ومرتبتها الاجتماعية التي تضرب بجذورها إلى عصور سالفة ،مما عثرت عليه الباحثة في موضوع نقد المعلّمين أبيات للبحتري في هجاء معلمٍ أعرج،يقول فيه [٢]:-

١. أيُّها الاعْرَجُ المُحَجَّــبُ مَهْــلاً ليسَ هذا من فِعْلِ منَ يَتَمَرَّى[٣]

٢. مَا رَأَيْنَا مُعَلِّمــاً قَــطُّ مَحْجُــو باً ، ولَو أنّهُ عَلَى مُلْك " كِسْرَى"
٣. قَدْ رَأَيْنَا عَصَاكَ صَفْرَاءَ مَلْــسَا ءَ من النَّبْعِ بين صُغْرَى وكُبْرَى
٤. جَمَعَتْ خُلَّتَيْنِ : حُــسْناً ولِيْنــا لَكَ فِيْهَا – ظَنّي – مَآربُ أُخْرَى

---

(١) قال جامع الديوان: لم أجد هذه الكلمة في شيء من كتب اللغة ، فلعل الصواب " عظير " أو " شنطير " وكلاهما بمعنى السيء الخلق .

(٢) البحتري ، الديوان ، ص ٧٣

(٣) يتمري : يتزين

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يستعين هذا المعلم بعصا ، يتراوح طولها بين الصغرِ والكبر ، ليِّنة ، وحسنة المنظر، لكنها ليست من باب العرف أو التقليد بالنسبة إليه ، إنما غايته منها التوكؤ عليها بسبب عرجه ، وهنا يقتبس البحتري المعني القرآني في قصة سيدنا موسى وعصاه ،عند قال في كتاب الله تعالى :- "قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوكَأُ عَلَيها وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيْهَا مَآرِبُ أُخْرَى" (١)

وهنا يلمس البحتري جانباً هاماً يتمثل في صورة المعلم الذي ينظر الناس إليه بعين التقدير والإجلال ، ولذا فحسن هيئته مطلب اجتماعي ، وليس له أن يحجب نفسه عن الناس أو يتسرب إلى نفسه الكبر والخيلاء .

د - <u>نقد الشعراء للشعراء :-</u>

يقول خالد الكاتب عن الشاعر الحلبي(٢):-

١. وشَـــاعِرٍ مُقْـدِّمٍ لَـــهُ قَـــوْمٌ	لَيْسَ عليهم في نَصْرِهِ لَوْمُ
٢. قَدْ سَاعَدُوهُ في الجُوعِ كُلُّهـــمُ	فَقْرَى فَكُلٌّ غِذَاؤُهُ الصَّوْمُ
٣. يَأْتِيْـــكَ فِـــي جُبَّـــةٍ مُرَقَّعَـــةٍ	أَطْوَلُ أَعْمَارِ مِثْلَهَا يَـــومُ
٤. وَطَيْلَـــسَانٍ كَـــلالٍ يَلْبَـــسُهُ	عَلَى قَمِيْصٍ كأنَّـــهُ غَـــيمُ
٥. من حَلَبٍ في صَمِيْمِ سِـــفْلَتِهَا	غِنَاهُ فَقْرٌ وعِـــزُّهُ ضَـــيْمُ

يكشف خالد الكاتب في هذه الأبيات الشعرية عن جانب من علاقة الشاعر مع غيره من الشعراء ، التي غالبا ما تقوم العلاقة على التنافس لنيل الحظوة عند القوم أو المسؤولين ومن ثمَّ لربما علا شأن بعض الشعراء وانطفأ ذكر آخرين ،لكن الشاعر لا يمكن في أي حال من الأحوال سواء في يسر أو عسر أن ينسلخ عن قومه إذ إنهم هم الأجدر في إعطائه المكانة التي يسعى إليها ، لكن الشاعر الحلبي وإن كان ينال المكانة المرموقة عند قومه فهو – من

---

(١) طه : ١٨

(٢) الكاتب : الديوان، تحقيق ودراسة د. يونس احمد السامرائي ، الطبعة الأولى ، دار الرسالة، بغداد ، ص ٥٣٠ ، ٥٣١ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

وجهة نظر خالد الكاتب - لم يتميز عنهم بشيء إذ إنه يشترك معهم في الفقر والجوع و الضيم .

وقد قال فيه خالد الكاتب في موضع آخر[1]:-

١. تَــاهَ عَلَــى رَبِّــهِ فَــأفْقَرَهُ	حَتَّى رَآهُ الغِنَــى فَــأنْكَرَهُ
٢. فَصَارَ مِنْ طُولِ حِرفَةٍ عَلَمــاً	يَقْذِفُهُ الرِّزْقُ حيثُ أَبْصَرَهُ
٣. يا حَلَبِيّاً قَــضَى الإلــهُ لَــهُ	بالتِّيهِ والفَقْرِ حِيْنَ صَوَّرَهُ
٤. لوخَلَطوهُ بالمِــسكِ وسَّــخَهُ	أو طَرَحُوهُ في البَحْرِ كَدَّرَهُ

من الطريف أن يجمع الإنسان بين صفتي الفقر والتيّه أو الغــرور ، إذ إنّ الفقــر – عادة– يطفئ شعور التيّه ويقتل الغرور ، في حين أن الغنى قد يولّد التّيه والكِبْر ، ولعل خالد الكاتب أراد من الوسخ والكدر اللّذين نعت بهما الحلبي – القيمة المعنوية لا الحقيقيــة التــي جلبها التّيه والغرور ، فكان الفقر عقاباً إلهياً أنزله الله به .

وهنا يقف خالد الكاتب عند طبائع بعض الشعراء وخصالهم النفسية والمعنوية ، وكأنه يكشف عن عالمهم الداخلي فيشّرحه بخبرة وقدرة عاليتين ليقدم لنا نمطاً من نفسيات شــعراء العصر العباسي الثاني .

ويدرك ابن الرومي وظيفة الشعر في تفسير الظواهر الاجتماعية وتصويرها ، ويدرك كذلك أن الشعر طبع وسجيّة يفسده كدُّ القريحة ، فيقول ساخرا من أحد الشعراء :[2]

وَشَاعِرٍ أَوْقَدَ الطَّبْعُ الــذَّكَاءَ بِــهِ	فَكَادَ يَحْرِقُهُ مِنْ فَرْطِ إذكَــاءِ
أَقَــامَ يُجْهِــدُ أَيّامَــاً قَرِيْحَتَــهُ	وَفَسَّرَ المَاءَ بَعْدَ الجَهْدِ بالمَاءِ

وقال أيضاً يهجو البحتري :[3]

---

(١) خالد الكاتب الديوان، ص ٥٣١

(٢) ابن الرومي : الديوان ، ١ / ١٣٤ .

(٣) المصدر نفسه : ج١، ص٥٧٠.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

مَا تُجْزَعُ الشَّاةُ إذَا شُحِّطَتْ ... مِنْ أَلَـمِ الـذَّبْحِ ولا الـسَّلْخِ

وَلا مِنَ التَّفْصِيلِ مَنْكُوسَةً ... ولا مِنْ الـشَّيِّ ولا الطَّـبْخِ

لكنَّهَا تَجْـزَعُ مِـنْ خَلَّـةٍ ... تَقْدَحُ في الأحْشَاءِ بالمَرْخِ[1]

تُشْفِقُ أنْ يُكْتَبَ في جِلْدِهَا ... شِعْرُكَ يَاذا القَرْنِ والكَـشْخِ

ولا شك أن للمركز الاجتماعي والتقدير الذي يلقاه الفرد من الجماعة ، أهميته الخاصة في تحديد مدى التزام الفرد بمعايير الجماعة ، " فكلما زاد احترام الناس لهـذا الـشخص زاد التزامه وقوي أدبه وحسنت معاشرته ، ويحدث العكس إذا كان الفرد يتمتع برصيد ضئيل من الاحترام والتقدير ، إذ يحاول من خلال ضحكاته العالية وانتقاصه من الآخرين أن يصل إلـى المستوى نفسه من المكانة والاحترام الذي يتمتع به غيره " [2] .

ثالثاً – نقد الشعراء للعامة :

أ – <u>نقد الشعراء للبخلاء :-</u>

كان البخلُ ظاهرة شائعة في العصر العباسي الثاني ، ويبدو أنه كان نتيجـة ازدهـار الحياة الاقتصادية وتكالب الناس على الأموال ، وتهرب الطبقة القادرة من الدفع لمن هو فـي حاجة ، وقد ألحَّ بعض الشعراء على هذه الظاهرة ففضحوا البخل وسخروا من البخلاء ، وفي ذلك المنحى تقويم للنفوس وتهذيب لها ، ودعوة إلى انتشال الضعفاء مما هم فيـه مـن فقـرٍ وجوع .

ومن الشعراء الذين تناولوا هذه الظاهرة ، وسجلوا موقفهم من بخلاء عصرهم ، الـشاعر الحمدوي ،الذي يقول في ابن حرب [3]:-

---

(1) المرخ :نوع من أنواع الشجر ليس له ورق ولا شوك .

(2) صالح خريسات : سيكولوجية الضحك ، ص٨٣ .

(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٧ / ٩٦. الحصري : زهر الآداب ٥٥٣ مع اختلاف في الرواية

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

١. رَأَيْنَا طَيْلَسَانَكَ يـا ابْـنَ حَـرْبٍ ... يَزِيدُ المرْءَ في الضَّعةِ اتِّـضَاعَا
٢. إذا الرَّقَّاءُ أَصْـلَحَ مِنْـهُ بَعْـضاً ... تَدَاعَى بَعْضُهُ البَـاقِي انْـصداِعَا
٣. يُـسَلِّمُ صَـاحِبي فَيقُـدُّ شِـبْراً ... بِـهِ وأقُـدُّ فـي رَدِّي ذِرَاعَـا
٤. أُجِيْلُ الطَّرْفَ في طَرَّقَيْـهِ طُـولاً ... وَعَرْضَـاً مَـا أَرَى إلاّ رِقَاعَـا
٥. فَلَسْتُ أشُكُّ أنْ قَـد كَـانَ دَهْـراً ... لِنُـوحٍ فِـي سَـفِيْنَتِهِ شِـرَاعَا
٦. وقد غَنَيْـتُ إذا أبْـصَرْتُ مِنْـهُ ... بَقَايَـاهُ عَلَـى كَتِفِـي تَـدَاعَى :
٧. قِفِي قَبْـلَ التَّفُّـرق يَـا ضُـبَاعَا ... ولا يَكُ مَوْقِـفٌ مِنْـكَ الوَدَاعَـا

كان ابن حرب من بخلاء العصر العباسي وقد تناوله الحمدوي في مواضع كثيرة من مقطعاته الشّعرية ، صوّر فيها بخله وشدّة حرصه ، ومن المؤسف حقاً أن يكـون الإنـسان بخيلاً حتى على نفسه، وهذا أشدّ صور البخل ، وكذا حال ابن حرب الذي ارتـدى طيلـساناً واحداً طيلة حياته لا يغيّره ولا يحيدُ عنه ، امتلأ رقاعاً حتى عجز الرَّقاء عن إصلاحه ، وهنا يستحضر الحمدوي الموروث الديني فيشك حَدَّ اليقين أنّ طيلسان ابن حرب هو مـن شـراع سفينة نوح – عليه السلام– لطول دهره.

وفي هذه المقطوعة الشعرية عرض لصورة ملبس البخلاء المتآكل المهترئ ، كمـا نلمح فيها إحدى الحرف المهنية التي كانت موجودة في المجتمع العباسي ألا وهي الرَّقي لكـل ما أصابه الخراب من الألبسة ، ومهنة كهذه في مجتمع انتشر فيه الفقر والجوع والبخل لابُـدّ منها لتكون عوناً للفقراء وسبيلاً للبخلاء لاستنقاذ ملابسهم حتى آخر رمق .

وللحمدوي في أحد بخلاء عصره وهو أبو زرارة شعر قال فيه :– [1]

رَأَيْـتُ أبـا زُرَارَةَ قَـالَ يَوْمـاً ... لِحَاجِبِـهِ وَفِـي يَـدِهِ الحُـسَامُ
لَئِنْ وُضِعَ الخِـوانُ وَلاحَ شَـخْصٌ ... لأخْـتَطِفَنَّ رَأسَـكَ والـسَّلامُ
فَقَـالَ: سِـوى أبِيْـكَ فَـذَاكَ شَـيْخٌ ... بَغِـيْضٌ لَـيْسَ يَرْدَعُـهُ الكَـلامُ
أُجِيْلُ الطَّـرْفَ فـي طَرَّقَيْـه طُـولاً ... بِبَيْـتٍ لَـمْ يَـرِدْ فِيْـهِ القِيَـامُ
أَبِي وَابْنَـا أَبِـي وَالكَلْـبُ عِنْـدِي ... بِمَنْزِلَـةٍ إذا حَـضَرَ الطَّعَـامُ

---

[1] الأبشيهي : المستطرف من كل فن مستظرف ، ١ / ١٨٩

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وَقَالَ لَهُ: أَبِنْ لِـي يَـا ابْـنَ كَلْـبٍ عَلَى خَبَـرِي أُصَـادَرُ أَمْ أُضَـامُ
إِذَا حَـضَرَ الطَّعَـامُ فَـلا حُقُـوقٌ عَلَـيَّ لِوَالِـدَيَّ وَلا ذِمَـامُ
مَا فِـي الأَرْضِ أَقْـبَحُ مِـنْ خِـوَانٍ عَلَيْهِ الخُبْـزُ يَحْـضُرُهُ الزُّحَـامُ

وأبو زرارة هذا بخيلٌ من البخلاء الذين صورّهم الحمدوي ، وكشف عن طبائعهم وأنماط حياتهم ، وقد برع في التصوير الفنّي لبخلائِهِ، فابن زرارة يريد خطف رأس كل من يقترب من خِوانه حتى وإن كان أباه ، وهنا ينقطع حق الأب على ابنه ، وواجب الابن تجاه أبيه. وإنّ أقبح خِوانٍ عند أبي زرارة – حسب رأي الحمدوي – مائدة يزدحم حولها الناس ، ولعل أبـا زرارة يريد الانفراد على مائدته ، لفرط بخله. و كما هو واضح من الأبيات فإنّ أبـا زرارة كان من البخلاء المترفين ؛ ومع هذا ، فقد أوقف حاجباً له ليمنع الناس من مشاركته الطعام. أو حتى الاقتراب منه !

ومن الشعراء الذين برعوا في تصوير البخلاء ابن الرومي موظفاً السخرية من بخلائـه لوناً وشكلاً ومعنى وحركة ، كما قدم خلاصة رؤيته للبخيل ، إذ يقول[1] :

١. إِذَا غَمَرَ المَالُ البَخِيْـلَ وَجَدْتَـهُ يَزِيْدُ بِهِ يُبْساً وَإِنْ ظَـنّ يَرْطُـبُ
٢. وَلَيْسَ عَجِيْبَـاً ذَاكَ مِنْـهُ فَإِنَّـهُ إِذَا غَمَرَ المَاءُ الحِجَارَةَ تَـصْلُبُ

يقدم ابن الرومي في أبياته رؤيته للإنسان البخيل ، الذي يصيبُ مالاً وفيراً ولكـن هـذا المال لا يفيده ، فالنتيجة المنطقية تقتضي من البخيل أن يعدّل في سلوكه ، وينزع عن البخـل شيئاً فشيئاً ؛ لأن الحاجة زالت وحلت الوفرة والخير محلها ، لكن ابن الرومي يرى – لخبرته بالبخلاء – غير هذا ، فالمال يزيد البخيل بُخلاً ، فكلما ازداد ماله ازداد حرصه عليه ، مقدماً – ابن الرومي– مثالاً من البيئة دليلاً على رؤيته ، فالحجارة مادة صلبة وحينما يغمرها الماء تزداد صلابة ، وقد وفّق ابن الرومي في هذه المقارنة ؛ إذ إنّ الماء رمز العطـاء والخيـر، والحجارة رمز القسوة والصلابة .

---

[1] ابن الرومي : الديوان ،١ / ١٥١ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

" لقد اجتمع لابن الرومي من عناصر السخرية ما لم يجتمع لأحدٍ في عصره ، فقد توفرت لديه دقة الملاحظة والإحساس ، وعمق الشعور بالمتناقضات في نفسه وفي زمنه ، وسعة النظر إلى الفوارق فهو شاعر الطبيعة في الأدب العربي ، وشاعر الهجاء الساخر ، وشاعر الحياة اليومية في عصره " (١)

ومن تلك الصور الساخرة ما قاله في رجل بخيل يُدعى عيسى (٢):-

يُقَتِّرُ عِيْسَى عَلَى نَفْسِهِ ... وَلَيْسَ بِبَاقٍ وَلا خَالِدِ
فَلَوْ يَسْتَطِيْعُ لِتَقْتِيْرِهِ ... تَنَفَّسَ مِنْ مُنْخَرٍ وَاحِدِ
عَذَرْنَاهُ أَيَّامَ إِعْدَامِهِ ... فَمَا عُذْرُ ذِي بَخَلٍ وَاجِدِ؟
رَضِيْتُ- لِتَفْرِيقِ أَمْوَالِهِ- ... يَدَي وَارِثٍ لَيْسَ بِالجَامِدِ

إذا كان البخلُ والتقتيرُ على الآخرين أمراً معيباً ومستهجناً فإنّه أكثر استهجاناً أن يبخل الإنسان على نفسه، وهو يعلم أنه فانٍ ولن يخلد في الدنيا ، وهذا عيسى بلغ به الأمر أن يتنفّس من منخرٍ واحدٍ تقتيراً حتى في الهواء ، وهذه صورة كاريكاتورية ساخرة تتجاوز حَدّ المنطق والمعقول فكيف لامرئٍ أن يتنفس من منخرٍ واحدٍ ، وهنا ،وفي هذا السياق يقدم ابن الرومي العلل والشروحات لهذه الظاهرة – أعني ظاهرة البخل- فالعُدم وقلة ذات اليد ربما تمنعان المرء من البذل والعطاء والكرم وتجعله يقتّر على نفسه ليوفر قوت يومه أو ما يسد جوعه ، وعندها فتقتيره لا يلحق به الذمّ أو العار، بينما إذا توفر المال والخير لديه ، وزالت أسباب التقتير فلا عذر له .

إن لابن الرومي نصيباً كبيراً من تجارب الدنيا فكوّنت لديه فلسفة خاصة في الحياة ، جعلته يدركُ بعض أسرارها كدورتها التي تعقب جيلاً وتأتي بجيل ، فالبخيل لن يدوم له الأمر، إذ سيترك ما جنى وحصّل إلى غيره ممن يخلفه ويبذّر ما قتّر وادّخر .

---

(١) د. عبد الفتاح نافع : الشعر العباسي قضايا وظواهر ، ص ١١٨

(٢) ابن الرومي : الديوان ،٢ / ٦٤١ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library- Yarmouk University

ولذا غالبا ما ينشغل البخيل في التفكير بماله بعد موته ، فنجده كثيرا ما يوصي ورثته من أبنائه الحرص في الإنفاق وعدم الإسراف ، فقد أوصى أحد البخلاء ابنه قائلاً[1]:

إذَا مَا كُنْتَ في بَلَدٍ غَرِيْبَـاً ... وَخِفْتَ مِنْ أنْ تَبُوءَ بِغَيْرِ مَالِ
فَلا تبْسُطْ يَدَيْكَ وَكُنْ قلـيْلاً ... يَفُوتُكَ كُلُّ يَوْمٍ في اعْتِـدَالِ
وَذُبَّ عَنِ الدَّرَاهِمِ كُلَّ حِيْنٍ ... وَكَثِّرْها وَقَلِّلْ فـي العِيَـالِ
وَقُلْ في كُلِّ شَيءٍ تَشْتَهِيْهِ ... مِنَ الأشْيَاءِ هَذَا الشَّيءُ غَالِ

تندرج هذه الأبيات الشعرية في باب الوصايا ، وهي أشبه بالخطط الاقتصادية التـي يرسمها البخيل لأبنائه في المستقبل . وإذا بلغ الأمر بعيسى البخيل أن يقتّر في الهواء الـذي يتنفّسه ، فمن المؤكد أنّ ألواناً وأشكالاً من البخل ستكون في مأكله وملبسه ، وهذا ما يعرضه لنا ابن الرومي ، في وقفة أخرى له مع البخيل نفسه، فيقول[2]:-

١. خِوَانُ عِيْسَى مِنْ نِصْفِ تُرْمُسَةٍ ... وَصَفْحَتَاهُ مِنْ فِلْقَتَـيِ عَدَسَـهْ
٢. ذَلَـكَ فَـضْلُ الإلَـهِ يَمْنَحُـهَ ... مَنْ شَاءَ لا ذَاكَ حَظُّ مَنْ نَفَسَهْ
٣. مِـنْ ذَرَّةٍ ذَرَّةٍ جَرَادِقَـهُ[3] ... تَخْفَى على العَينِ فهي مُلْتَمَسَهْ
٤. لو نُخِلَتْ بـالحَرِيْرِ لانْـسَرَبَتْ ... مَنْ خَلَلِ النَّسْجِ غير مُحْتَبِسهْ

يتعرض ابن الرومي في هذه المقطوعة الشعرية لشكل مائدة البخلاء وأوانيهم وأحجامها فهي خوان (مائدة) صغيرة جداً ، ولصغر حجمها يصورها بنصف حبة تـرمس ، وبالمثـل أوانيهم وأطباقهم لا تتعدد بل لا تتجاوز الطبقتين الأشبه بفلقتي حبة العدس ، وكـأنّ الـبخلاء على علاقة متينة بالحجم الصغير ، والكَمِّ القليل ، فمائدة عيسى أنموذج في الصِّغر ، وخبـزه كذلك يكاد لصغر حجمه أن يختفي عن الأنظار فلا تدركه.

---

(١) القرطبي الإمام أبو علي عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن البر النمري : بهجة المجـالس وأنـس المجالس وشحذ الذهن والهاجس ، تحقيق محمد مرسي الخوالي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٣ ، ١ /٢١٩ .

(٢) ابن الرومي : الديوان ، ٣ / ١١٧٥- ١١٧٦ .

(٣) الجرادق : مفردها الجردق أي الغليظ من الخبز .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

لقد امتلك ابن الرومي مهارة فنية في التلاعب بالشكل والحجم ليوظفها لخدمة سخريته ، فنجده يصغِّر الكبير، ويكبّر الصغير، ويقلب حقائق الأشياء بل يأتي بها على غير طبيعتها لتزداد سخريته ويعلو صوته في وجه هؤلاء البخلاء بأن يكونوا عوناً للفقراء والمحرومين لا عالة عليهم أيضاً .

وقد عرف ابن الرومي في استيفائه المعنى وتقصيه الأغراض " فكان شاعرا فحلا بعيد الغوص عن المعاني ، فإذا ما تناول معنى استقصاه حتى لا يترك منه شيئا " [١] وقد أشار النقاد إلى " أنه يأخذ المعنى الواحد ويولده ولا يزال يقلبه ظهراً لبطن ، ويصرفه في كل وجه، وإلى كل ناحية حتى يميته ويعلم أنه لا مطمع فيه لأحد "[٢]

وإذا كان ابن رومي قد صور أكل البخلاء وعاداتهم على موائدهم ، فقد صور كذلك لباسهم ، ومن ذلك ما قاله في محمد بن السِّمِّري ، وكان يلزم لبسَ مُبَطَّةٍ مُلحَمَةٍ قد طَرّاها مرةً بعد مرة[٣]:-

١. شَجَتْكَ رُسُومٌ دَارِسَاتٌ بِثَهْمَدِ ... كَمُلْحَمَةِ[٤] ابنِ السِّمِّرِيِّ مَحَمَّدِ
٢. تُنَادِي رُسُومُ كُلَّ يَومٍ مُحمّداً : ... أَيَا لابِسِي قَدْ طَالَ عَهْدِي فَجَدِّدِ
٣. بَلَيْتُ وَأَبْلَيْتُ الرِّجَالَ وَأَصْبَحَتْ ... سُنُونٌ طِوالٌ قَدْ أَتَتْ دُونَ مَوْلِدِي
٤. وَضَجَّت إِلَى الرَّحْمَنِ مَنْ نَتْنِ جِرْمِهِ[٥] ... وَمِنْ ذَفَرٍ فِي بَاطِنِ الرَّفْغِ[٦]وَاليَدِ
٥. وَقَالَتْ لَهُ أَيْضاً مِرَاراً كَثِيْرَةً : ... أَمَا حَانَ إِطْلاقُ الأَسِيْرِ المُقَيَّدِ ؟
٦. فَقَالَ لَهَا : مَهْلاً رُسُومُ فَمَا أَنَا ... بِمُعْفِيكِ مِنِّي أَوْ أَحُلَّ بِمُلْحِدِي

---

(١) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ٢١ / ١٧١

– جست روفون : ابن الرومي ،ترجمة د. حسين نصار ، دار الثقافة ، بيروت ،(د.ت) ، ص ٩٠ .

(٢) ابن الرشيق : العمدة في محاسن الشعر ، ١ / ٢٣٨ .

(٣) ابن الرومي : الديوان ، ٢ / ٧٢٨– ٧٢٩.

(٤) الملحمة: اسم مفعول من ألحم الثوب ، أي : نسجه

(٥) الجرم : الجسم

(٦) الرّفغ : أصل الفخذ ووسخ الإبط

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library- Yarmouk University

٧. فَقَالَتْ لَـهُ:هَـلْ أَنْـــتَ أَيْـضاً مُكفَّـنٌ - إِذَا مِتَّ- بِي يَابْنَ البَخِيْلِ المُصَرَّدَ؟

٨. فَقَالَ: نَعَـمْ ، مَـا إِنْ تَزَالِـي قَرِيْنَتِـي إِلَـى يَوْمِ بَعْثِي مِنْ ضَرِيْحٍ وَجَلْمَـدِ[١]

حينما نقرأ المقطوعات الشعرية التي تتناول ظاهرة البخل وصور البخلاء ، فإننا نجد الروح الساخرة الضاحكة مهيمنة على تلك المقطوعات ، والصور الكاريكاتورية تملأ مساحات كثيرة من مقطوعاته ، وقد استطاع ابن الرومي أن يقدم لنا صورة عن علاقة البخيل بمن حوله من الناس في بعضها ، ثم علاقة البخيل بخواصّه كما في هذه المقطوعة ، وقد أضفى الطابع القصصي المشبع بالحوار جوّاً من الفكاهة والحيوية على النص الشعري ،" يمتاز ابن الرومي بإلباسه الجماد حياة ونقل غير العاقل إلى مصاف العقلاء "[٢]

فمحمّد بن السِّمِّري بخيلٌ عافته حتى أشياؤه ، ملابسه وأدواته التي أهلكها واستنفذ طاقتها ، إذ تناديه مبطّنته التي طال عهدها معه أن يجددها ويتخلى عنها ليكون بذلك مولدها من جديد، وتشكو إلى الله رائحته الكريهة ونَتَن جسمه ، ومن الطريف أن يبدّد محمد بن السِّمِّري أملَ تلك المبطّنة المكذوب بأن يطلق سراحها فهي ستلازمه حتى في قبره ويوم بعثه .

وهنا يتناول ابن الرومي جانباً آخر من جوانب البخل ، فالبخل لا يكون في المأكل فقط بل يتعداه إلى الملبس أيضاً ، وهذا يفضي بالتأكيد إلى غياب النظافة الشخصية لتعلّق البخيل بثوب أو ثوبين طيلة حياته.

ويشير البيت الذي جاء على لسان المبطّنة:

فقالت له:هل أنتَ أيضاً مُكفَّنٌ - إذا متَّ- بي يابنَ البخيلِ المُصَرَّد؟

إلى أنّ البخل ربما كان وراثياً في العائلة الضيقة أو الممتدة من خلال نعت المبطّنة للمهجو بابن البخيل المصرّد، إشارة إلى أنّ البخل معروف في عائلته.

---

(١) الجلمد : الصخر والحجر العظيم

(٢) د.محمد حمود : ابن الرومي الشاعر المغبون ، الطبعة الأولى ، دار الفكر اللبناني ، ١٩٩٤ ، ص٧٨ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

لقد فطن ابن الرومي إلى الفكرة الآلية التي يقوم عليها الضحك ، فأوضاع الجسم الإنساني وحركاته تبدو مضحكة إذا ذكرّنا هذا الجسم بآلة ميكانيكية، كما فطن إلى المزج بين ملامح الوجه وحركات الجسم كي تتوافر عناصر الإضحاك ، وتستقيم الصورة[١]

فمحمد بن السِّمَّري تبدو عليه ملامح الحرص، وربما كانت ألوانه غير متناسقة ، ورائحته كريهة .

وقد كان للإمام منصور الفقيه موقفاً من بخلاء مجتمعه ، فسخر مما طرأ عليه من عادات وقيم اجتماعية سلبية ، فقدَّم خلاصة في ظاهرة البخل ، ثم بيّن نظرة المجتمع للبخيل ومدى فاعليته وحضوره ، فقال: [٢]

مَا بالبَخِيْلِ انْتِفَاعٌ وَالْكَلْبُ يَنْفَعُ أَهْلَهُ
مُنَزَّهٌ الكَلْبُ عَنْ أنْ تَرَى أَخَا البُخْلِ مِثْلَهُ

وقال عن بعض ممارسات البخلاء الطريفة : [٣]

إِذَا تَغَدَّوا رَبَطُوا قِطَّهُمْ بُخْلاً بِمَا تَطْرَحُهُ المَائِدَهْ
مَا عَرَضَتْ قَطُّ لَهُمْ تُخْمَةٌ وَلا تَشَكَّوا مَعِدَةً فَاسِدَهْ

يصوِّر الإمام منصور الفقيه في هذه الأبيات البخيل في مجتمعه وبعض ممارساته التي تثير السخرية والضحك ، ويقرر الشاعر _ منصور الفقيه _ أنّ البخيل إنسان عديم الجدوى والمنفعة لمجتمعه وقومه ، ويفارق بينه وبين الكلب الذي ، إذ إنَّه أكثر نفعاً لأهله ، ثم يعرض صورة لمائدة بخلاء كانوا من شدة بخلهم يربطون قطَّهم حتى لا يأكل فضلات مائدتهم _ إن وجدت _ .

---

(١) د. عبد الفتاح نافع : الشعر العباسي قضايا وظواهر ، ص ١٣٢

(٢) القرطبي : بهجة المجالس ، ٢ / ٦٣٢

(٣) المصدر نفسه ، ٦٣٢.

وانظر :عبدالمحسن فراج القحطاني :منصور بن إسماعيل الفقيه حياته وشعره ، ص ٤٩ _ ٥٠ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ومن الجدير بالذكر أنّ الإمام منصور الفقيه لم يوجّه نقده لشخص بعينه بل هو نقد عام نتيجة لما لمسه أو شاهده من تبذير وتقتير في عصر تفشى فيه النفاق ، وقلّ الأصدقاء وأصبح لا حياة للضعيف بينهم .

ولعل عدم توجيه الإمام منصور الفقيه هجاءه إلى شخص بعينه يعود للأثر الديني في نفسه ، الذي ينهى عن ذكر عيوب الناس لئلا يكون غيبة ونميمة ، فالتعميم يسقط عنه الإثم عندما يتحدث عن ظاهرة عامة .

وقال أيضاً : [1]

جَهِلُوا القِيَاسَ لِلُطْفِهِ فَتَوهَّمُوا أنَّ البَخِيْلَ وكَلْبَهُ مِثْلانِ
وَالكَلْبُ يَحْفَظُ أَهْلَهُ ويَقِيهُمُ وَيكُفُ طَارِقَهُمْ عَنْ العُدْوانِ
وَالنَّذْلُ يوْحِشُ أَهْلَهُ وَيُجِيْعُهُمْ وَيَحِضُّ نَاصِرَهُمْ عَلى الخُذْلانِ
فَهَا وَمَنْ جَعَلَ الكِلابَ أَعِزَّةً والبَاخِلِيْنَ أَذِلَّةً ضِدْانِ

يقارن الإمام منصور الفقيه بين البخيل والكلب في غير موضع ، ويجعل الكلب متفوقا دائما على البخيل ، وقد وظَّفَ المصطلحات الفقهية الدينية التي استقاها من علومه ومعارفه كمصطلح القياس ، إذ يستهجن المنصور من مساواة الناس بين الكلب والبخيل ، ويرى أنّ ذلك بسبب جهلهم في القياس فأخطأوا في ذلك الحكم ؛ فالكلب أفضل من البخيل لأنه يحفظ أهله ويحرسهم ويكف عنهم العدوان ، بل يقدر الإمام منصور الفقيه أنّ العلاقة بين الكلب والبخيل علاقة ضدية فالكلاب أعزّة لشرف ما تقوم به وفاعليتها في المجتمع ، والبخلاء أذلّة لدناءة ما يقومون به وسخفه وغياب فاعليتهم في المجتمع .

كما لا يُقْبَل البخيل زوجاً ، لأنه سيجلب النحس والتعاسة لأسرته ،يقول منصور الفقيه: [2]

---

(1) القرطبي : بهجة المجالس ٢ /٦٢٩.

(2) القرطبي : بهجة المجالس ،٢ / ٦٣٧

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

إذا كَـــانَ فـــي بُخْلِـــهِ مُحْكَمَـــاً وَحَلَّ مِنَ المَجْـدِ أَعْلَـى الـدَّرَجِ
وَجَـــاءَكَ يَخْطِـــبُ زِنْجِيَـــةً مُـشوَّهَةَ الخَلْـقِ فِيْهَـا هَـوَجْ
فَـــلا تَحْفَلَـــنَّ بِـــهِ خَاطِبَـــاً وَلا تَفْـــرَحَنَّ ولا تَبْـــتَهِجْ

وكذلك البخيل غالبا ما يرفض أن يقيم علاقات اجتماعية مع أفراد مجتمعه من شـأنها أن تبددَ ماله أو تنفد طعامه ، ويقول الأمام منصور الفقيه في ذلك : [1]

أَتَيْتُ عَمْرَاً سَـحَرَاً فَقَـالَ: إنِّـي صَـائمُ
فَقُلْتُ : إنّي قَاعِـدٌ فَقَـالَ : إنّـي قَـائمُ
فَقُلْتُ: آتِيْكَ غَـداً فَقَالَ : صَـوْمِي دَائِـمُ

أمّا ابن بسّام فيذكر بعض موادّهم الغذائية بل أهمّها على الإطلاق وهو الخبز الحامض، يقول: [2]

أَتَانَـــا بِخُبْـــزٍ لَـــهُ حَـــامِضٍ شَـــبِيْهُ الـــدَّرَاهِمِ فـــي حِلْيَتِـــهِ
يَـــضْرِسُ آكِلُـــهُ طَعْمُـــهُ وَيَنْشِبُ في الحَلْقِ مِـنْ خُـشْنَتِهِ
فَلَمَّـــا تَنَفَّـــسْتُ عِنْـــدَ الخُـــوَانِ تَطَـــايَرَ فِـــي الجَـــوِّ مِـنْ خِفَّتِـــهِ

يُعَدُّ الخبز المادة الأساسية على مائدة الأغنياء والفقراء على حدّ سواء ، ولا بُدّ أن تتصف هذه المادة بالجودة العالية ، إلا عند البخلاء الذين يقدمون الرديء منه فهـو حـامض ، صـغير الحجم، خشن ، خفيف .

ومن الطريف في عالم البخلاء أن يرصد الشاعر تحركاتهم حول الخـوان وحركـة أطرافهم وعيونهم ، ويسبر نفسيتهم وهم يراقبون الضيف كيف يأكل ، وماذا يأكل ، كما فُعِـلَ بجحظة البرمكي ، إذ يقول في أحدهم دعاه إلى مائدته : [3]

لَنَا صَاحِبٌ مِنْ أَبْرَعِ النَّاسِ فِي البُخْلِ وَأَفْـضَلِهِمْ فيـــهِ وَلَـــيْسَ بِـــذِي فَـــضْلِ
دَعَانِي كَمَـــا يَـــدْعُو الـــصَّدِيقُ صَـــدِيْقَهُ فَجِئْـــتُ كَمَـــا يَـــأْتِي إِلَـــى مِثْلِـــهِ مِثْلِـــي

---

(1) المصدر نفسه ، ٢ / ٦٣٦.
(2) الأصفهاني : محاضرات الأدباء ، ٢ / ٦٦٣
(3) جحظة البرمكي : الديوان ، ص١٥٧ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فَلَمّـــا جَلَـــسْنَا لِلْغَـــدَاءِ رَأَيْتُـــهُ يَرَى إنّمَا مِـنْ بَعْـضِ أعْـضَائِهِ أُكْلِـي
وَيَغْتَـــاظُ أحْيَانَـــاً وَيَـــشْتِمُ عَبْـــدَهُ وَأعْلَـمُ أنّ الغَـيْظَ والـشَّتْمَ مِـنْ أَجْلِـي
أَمُـــدُّ يَـــدِي سِـــرّاً لآكُـــلَ لُقْمَـــةً فَيَلْحَظُنـــي شَـــزَرَاً فَأَعْبَـــثُ بالبَقْـــلِ
إلـــى أنْ جَنَـــتْ كَفِّـــي لِـــي جِنَايَـــةً وَذَلِـــكَ أنّ الجُـــوعَ أعْـــدَمَنِي عَقْلِـــي
فَـــأهْوَتْ يَمِيْنِـــي نَحْـــوَ رِجْـــلِ دَجَاجَـــةٍ فَجَرَّت ، كما جرَّتْ يَـــدِي رِجْلُهـــا رِجْـــلِ

إنّ البخلاء كما يبدو في شعر جحظة البرمكي أصناف ومقامات ، وهم أيضا درجات في البخل ، والسّعة ، والقلّة ، وفي هذه الأبيات صورة لأحدهم حاول أن يتجاوز صفة البخل، إذ يقيم وليمة ويدعو أصحابه لحضورها ، والتلذذ بما عليها من أطباق شهيّة ، إلا أنَّ البخـــل سمة متأصلة في نفوسهم ، التي تظلّ تترقب ما يقدّمونه ، فهذا بخيل جحظة يفـــوق الـــبخلاء ببخله ، وقد دعا أصحابه لمأدبة ضمت أصنافاً من الأطعمة ، وجحظة خبير بنفـــوس هـــؤلاء البخلاء ، إذ استطاع أن يكشف عن عالمهم الداخلي ونفسياتهم ، فصاحبه يبدو مغتاضاً وكأنّه يأكل من أعضائه لشدة بخله وحرصه على ما يقدّم ، ثمّ يتجاوز جحظة هذا الكشف إلى كشف آخر، وهو ما يمكن أن نسميه بآداب الطعام وحسن الضيافة التي انعدمت عند هذا البخيل الذي يتوجّه إلى خادمه شتماً وإهانةً.

استطاع جحظة أن يكوّن لنا مشهدا تمثيلياً ، تتوافر فيه الحركة والصوت، و الصورة واللون ، والشخصيات والأحداث ، ليوصل لنا صورة دقيقة عن العالم الداخلي للبخيل ، وفشله _البخيل _ في محاولة التغلب على البخل الذي تأصّل في نفسه ، كما استطاع جحظة أن يلتقط ببراعة حركة ترقّب كلٍ من البخيل والضيف لبعضهما :

أمدُّ يدي سرّا لآكلَ لُقْمَةً فَيَلْحظُنِي شَزَرَاً فأعْبَثُ بالبَقْلِ

إذ تتفاوت حركة عينيهما بين الترقّب والغضب وملاحقة اليـــدين ، وتكتمـــل جمـــال الصورة في حركة العبث التي يصطنعها جحظة لإشغال البخيل عن متابعته .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

وقد كان بخلاء جحظة من الأغنياء الذين يمتلكون البساتين والأموال، وقد أعطاهم الله من حيث لا يحتسبون، لكن الغنى لم يُغيّر في عالمهم النفسي شيئاً ، فيقول في أحدهم[١]

دَخَلْتُ عَلَى بَاخِلٍ مرّةً وجَنَّاتُ بُسْتَانِهِ زَاهِرَه
وَقَدْ قَابَلَ النَّوْرَ نَقْشَ السُّتورِ فَأَعْيُنُ زُوّارِه حَائرَه
جِنَانٌ تُعَجَّلُ لِلْبَاخِلِيْنَ وَنَحْنُ نُؤَجَلُ لِلآخِره

تشير هذه الأبيات إلى التفاوت الكبير في مستويات المعيشة في ذلك العصر ، ويدرك جحظة بذلك سرّا من أسرار هذه الحياة القائمة على الثنائية حيث الغنى والفقر ، والقبح والجمال ، والحياة والفناء ....

وقال فيهم أيضا : [٢]

وَصَاحِبٍ زُرْتُهُ فَقَدَّمَ لِي كِسْرَةَ خُبْزٍ وَعَيْنُهُ عَبَرَى[٣]
وَقَالَ : مَا تَشْتَهِي ؟ فَقُلْتُ لَهُ: قَطْرَةَ مِلْحٍ وكِسْرَةً أُخْرَى
فَمَزَّقَ الجَيْبَ[٤] ثُمَّ لاكَمَنِي وَقَالَ : هَذهِ المُصِيْبَةُ الكُبْرَى

يبدو أنّ جحظة كان ذا خبرة واسعة بعالم البخلاء ، فقد عرف نفسياتهم ، ورصد حركاتهم ، وعرض لموائدهم وأطباقهم ، ومن ثمّ موسريهم ومعسريهم ، وقد تفنن في عرض صورهم فكان أشبه برسام كاريكاتوري ، وبلغة درامية نجده ينفذ إلى معانيه التي يقصدها ، فها هو يعرض لأحدهم حلّ عليه زائراً فقدّم له كسرة خبز وعينه تكاد أن تدمع من شدة الحرص والحزن على ما قدّم من طعام ، ولمّا طلب من مضيفه المزيد من الخبز والملح مزّق ثوبه وعدّ طلبه مصيبة كبرى .

---

(١) جحظة البرمكي : الديوان ، ص٨٨.
(٢) المصدر نفسه، ص ٩٠.
(٣) عبرى : دامعة .
(٤) الجيب : فتحة الثوب عند الرقبة ، وتمزيقها يكون وقت الوله وعند وقوع المصيبة .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يسهم عنصر الحركة في هذه الأبيات في إضفاء جوٍ من السخرية ، حيث حركة تمزيق الجيب والملاكمة تزيد من طرافة المشهد وجمال التصوير، ويكشف الحوار عن سمات البخلاء ونفسياتهم ، كما يجعل القارئ أكثر انجذابا لما يضفيه من حيوية على النص باستدعائه عناصر مهمة كعنصر الصوت، والحركة، واللون ،ومن ذلك قول جحظة البرمكي في أحد البخلاء[١]

رُبَّ خِـــلٍّ طَرَقْتُـــهُ للـــسَّلامِ ظَـــنَّ أنّـــي أتَيْتَـــهُ للطَّعَـــامِ
فَتَمَطَّـــى سُـــوَيْعَةً ثُـــمَّ نَـــادَى يَا غُلَامِي !وَأَيْنَ لِـــي بِغُلَامِـــي؟!
هَاتِ لِـــي حُقَّـــةَ الجُـــوَارِشِ إنّـــي[٢] بَشِمٌ مِـــنْ هَرِيْـــسَةٍ[٣] وَهُـــلَامِ[٤]

قُلْتُ : قَدْ قُمْتُ عَنْكَ قَالَ: وَمَـــنْ لـــي مِنْـــكَ يَـــا مَـــنْ فَقَدْتُـــهُ بالقِيَـــامِ
أحْمَـــدُ اللّـــهَ ، أَقْـــسَمَ اللّـــهُ أنْ لا يَتَـــوَخّى بـــالرِّفْقِ غَيْـــرَ اللِّئَـــامِ

يوحي الفعل(تمطّى) بالبطء وثقل الحركة لدى هذا البخيل الذي لا يبدي اهتماما بضيفه ، كما تشير هذه الأبيات إلى قدرة البخلاء على استخدام الحيلة للتملص من إكرام الضيف ، كما همَّ بخيل جحظة أن يسترجع ما في بطنه ليقزز ضيفه .

ب <u>نقد الشعراء للأغنياء :</u>

ينقسم المجتمع في العصر العباسي إلى ثلاث طبقات : الطبقة العليا، وتشمل الخلفاء ، والوزراء، والقادة ، والولاة ، والأمراء، وكبار التجار، والموسرين .

والطبقة الوسطى ، وتشمل رجال الجيش ، والتجار ، وأصحاب الصنعة .

والطبقة الدّنيا ، وتشمل الفلاحين، وأصحاب الحرف الصغيرة ، والخدم والرقيق .

---

(١) جحظة البرمكي : الديوان ، ص١٦٧

(٢) حُقّة : وعاء من خشب .

(٣) هريسة : الحب المدقوق .

(٤) هلام : طعام من لحم عجل بجلده .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

كانت الطبقة العليا غارقة في الترف والنعيم ، تجبى إليهم أموال الخراج والغنائم ، وواردات الدولة ، وقدرت الأموال التي تجبى للدولة بعشرات الملايين ، مما يزيد عن إنفاق الولايات على الجيش، والمساجد ، والعمال ، والمستخدمين ، والتي كانت ترسل إلى بغداد ، يتصرف بها الخليفة ، وحاشيته ، ورجاله ، كما يشاؤون[١]

وقد كان بين فئات الطبقة الوسطى بعض الأغنياء وصغار التجار الذين لم يصلوا حدّ البذخ الذي كانت عليه حال الطبقة العليا ولم يصلوا كذلك إلى ما كانت عليه الطبقة الدّنيا ، فالأغنياء انحصروا في الطبقتين العليا والوسطى ، في حين ظلت الطبقة الدّنيا تعاني الفقر والجوع ، وقلة المأكل ، والملبس ، وسوء المسكن ، وقد انبرى بعض الشعراء يصورون هذا التباين بين فقراء المجتمع العباسي وأغنيائه ، متحاملين على الأغنياء خلفاء ووزراء وقادة ، وموسرين ، ومشفقين متعاطفين مع الفقراء وعامة الناس .

ومن أولئك الشعراء الذين تناولوا ظاهرة الغنى وحلّلوا نفسيات الأغنياء وسبروا أغوارهم الشاعر عمارة بن عقيل ، إذ قال : [٢]

وَيَرْفَعُ المَالُ أَقْوَامَاً وَإِنْ خَمَلُوا ... وَيَزْدَرِي الفَقْرُ أَقْوَامَاً وَإِنْ كَرُمُوا
وَقَدْ رَأَيْتُ رِجَالاً إِذْ رَأَيْتُهُم ... خَلَّوا مَوَارِيْثَهُم لِلنَّاسِ وَاخْتُرِمُوا
لَمْ يُحْمَدُوا بِالَّذِي خَلَّوا وَرَاءَهُم ... وَلَمْ يَجُوزُوا بِهِ إِلاَّ الَّذِي اجْتَرَمُوا[٣]

---

(١) آدم منتز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام ، ، ترجمة أبي ريده ، أعدَّ فهارسه رفعت البدراوي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ١ / ٣٥ وما بعدها .

(٢) ابن المعتز : طبقات الشعراء ، تحقيق عبدالستار أحمد فراج ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ٣١٧_٣١٨.

(٣) اجترموا : اكتسبوا .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library- Yarmouk University

لقد تسلّم زمام الأمور رجال ليس لهم حظ من العلم والمعرفة ، لكن ثراءهم غيّر مـن نظرة الناس لهم ، وفي المقابل فقد اندثرت طاقات أصحاب الكفاءة ممن كان الفقر نصيبهم في هذه الحياة ، وبالتالي فإنّ عمارة بن عقيل يوعز جانبا من الضعف الـذي أصـاب الدولـة العباسية إلى مثل هذه النظرة المادية لدى الناس أوالحكومة .

وها هو أبوهفّان يقتحم عالم الأغنياء الداخلي ويكشف عن دقائق نفوسهم فيقول : [1]

لَئِنْ كَانَ ثَوْبِي دُوْنَ قِيْمَتِهِ الفِلْـسُ فَلِي فِيْهِ نَفْـسٌ دُوْنَ قِيْمَتِهـا الإِنْـسُ
فَثَوْبُكَ ثَوْبٌ تَحْتَ أَنْـوَارِهِ الـدُّجَى وَثَـوْبِي تَحْـتَ ظُلْمَتِـهِ الـشَّمْسُ

يتعرض أبو هفّان لأثواب الأغنياء الفاخرة التي تخفي نفوساً مظلمة ، مقـدّماً رؤيتـه لنفسية كل من الأغنياء والفقراء عبر الثوب الذي يغطي أجسادهم ، فالثوب _ عنده _ وإن قل شأنه وزهد ثمنه فإنه يخفي نفساً عظيمة تفوق الكثير من الأغنياء وأولي الأمر والقرار ، فإنّ ثوب الغني البراق الفاخر يخفي ظلمة ، ولعله يريد بذلك الدخول إلى عالم الذات وعلم النفس ، فالفقراء _ من منظور الشاعر _ يتمتعون بقلوب طيبة ونفوس نقية ، بينما الأغنياء نفوسهم معتمة ملؤها الحقد والكراهية .

ومن الجدير بالذكر أنّ أبا هفّان قد حقق هاتين الصورتين المتقابلتين بـين الأغنيـاء والفقراء عن طريق أسلوب الالتفات من المتكلم إلى المخاطب فضلاً عن توازن جملة لتستوي له الموازنة بين الصورتين .

---

(1) د. نوري حمودي القيسي وهلال ناجي : المستدرك على صنّاع الدوواين ، الطبعـة الأولـى ، مطبعـة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٩١ ، ص٣١١.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

وقد كان ابن بسام شاعرا لَسِناً ، مطبوعا في الهجاء ، ولم يسلم منه وزير أو أميـــر، ولا صغير أو كبير ،ولا بخيل أو غني .وله في أبيه هجاء وإخوته وسائر أهله ، فمما قاله في أبيه محمد بن نصر:(١)

بَنَى أَبُـو جَعْفَـرَ دَاراً فَـشَيَّدَهَا ... وَمِثْلُـــهُ لِخِيْـــارِ الـــدُّوْرِ بَنَّـــاءُ
فَالْجُوعُ دَاخِلُهَا والـذُّلُّ خَارِجُهَـا ... وفِـــي جَوَانِبِهَـــا بُـــؤْسٌ وَضَـــرَّاءُ
مَا يَنْفَعُ الدَّارَ مِنْ تَشْيِيْدِ حَائِطِهَـا ... وَلَـــيْسَ دَاخِلَهَـــا خُبْـــزٌ وَلا مَـــاءُ

يبين ابن بسام تناقض الإنسان الغني في العصر العباسي مع ذاته ومع مجتمعه ، فأبو جعفر قادر على بناء خير دار ، وهذا دليل ثرائه ، لكن داره يسكنها الجـوع ، ويحـيط بهـا البؤس والضراء ، فلم يستطع تحقيق توازن بين الغنى المادي والنفسي ، إذ اعتـرى الأخيـر منهما الفقر فاختلّ التوازن بينهما ، وهذا وصف دقيق لعالم الأغنياء الذين تراوحت حياتهم بين حرمان الذات وحرمان الآخر .ولعل ابن بسام أدرى من غيره بنفسية أبيه فهو يشاطره الحياة ويقاسمه العيش .

وقال في موضع آخر : (٢)

دَارُ أَبِـــي مَمْلُـــوَءَةٌ كُلُّهَـــا ... مَا شِـئْتَ مِـنْ فُـرْشٍ وَأَنْمَـاطِ
وَبُعْـدُ مَـا بَيْنَـكَ مِـنْ خُبْـزِهِ ... كَبُعْـدِ بَلْـخٍ مِـنْ سُمَيْـسَاطِ
مَطْبَخُـــهُ قَفْـــرٌ وَطَبَّاخُـــهُ ... أَفْـرَغَ مِـنْ حَجَّـامِ سَـابَاطِ
خَدَّامُـــهُ المِـــسْكِيْنُ مِـــنْ جُوْعِـــهِ ... مَـــأْلَفُ قَـــوَّادٍ وَمُلْتَـــاطِ

(١) المسعودي : مروج الذّهب ، ٥ / ٢٠٦

(٢) المخزومي ، أبو الوفاء ريحان بن عبدالواحد : المناقب والمثالب ، تحقيق إبـراهيم صـالح ، الطبعـة الأولى ، دار البشائر ، دمشق ، ص ٢٤٩ . عدا البيت الرابع في : الثعالبي ، أبو منصور عبدالملك بن إسماعيل : ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار نهضة مصر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ١ / ٣٧٨ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لم يستطع الغنى المادي أن يوطد علاقات أسرية متينة بين الابن وأبيه ، كما يشير ابن بسام إلى بعض السلوكات غير السّويّة التي كانت تمارس في مجتمعه ضد بعض الأفـــراد المستضعفين كالخدم والطباخين وغيرهم .

وينظر الفقراء للأغنياء نظرة ازدراء واحتقار ، فها هو جحظة يقول : [1]

سَـــجَدْنَا لِلْقُـــرُودِ رَجَـــاءَ دُنْيَـــا حَوَتْهَـــا دُونَنَـــا أَيْـــدِي القُـــرُودِ
فَلَـــمْ تَرْجِـــعْ أَنَامِلُنَـــا بِـــشَيءٍ رَجَوْنَـــاهُ سِـــوَى ذُلِّ الـــسُّجُودِ

وقد تصل علاقة الفقراء بالأغنياء إلى حدّ علاقة العبد بمعبوده ، وشتّان ما بينهمـــا ، فالمعبود يجزي عبده ويحسن إليه ، لكن العلاقة هنا لا تعود بالنفع على العبد الفقير فهذا العبد لا يجني إلا ذلّ السجود .إذن فالعلاقة بين الأغنياء والفقراء في العصر العباسي الثاني كانـــت علاقة غير تصالحية بل هي أقرب للضديّة منها للتصالح ، فالأغنياء في ترف والفقـــراء فـــي عوز وجوع .

---

[1] المسعودي : مروج الذهب ٤ / ٢٠٦ .
– جحظة البرمكي : الديوان ، ص ٧٨ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

ج – نقد الشعراء التُّجار:

يعدُّ التُّجار من الأغنياء الذين نالوا حظهم الطيب من الحياة ، ملبساً ومسكناً ومأكَلاً ، واحتكروا السعادة وضيّقوا على الناس وسدُّوا أمامهم أبواب الفرج ، وفي هذا المبحث ستحاول الدراسة استجلاء صورة التاجر _ آنذاك _ وموقف عامة الناس منه ، فهذا ابن الرومي يقول في رجلٍ ضايقه وهو ابن أبي عوف : (١)

ربِّ أَطْلِقْ يَدِي فَكُلِّ شَيْخٍ ... ذِي رِيَاءٍ بِسَمْتُهُ فَسُكُونهْ

تَاجِرٍ فَاجِرٍ جَمُوحٍ مَنُوعٍ ... يُرْهِقُ النَّاسَ فِي اقْتِضَاءِ دِيُونَهْ

جَمَعَ المَالَ بالعَدْلِ فِي الظَـ ... ـظاهِرِ والمُوبِقَاتِ مِنْ مَكْنُونِهْ

يصف ابن الرومي هذا الرجل التاجر بالرياء والفجور ، والجموح ، والمنوع ، يرهق الناس في اقتضاء ديونه ، وقد جمع الأموال الطائلة بالعدل في ظاهر الأمر وبالحرام ومجاوزة الشرع في واقع الحال ، وإن تجاوزت الباحثة الباعث الحقيقي لدى ابن الرومي في هجاء ابن أبي عوف فإنّه يكشف من جانبٍ عن نظرة سلبية مجردة من الرضا ، فالتاجر مستغل لحاجة الناس إليه ، وهو يمثل سلطة مالية أضيفت إلى ما يقع على كاهل عامة الناس من سلطاتٍ سياسيّةٍ أو دينيةٍ أوحزبية أو غيرها .

أما البحتري فيتحدث عن أبرز أنواع التجارة في عصره وهي تجارة الجواري ، فيقول : (٢)

غَلَتِ الأَشْيَاءُ حَتَّى الكَشْـ ... ـخَ فِي هَذَاالحِصَارِ

كَانَ عَهْدِي بِابْنِ حَمَّا ... دٍ لإِفْرَاطِ الْبَوَارِ

وَهْوَ يَغْدُو يَطْلُبُ الأَعْـ ... ـمَالَ فِي زِيِّ التُّجَّارِ

رَاضِيَاً مِنْهَا ، وَمَا يَقْـ ... ـنَعُ مِنْهَا بالصِّغَارِ

حِينَ صَارَ المِصْرُ(٣) مَشْـ ... ـحُونَاً بِأَرْبَابِ الجَوَارِي

ثُمَّ غَابُوا فَتَوَلاَّ ... هَا بِتِيْهٍ وَاقْتِدَارِ

وَإِذَا عَزَّ الكَرَا(١) فَإِنْـ ... ـزِلْ عَلَى حُكْمِ المَكَارِي(٢)

---

(١) ابن الرومي : الديوان ، ٦ / ٢٥٥١.

(٢) البحتري : الديوان ، ص ٦١٢ .

(٣) المصر : المدينة أو الكورة .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يكشف البحتري في هذا النص عن بعض الملامح الاقتصادية والاجتماعية للحياة في العصر العباسي الثاني كانتشار تجارة الجواري وتنافس التجار فيها ، كما نلمح في أبياته حقيقة في عالم التجارة تتمثل في مراحل تكوين التاجر، فهذا ابن حماد يبدأ تاجراً صغيراً قانعاً بالقليل ، يتقمّص كبار التّجار ثمّ بعد أن يحترف التجارة ويسبر أغوارها نجده لا يقنع بالقليل بل يتسرب إلى نفسه شعور التيه والكِبْر.

ويعرض الصنوبري صورة أخرى لتاجر آخر من تجار العصر العباسي الثاني ، ويدعى ابن أبجر، يقول فيه : [٣]

إِنْكَارُ حَقِّي يَا ابْنَ أَبْجَرَ ... مِنْ فِعْلِ مِثْلِكَ غَيْرُ مُنْكَرْ
هِيَ عَادَةٌ لَكَ لَمْ تَزَلْ ... يَا أَيُّهَا العَوْدُ المُكَرَّرْ
أَمَّا مَحَلُّكَ عِنْدَنَا ... فَكَمَا عَلِمْتَ بِهِ وأَحْقَرْ
وَأَرَاكَ مِنْ بَيْنِ التُّجَا ... رِ كَأَنَّكَ الصَّكُّ المُزَوَّرْ

يعدُّ ابن أبجرصورة للتاجر المنكر لحقوق الناس في هذا العصر _ العباسي الثاني _ وقد أصبح ذلك عادة بالنسبة إليه ، ولذا فمن الطبيعي أن يمقته الناس ويحتقروه ، ويشعروا تجاهه بالحقد والكراهية .

وإذا كان الصنوبري يكشف لنا عن صورة من صور تجار العصر فإنه يشير إلى جانب من المعاملات التجارية التي كانت تتم بين التجار كتبادل الصكوك فيما بينهم ، وممارسة بعضهم التزوير في بعض تلك المعاملات .

---

(١) الكرا : الكراء وهي الأجرة .

(٢) المكاري : المؤجر لما يركب .

(٣) الصنوبري ، أحمد بن الحسن الضبي : الديوان ، تحقيق إحسان عباس ، الطبعة الأولى ، دار صادر ، بيروت ، ص١١١_١١٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

د – نقد الشعراء للطفيليين :

أفرزت الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العصر العباسي الثاني عدة ظواهر اجتماعية ، وفئات لم تكن شائعة أو موجودة من ذي قبل ، ومن تلك الفئات الطفيليون، الذين اعتادوا الحضورعلى الموائد دون دعوة ، وملاحقتها بنوع من التحايل والفكاهة ، وقد كانوا يقابلون بالسخرية والفكاهة تارةً ، أو بالإشمئزاز والنفور تارة أخرى .

وقد اتصف هؤلاء الطفيليون بالبلاغة وسرعة البديهة وحضور الجواب ، وقد وصف أحدهم أسلوبهم في دخول البيوت : [1]

نَحْنُ قَوْمٌ إذَا دُعِيْنَا أَجَبْنَا وَمَتَى نُنْسَ يَدْعُنَا التَّطْفِيْلُ
فَنَقُلْ : عَلَّنَا دُعِيْنَا فَغِبْنَا أوْ أَتَانَا فَلَمْ يَجِدْنَا الرَّسُولُ

وقال آخر : [2]

كُلُّ يَوْمٍ أَدُورُ فِي عَرْصَةِ الحَـ ـيِّ أَشُمُّ القُتَارَ[3] شَمَّ الذُّبَابِ
فَإِذَا مَا رَأَيْتُ نَارَ عَرُوسٍ أَوْ خِتَانَاً أَوْ دَعْوَةً لِصِحَابِ
لَمْ أُعَرِّجْ دُوْنَ التَّقَحُّمِ لا أَرْهَـ ـبُ شَتْمَاً وَوَكْزَةَ البَوَّابِ
مُسْتَخِفَّاً بِمَنْ دَخَلْتُ عَلَيْهِم غَيْرَ مُسْتَأْذِنٍ وَلا هَيَّابِ
ذَاكَ أَهْنَا مِنَ الغُرْ مِ وَغَيْظِ البَقَّالِ وَالقَصَّابِ

إنّ الطفيليين يتقصون المناسبات الاجتماعية التي تقام فيها الولائم ، كالأعراس أو الختان أو الدعوات الخاصة ، وهم متمرسون في اقتحام هذه المناسبات دون دعوة ، كأن يتظاهروا بأنهم ممن وجِّهت لهم الدعوة ، أو يزجون بأنفسهم غير آبهين بالشتم أو الزجر

---

(1) القرطبي : بهجة المجالس ، ٢ / ٧٤٢ .
– وانظر ابن قتيبة الدينوري ، أبو محمد عبدالله بن مسلم : عيون الأخبار ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٠ ، ٣ / ٢٣٢ / ابن عبدربه ، أبو عمر أحمد بن محمد : العقد الفريد ، شرحه وضبطه وصححه أحمد أمين و إبراهيم الأبياري و عبدالسلام هارون ، دار الكتب العربي ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ٦ /٢١٢

(2) القرطبي : بهجة المجالس ، ٢ / ٧٤٣_٧٤٤.

(3) القُتَار : دخان ذو رائحة ينبعث من الطبيخ أو الشّواء ، أو العظم المحروق .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

.ويكشف البيت الأخير من شعر هذا الطفيلي عن الحالة الاجتماعية لهذه الفئة ، إذ إنَّها تعاني الفقر والجوع وكثرة الديون ، واحتقار الآخرين لها من الأغنياء أو الفئات الاجتماعية كالباعة مثلاً .

وهذا عبدالصمد بن المعذل يسخر بأسلوب هجائي من طفيلي يكنّى بأبي سلمة ، وقد كان إذا بلغه خبر وليمة لبس لبس القضاة ، وأخذ ابنيه معه وعليهما القلانس الطّوال والطيالسة الرقاق ، فيقدّم ابنيه ، فيدق الباب أحدهما ويقول : افتح يا غلام لأبي سلمة ، حتى يدخلوا ، وقيل : إنّه مات من شراهته حين ابتلع لقمة ساخنة من فالوذج فقضى نحبه ، فرثاه ابن المعذل : [1]

أَحْزَانُ نَفْسِي عَلَيْهَا غَيْرُ مُنْصَرِمَهْ ... وَأَدْمُعِي مِنْ جُفُونِيَ الدَّهْرَ مُنْسَجِمَهْ
عَلَى صَدِيْقٍ وَمَوْلًى بِي فُجِعْتُ بِهِ ... مَا إِنْ لَهُ فِي جَمِيْعِ الصَّالِحِيْنَ لُمَهْ
كَمْ جَفْنَةٍ مِثْلِ جَوْفِ الحَوْضِ مُتْرَعَةٍ ... كَوْمَاءَ جَاءَ بِهَا طَبَّاخُهَا رَدِمَهْ
قَدْ كَلَّلَتْهَا شُحُوْمٌ مِنْ قَلِيَّتِهَا ... وَمِنْ سَنَامٍ جَزُوْرٍ عَبْطَةٍ سَنِمَهْ
غُيِّبْتَ عَنْهَا فَلَمْ تَعْرِفْ لَهَا خَبَرَا ... لَهْفِي عَلَيْكَ وَوَيْلِي يَا أَبَا سَلَمَهْ
وَلَو تَكُنْ لَهَا حَيًّاً لَمَا بَعُدَتْ ... يَوْمَاً عَلَيْكَ وَلَو فِي جَاحِمٍ طُعْمَهْ
قَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنّ الأَكْلَ يَقْتُلُهُ ... لَكِنَّنِي كُنْتُ أَخْشَى ذَاكَ مِنْ تُخَمَهْ

تشيع روح السخرية في أبيات ابن المعذل من هذا الطفيلي الذي لم يثنه عن ملاحقة المآدب سوى الموت ، ومن الطريف أن تكون الشراهة في الأكل هي سبب موته ، ورغم أن ابن المعذل يبدو وكأنه ينظم مرثية لهذا الطفيلي ، إلا إنَّ اللغة الساخرة تجعل من الحزن ضحكا ومن الموت سخرية ، إذ انشغل الشاعر بوصف دقيق لنهمه وشراهته و للجفنات وما تحتويه من أصناف الطعام .

---

[1] الأصفهاني : الأغاني ، ١٣ / ٢٣١- ٢٣٢

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

وقد صوّر الحمدوي جانبا من سلوكاتهم وحيلهم ،فيقول : [1]

أَرَاكَ الـــدّهْرَ تَطْـــرُقُ كُـــلَ دَارٍ ... كَـــأَمْرِ اللّـــهِ يَحْـــدُثُ كُـــلَّ لَيْلَـــهْ
فَإِنْ غَلُـظَ الحِجَـابُ وَكَـانَ صَـعْباً ... وَلَـــمْ تَقْـــدِرْ هُنَـــاكَ عَلَـــى دُخَيْلَـــهْ
أَخَـــذْتَ لِكَـــي تُخَـــاطِبَهُمْ خِـــلالاً ... وَقُلْـــتَ نَـــسِيْتُ عِنْـــدَكُمْ نُعَيْلَـــهْ
فَتَلْـــتَهِمُ الخِـــوَانَ بِمَـــا عَلَيْـــهِ ... وَتَبْـــدُرُهُمْ إِلَـــى بِـــيْضِ البُقَيْلَـــهْ
وَتَأْكُـــلُ أَكْـــلَ مَيْـــسَرَةٍ وَأَيْـــضاً ... فَـــلا بُـــدَّ لِعِرْسِـــكَ مِـــنْ زُلَيْلَـــهْ

يبين الحمدوي في هذه الأبيات أنّ الطفيليين لا ينفكون يطرقون البيوت بحيلهم المتعددة، حتى إذا دخلوها أكلوا كل ما على الموائد وزاحموا أهلها على ما دسم من صنوف الأطعمة مخلفين لهم البقل وما قلّ دسمه ، ويصور الحمدوي دخولهم البيوت بالحجّة والحيلة ، ثمّ طريقة التهامهم كل ما على الموائد بصورة ساخرة أشبه بالرسم الكاريكاتوري ، فالطفيلي يبدو شخصا خفيف الحركة ، كثير الأكل، و سريع البلع ، والآخرون في اندهاش واشمئزاز من سلوكاته .

كما تعرَّض ابن الرومي لأحدهم ويدعى سليمان بن عبدالله ، إذ يقول فيه : [2]

إِذَا حَاوَلْـــتَ تَطْفِـــيْلا ... فَكُـــنْ فِـــي ذَاكَ أُسْـــتَاذَا
أَلاَ وَاجْعَلْـــهُ تَطْفِـــيْلا ... ذَلِيْـــقَ الحَـــدِّ نَفَّـــاذَا
كَتَطْفِيْـــلِ سُـــلَيْمَانَ ... عَلَـــى إِمْـــرَةِ بَغْـــدَادَا
تَعَالَى اللهُ مَا أَمْـــضَا ... هُ فِي التَّطْفِيْلِ ،يَـــا هَـــذَا
أَغَذَّ السَّيْرَ مِنْ آمُـــ ... ـــلَ[3] لِلتَّطْفِيْـــلِ إِغْـــذَاذَا
وَخَلِّـــى طَبَرِسْـــتَانَ ... عَلَـــى الـــدَّيْلَمِ آزَاذَا[4]

---

(1) البغدادي : التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم ، تحقيق د. عبدالله عبدالرحيم عسيلان ، دار المدني ، جدة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦ ، ص١٣٢.
– وانظر الثعالبي : ثمار القلوب ، ص٣٥ .

(2) ابن الرومي : الديوان ، ٢ / ٨١٠ .

(3) آمل : أكبر مدن طبرستان ، بين الري وقومس والبحر وبلاد الديلم .

(4) آزاذ : كلمة فارسية معناها حرّطليق ، ومن لا يهتم بالعرف .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

سلّط شعراء العصر العباسي الثاني أضواء شعرهم على هؤلاء الطفيليين الذين كان لهم نمطٌ خاصّ بهم ، وعادات وسلوكات عرفوا بها ، كما كانوا متفاوتين في مهاراتهم وحيلهم للحصول على الطعام ، ويعرض ابن الرومي إلى ذلك حين يطلب ممن يحاول التطفيل أن يكون أستاذا ، وهذا يعني أنّ من بينهم التلاميذ والأساتذة في التطفيل وفنونه أي : أنّ هناك تفاوتا في فنون التطفيل عندهم ويحتاج الواحد منهم إلى مهارات عدة ليصبح أستاذاً كمهارة اللغة وحفظ الأشعار، والنكتة الأدبية ، فضلا عن اللياقة البدنية لمواجهة حجّاب الأبواب من أجل الدخول .

ويقول ابن الرومي في طفيلي آخر اسمه محمد بن العباس بن نوبخت ، وهو رجل مكابد مخالف لإخوانه في كل ما يفعلونه اللهم إلا في شيء واحد يتفق معهم فيه وهو الإسراع إلى الموائد مع المدعوّين سواء كان مدعوّا أم غير مدعوّ : [1]

يُخَالِفُ إِخْوَانَهُ فِي الطَّرِيْقِ ... إِلَى أَنْ تَضُمُّهُمُ المَائِدَهْ
فَبَيْنَمَا كَذَلِكَ إِذْ هُمْ بِهِ ... مَعِ القَوْمِ كَالْحَيَّةِ الرَّاصِدَهْ
يُلِيْنُ الطَعَامَ عَلَى ضِرْسِهِ ... وَلَو كَانَ مِنْ صَخْرَةٍ جَامِدَهْ
وَأَكْلُ زَادِ الْوَرَى كُلِّهُ ... وَلَكِنْهَا أَكْلَةٌ وَاحِدَهْ
وَلَو عَايَنَتْهُ جَحِيْمُ الإِلهِ ... لَخَرَّتْ لِمِعْدَتِهِ سَاجِدَهْ

إنّ المتأمل لهذه الأبيات لا يفوته ملاحظة قدرة ابن الرومي على التصوير " فهو ملكة متأصلة فيه ، وإذ كان شاعرا فقد عوّض الريشة والألوان الزيتية بلغته وأوزانه لرسم الصّور، فخلق فيها الشكل والحركة والحالة النفسية "[2] إذ يوحي الفعل (يخالف) بالحركة والمخالفة في السير ، بينما الفعل (تضمّهم) يوحي بحركة مناقضة وهي الجمع والتواصل ، وتمضي الحركة في الأبيات جميعها وتتغير في اتجاهاتها لتصبح في البيت الثاني حركة تربص وترصد بالعينين ، مشبها _ ابن الرومي _ حركة تربص أصحاب الطفيلي بتربص الحية لفريستها ، وهنا نجده يدخل إلى العالم النفسي لهؤلاء الطفيليين للكشف عما يدور في نفوسهم من غيظ

---

(1) ابن الرومي : الديوان ، ٢ / ٦٨٢ .

(2) أحمد خالد : ابن الرومي ، الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٧٧ ، ص ٣٠ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

ومقت لهذا الطفيلي الذي لا يتفق معهم إلا في الإسراع إلى الموائد ، ويضفي ابن الرومي على الحركة عنصر الصوت المتمثل في صوت أضراسه أثناء الطعام ، وفي هذه الصورة تتوافر العناصر كلها حيث حركة الأسنان ولونها وصوتها ، وأخيرا ينتقل إلى حركة الاستقرار الثبات التي يمثلها الفعل (خرّت) في البيت الأخير.

وفي هذه الأبيات إشارة إلى أنَّ الطفيليين كانوا يشكلون ظاهرة اجتماعية (إخوانه) لهم سلوكاتهم الخاصة ، فهم فئة اجتماعية أسهم الفقر والجوع والتفاوت الطبقي في تشكيلها ، ثمَّ تشير – هذه الأبيات – إلى شعور الآخرين تجاههم المتفاوت بين مقتٍ ونفورٍ ، أو ضحك وسخرية .

هـ – <u>نقد الشعراء للمتدينين :</u>

تفشَّت العديد من الأمراض الاجتماعية في العصر العباسي الثاني كالنفاق والرياء ، والبخل ، والسرقة واللصوصية ، وقد اتخذ البعض الدِّين لبوساً يحققون من ورائه غاياتهم ومآربهم الشخصية، وقد أطلق عليهم لقب " المتدينين " ممن يدّعون الدِّين ويتظاهرون به ولا يتحلون بأخلاقه ، أو ممن يعتنقون مذهباً دينياً ويتظاهرون بآخر .

وقد كان الشعراء العين المتربصة بهفوات هؤلاء المتدينين ، يكشفون زلاتهم ويفضحون قبح أفعالهم ، ومن ذلك ما قاله العطوي في أحد الرهبان : [1]

وَأَلْوَطُ مِنْ رَاهِبٍ يَدَّعِي ... بِأَنَّ النِّسَاءَ عَلَيْهِ حَرَامُ
يُحَرِّمُ بَيْضَاءَ مَمْكُورَةً[2] ... وَيُغْنِيهِ فِي الْبِضْعِ عَنْهَا غُلامُ
إِذَا مَا مَشَى غَضَّ مِنْ طَرْفِهِ ... وَفِي الدَّيْرِ بِاللَّيْلِ مِنْهُ عِرَامِ[3]

وَدَيْرُ الْعَذَارَى[4] فَضُوحٌ لَهُنَّ ... وَعِنْدَ اللُّصُوصِ حَدِيثُ تَمَامِ

---

(1) ابن فضل العمري ، شهاب الدين أحمد بن يحيى : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق عبدالله بن يحيى السريحي ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، ٢٠٠٣ : ١/ ٣٣١ .

(2) الممكورة : البيضاء المستديرة الساقين .

(3) العرام : الشراسة .

(4) دير العذارى : دير قرب بغداد على شاطئ دجلة .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تشير هذه الأبيات إلى بعض الممارسات في المجتمع العباسي كاللواط مثلاً ، لكن المفارقة هنا أن يصبح النموذج والمثال الإنساني _ رجال الدين _ ممن يمارسون هذه الأدواء الاجتماعية ويتظاهرون بالحشمة والوقار والتعفف .

ونلمح في البيت الأخير إشارة إلى استغلال دور العبادة للممارسات اللاأخلاقية من جهة ، وإلى انتشار ظاهرة اللصوصية في ذلك المجتمع من جهة أخرى ، ومن الطريف أن يكون اللصوص أكثر الناس معرفة بأخبار هؤلاء الرهبان .

وقد انتبه بعض الشعراء إلى المظهر الخارجي لهؤلاء المتدينين وعلاقاتهم الشكلية التي يقيمونها مع أفراد مجتمعهم ، ومن ذلك اتخاذهم اللحية علامة دالة على الصلاح ، وقد وقف ابن الرومي كثيرا عند أصحاب اللحى وسخر منهم في أبيات كثيرة، فيقول في أحدهم:[1]

وَلِحْيَةٍ يَحْمِلُهَا مَائِقٌ ... مِثْلُ الشِرَاعَيْنِ إِذَا أُشْرِعَا
تَقُوْدُهَا الرِّيْحُ صَاغِرَاً ... قَوْدَاً عَنِيْفَاً يُتْعِبُ الأَخْدَعَا[2]
فَإِنْ عَدَا الرِّيْحُ فِي وَجْهِهِ ... لَمْ يَنْبَعِثْ فِي إِصْبَعَا
لَوْ غَاصَ فِي البَحْرِ غَوْصَةً ... صَادَ بِهَا حِيْتَانَهُ أَجْمَعَا

كانت اللحية وما زالت علامة دالة على التدين والصلاح ، لكنها ربما _ كما يرى بعض الشعراء _ كانت تخفي مجونا وانحرافا عن طريق الهداية والصلاح ، فهذا ابن الرومي يهجو أحدهم ، كانت له لحية كثّة طويلة لكنه مائق ، ويخدع الناس من حوله باتخاذها لباسا يواري خلفه فساده وسوء خلقه ، وكعادة ابن الرومي فإنه يتخذ من الرسم الكاريكاتوري وسيلة لتصغير من يهجوهم وتحقيرهم وتشويه صورهم ، فالريح تقوده بلحيته وهي أشبه بشبكة إذا

---

(1) ابن الرومي : الديوان ٤/ ١٥٥٠.

(2) الأخدع: عرق في العنق وهو شعبة من الوريد .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

غاص بها في الماء جنت الخير الوفير ، وربما كان ابن الرومي يشير إلى تأثير هؤلاء المتدينين واتخاذهم التدين وسيلة يحققون بها أهدافهم المادية .

أمّا ابن المعتز فوقف عند عباداتهم _ كالصلاة مثلاً _ إذ يقول في أحدهم : [1]

يَا مَنْ يُصَلِّي صَلاةً فِيْهَا لإِبْلِيْسَ طَاعَهْ
إنْ كُنْتَ تَقْلُ شُكْرا فَالشُّكْرُ فِي ذَا رِقَاعَهْ

يعرض ابن المعتز في هذين البيتين فريضة دينية تبدّلت غايتها عند البعض ؛ فالصلاة التي يناجي فيها الإنسان ربَّه ، وينقطع فيها إلى عبادته ليكون عندها أقرب ما يكون إلى خالقه أصبحت على غير غايتها ، وتبدّل مفهوم الطاعة ، فبعد أن كانت طاعة لله أصبحت طاعة لإبليس ، وربما يكون ابن المعتز قصد بإبليس هنا _ وهو مصدر الغواية والضلال _ شخصا لديه شيء من السلطة أو الشأن .

أمّا جحظة البرمكي فيشير إلى مجون هؤلاء المتدينين ، فيقول في قسٍّ من الحيرة:[2]

إنَّ بِالحِيْرَةِ قِسَّاً قَدْ مَجَنْ فَتَنَ الرُّهْبَانَ فِيْهَا وَافْتَتَنْ
تَرَكَ الإِنْجِيْلَ حِيْنَاً لِلصِّبَا وَرَأَى الدُّنْيَا مُجُوْنَاً فَرَكَنْ

يوجّهُ جحظة البرمكي عدسته لمجتمعه بمختلف فئاته وطبقاته ، وقد كان للمتدينين نصيب من نقده ، فَإذا كان اللهو والمجون قد شاع في العصر العباسي لاسيما بين مترفي العصر ، فإنّ أصحاب الدِّين لم يسلموا من ذلك ، فهذا قسّ في الحيرة ماجن ، ابتعد عن كتابه " الإنجيل " وذهب في الدنيا يلتمس فيها دروب المجون واللهو، ولعل جحظة يشير إلى تناقض قد يكون بين الشخصية الدينية وسلوكها في بعض الأحيان ، فالقسّ رمزٌ ديني لإنسان صالح ، والإنجيل كتاب مقدّس يستمد منه أتباعه ما فيه صلاحهم ، لكن هذا القسّ سار في تيار اللهو عندما ابتعد عن دينه وترك تعاليم كتابه .

---

(1) ابن المعتز، أبو بكر محمد بن يحيى الصولي : الديوان ، تحقيق د. يونس أحمد السامرائي ، الطبعة الأولى ، دار الأرقم ، عالم الكتب ، بيروت ، ٣ / ٢٠٩.

(2) جحظة البرمكي : الديوان ، ص ١٦٨ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الثالث

- نقد القيم الاجتماعية

أولاً - الفقر والجوع

ثانياً - البخل

ثالثاً - النفاق والرياء

رابعاً - الغدر والخيانة

خامساً - الظلم والجور

سادساً - التَّكبُّر

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

أولاً – : الفقر والجوع .

لعل من أهم أسباب الفقر طبيعة النظام السياسي والاقتصادي السائد في بلـد مـا . فالنظام الجائر لا يشعر فيه المواطن بالأمن والاطمئنان إلى عدالة تحميه من الظلم والعـسف. ويستفحل الأمر إذا تضاعف العامل السياسي بعامل اقتصادي يتمثل في انفراد الحكم وأذيالـه بالثروة بالطرق غير المشروعة نتيجة استشراء الفساد والمحـسوبية، فيتعاضـد الاسـتبداد السياسي بالاستبداد الاقتصادي والاجتماعي ، وهي من الحالات التي تتسبب في اتساع رقعة الفقر [1].

وقد تضافرت العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العصر العباسي الثاني فتسببت في انتشار الفقر والجوع بين أفراد الطبقة العامة ، وكان لشعراء ذلـك العـصر دور كبير في متابعة هذه الظاهرة وتسجيل معاناة هذه الطبقة وآلامها وآمالها .

كانت الطبقة العليا ترفل بأثواب النعيم، وكانَ الغنى والترف، واللهو والمجون من أبرز ملامحها، في حين كان الفقروالجوع والبؤس والحرمان نصيب طبقة العامة، فأفرادها يشكون قلة الطعام والملبس، وسوء المسكن، وغيرها من الأدواء الاجتماعية. وقد انبرى بعض الشعراء يصورون معاناتهم، والآمهم وآمالهم بحياةٍ فُضلى. ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء الشعراء الذين عُنوا بتصوير حياة العامة ًهم _ غالبا _ من الشعراء الذين لم يحظوا برعاية الخلفاء والحكام، ولم يكونوا ممن اتصلوا ببلاط الخلافة ،وهم أقرب إلى عامة الشعب – الطبقة الكادحة – لذا فهم أقدرُ من غيرهم على تصويرها؛ فالشاعر الذي لازم الحكام والوزراء وحظي باهتمامهم ورعايتهم وعطاياهم أقدر على مدحهم وتصوير قصورهم ورصد ملامح

---

(1) عبدالرحمن محمد العيسوي : تحليل ظاهرة الفقر، دراسة في علم النفس الاجتماعي ، الطبعة الأولـى ، منشورات الحلبي الحقوقية ، بيروت ، ٢٠٠٩ ، ص ١٩٢ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

حياتهم، والشاعر الذي أصيب بفقد أحبائه كابن أو ابنه أو زوجٍ أو صديق أقدر من غيره على الرثاء، ومَنْ أصابته الدنيا بمصائبها وحرمته لذاتها، وعاش على فُتات أغنيائها، فلزمه الفقر والجوع، أقدر على تصوير معاناته من غيره؛ فصاحب العلة أدرى بعلّته، وهكذا كان شعراء الطبقة الدنيا الذين عانوا شظف العيش في العصر العباسي أقدر على تصوير ملامح الفقر والجوع والبؤس، وأمراض المجتمع المختلفة آنذاك.

ولو حاولنا تتبع أحوال الشعراء – في العصر العباسي الثاني – الذين تحدثوا عن الفقر لوجدنا جُلّهم يعانون الفقر والعوز، فهذا هو الشاعر العطوي * يتناول الفقر في مواضع عدة من أشعاره، إذ ينفي أن يكون الفقر عاراً على الإنسان،إنّما العارُ – في منظورة – أن يكون الإنسان ثرّياً وبخيلاً في آنٍ واحدٍ ، إذ يقول[1]:-

ما الفَقْرُ عَارٌ إنَّما الـــــــــــ ـــــعَارُ الثَّرا والبُخْـلُ

ثم يجسدُ العطوي شدّة فقره، وعِظَمِ معاناته في موضع آخر، إذ يقول[2]:-

أَنَا طَرْحٌ بَيْـنَ خَـــــــلاّ تٍ [3] حَدِيْداتِ النّصَالِ

بَـــــيْنَ دَيْـــــنٍ وَشِـــتَاءٍ وَعِيَـــالٍ واخْـــتِلالِ

يكشف العطوي في هذين البيتين عن مظاهر فقره التي نالتْ منه، موظفاً التصوير الفني للتعبير عن شدةِ معاناته، إذ يصور نفسه طريحاً يتلقى ضربات السيوف الحادة، ويصور الدَّيْنَ والشتاء وكثرةَ العيال والفقر بالسيوف الحادة النّصال، لا يستطيعُ مواجهتها.

---

(1) الأصفهاني : محاضرات الأدباء ٢/ ٥١٥.

(2) المصدر نفسه ، ٢/ ٥٠٥.

* العطوي : محمد بن عبدالرحمن بن عطية ، كنيته أبو عبدالرحمن ، ولد في البصرة ونشأ فيها ، عاصر أشهر علماء عصره ونهل عنهم ، كان فقيرا مملقا حتى وفاته .

– انظر :ابن المعتز : طبقات الشعراء ، ص ٣٩٥ ./ أبو االفرج الأصفهاني : الأغاني ، ٢٣ / ١٢٣ .

(3) خلاّت: جمع خَلّة، وهي الحاجة والفقر.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

إنّ أبوابَ السعادة تنغلق أمام العطوي من جميع الجهات، وتتكالبُ عليه المحنُ، لذا فهو في غاية الألم والحزن،وقد نجح في استخدامه التنوين في عدة كلماتٍ متتالية (طرحٌ – خلاّتٍ – دَيْنٍ – شتاءٍ – عيالٍ) إذ إنّ صوت التنوين والتنكير يوحيان بالحزن والأنين مما يُعانيه.

لقد استطاع العطوي في ظلّ هذه المحن أن يخبر الناس ويكتشف معادنهم، فأصبح خبيراً بهم وعنده أنباءٌ قيّمةٌ عنهم، فيقول [1]:-

عِنْدي مِنَ النَّاسِ أَنْبَـاءٌ وتَجْرِبَـةٌ ... على اخْتِلافِهِم في العَقْـلِ والـشّيَمِ
حَسْبي بِظِلّ جِدَارٍ مِـنْ مِهادِهِـم ... ومِنْ مِيَـاهِهِم مـا أسْـتَقي بِفَـمِ
كَمْ قَدْ أَهَابَتْ بيَ الدُّنيا فَقُلْـتُ لَهَـا ... إليكِ عَنّي ففـي أُذْنَـيَّ كالـصَّـمِ
إنّي قَنِعْـتُ بقـُوتٍ لا أُجـاوِزُهُ ... وَصَونِ وَجْهي عَنْ لا لا وَعَنْ نَعَـمِ
ولَسْتُ أَذْخرُ فَضْلَ القُوتِ عَنْ أَحَـدٍ ... في كُـلّ يومٍ يَجِـيءُ اللهُ بـالطَّعْمِ

إن مطالب العطوي في هذه الحياة البائسة لا تتعدى قوت اليومِ الواحد، وقد استطاعَ أن يحقق سعادةً من نوعٍ آخر، سعادةً نفسية لا ماديةً، تتمثل في صون كرامته وحفظ ماء وجهه عن طلب الآخرين، وقد ساعده على ذلك إيمانه بالله الذي يرزق عبده.

ومن أولئك الشعراء أبو هفّان الذي يكشف عن صورة فقير المجتمع العباسي في العصر الثاني إذ يقول[2]:-

١. فإنْ يَكُ أَثوابي تَمَزَّقْنَ عَنْ بِلَى ... فَإنّي كَنَصْلِ السَّيْفِ في خَلَقِ الغِمْدِ

إنّ أبا هفـّان وإن بليت ثيابه ورثّت، فإنّ ثقته بفاعليته في المجتمع وقدراته الجسدية والعقلية لم تَبْلَ ولم تَهُن، ولا يقلل فقره وسوء حاله من رجولته وبأسه؛ فثوبه الرّث يخفي تحته

---

(١) القرطبي : بهجة المجالس ٢/ ٣٠٦.
– قيل إنّ الأبيات لأبي العتاهية، وقد أخَلّ ديوانُ أبي العتاهية.
(٢) المخزومي : المناقب والمثالب ، ١٠٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إنساناً صاحب عزْمٍ وبأسٍ وشجاعةً، كالسيف الحادّ القاطع، لا يقلل خَلَـقُ الغمد من قيمته أو حِدّته، فالسيفُ يظلُّ سيفاً وحقيقته لا تتغير ولا تقلل القشور من قيمته.

إنّ الذات هنا تحتفظ بكينونتها رغم قسوة الحياة، وتظل تسعى إلى السعادة والمثالية، إنها ذات تنطلق من داخلها ولا تنظر إلى نفسها من الخارج.

يمثل بيت أبي هفّان نوعاً من التصالح والتعايش مع الذات التي تعاني التباين والتناقض في هذا المجتمع حيث الفقر والغنى ، والتديّن والفساد ، والعلم والجهل .

ومن أوجه معاناة الفقير – آنذاك – ضيق المسكن وتواضعه، وكثرة العيال، ومن ذلك قول أبي علي البصير [1]:-

١. بَيْتٌ جرَى المَاءُ فِيْهِ مِـنْ أَسَـافِلِهِ ومِنْ أعَالِيهِ حَتى سَـاخَ مُنْطَلِقَـا
٢. كَـأَنَّني وَعِيَـالِي فِـي جَوانِبِـهِ طُيُـورُ مَاءٍ سِكَّرٍ [2] قَدِ انْبَثَقَـا

لقد شَيَّد خلفاء العصر العباسي الثاني ووزراؤهم وولاتهم قصوراً امتلأت بالخدمِ والجواري، وكان للخليفة غير قصر، ولكل قصرٍ نمط هندسيّ فيه من الروعةِ والجمال ما فيه، تَحفّهُ الحدائق الغنّاء، وتفيضُ جنباته بأفخر الأنواع : مجالسَ وأطعمة، وحدائق وبركاً، تثيُر الدهشة وتنبي عن بذخٍ وثراء تنعم فيه الطبقة العليا من المجتمع.

يقابل هذه القصور الشاهقة الغنّاء بيوت تآكلت جدرانها، وتداعت أركانها، واختنقت غرفها حتى أصبحت غرفة أو تزيد قليلاً، توشّحت بالبؤسِ، وتوشّمت بالفقر والجوع، واتخّذت من الصبر ثوباً تهتدي به وتتقي حرّ الجوع والبؤس، قانعةً راضية بأصحابها الذين قنعوا بها، فهذا أبو علي البصير يصف بيته الذي يؤيه، ولم يقهِ بردَ الشتاء، بأن قد جرى الماءُ من أسفله

---

[1] الأصفهاني : محاضرات الأدباء : ٥٥٩/٤.

[2] السّكر: ما يُسَدُّ بهِ النهرُ ونحوه.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

ومن سقفه، فراحَ هو وعياله يسدّون فتحاته وشقوقه، وكأنّهم طيور ماءٍ حطّت على منافذ ماءٍ جارٍ، والبيتان يكشفان عن فقرِ أبي علي البصير من جهةٍ، وكثرة عياله من جهةٍ أخرى. وإذا كان البيت هذه حاله من تَداعٍ لسقفه ِ وتشقّقٍ لحيطانه، فما عساه يكون طعامه وملبسه؟! إنّ نبرة الحزن تخيّم على بيت أبي علي البصير، وترفض شكواه أن تظلّ داخل الجدران المتشققة حتى نجدها تنفذ من خلالها ليسمعها مترفو العصر وسادته.

كما نلحظ في هذين البيتين تكرار حرف النون والتنوين عشر مرات ، وهذا يوحي بتعاظم صوت الأنين ، إلى جانب تكرار حرف العين (أعاليه _ عيالي) وهو حرفٌ يوحي بالتوجع والألم .

وإذا أمعنا النظر في هذين البيتين لوجدنا تكرار حرف المد بشكل لافت للنظر (جرى – ماء –أسافله– أعاليه– ساخ– منطلقا– عيالي ....) وكأنّ الشاعر بهذه الحروف استطاع أن يطلق أهاته المكبوتة فيسمعها العالم الخارجي .

ويقول في موضعٍ آخر[1]:-

١. مَنْ تَكُنْ هَذهِ السَّماءُ عَلَيْهِ نِعْمَةً أَوْ يَكُنْ بِهَا مَسْرُورَا
٢. فَلَقَدْ أَصْبَحتْ عَلَيْنَا عَذَابَاً وَلَقِيْنا مِنْهَا أَذىً وَشُرُورَا
٣. صَيَّرَتْ مَنْزِلِي عَلَيَّ خَرَابَا وَعَادَتُهَا أَنْ تُخَرِّبَ المَعْمُورَا
٤. أيُّها الغَيْثُ كُنْتَ بؤْسَاً وفَقْرَاً لِي وَلِلنَّاسِ حِنْطَةً وشَعِيْرَا

إذا كانت السّماء محط الأمل والرجاء للإنسان لا سيمّا الفقير – ينتظر عطاءَها وخيرها – فإنّ مَنْ يمتلك بيتاً متهاوي الأركان كبيت أبي علي البصير ستكون– هذه السماء – شراً عليه بما تنزله من مطرٍ يخّرب بيته، فيغدو المطر بالنسبة لأبي علي البصير مصدر شرٍ ودمار

---

(١) الثعالبي : الظرائف واللطائف ، دار المناهل ، بيروت ،١٩٩٢ : ص٢٢٠/ الثعالبي : خاص الخاص (الأبيات ١-٢-٣)ص١٢٦/ الثعالبي : الإعجاز والإيجاز ، دار صعب ، بيروت ، ص٢٦٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library- Yarmouk University

وخراب، ومن اللافت للنظر أنّ أبا علي البصير استخدم لفظة المطر بدلالتيها السلبية والايجابية، لكن حظه من المطر كان الخراب والدمار ،وكأنه يرجع السبب في ذلك إلى عوامل أخرى خارجة عن إطار الطبيعة ،إذ أن السبب يكمن في ضعف بنيان بيته وتشقق جدرانه، وفقره، بدليل أن من كانت بيوتهم منيعة أنبت الله بها الحنطة والشعير .

إنّ هذه النتيجة السلبية للغيث التي حلّت بأبي علي البصير تتيح لنا تصوّر بيته وأركانه، ثم ملبسه وطعامه، إنّ بيتاً متهاوياً كهذا البيت لا بدّ أنّ أهله عراة وجياع، زاد خراب بيتهم بؤسهم وحسرتهم. وإنْ كانت السماءُ أمطرت خيراً على غيره ، فماذا أمطرت على أبي علي البصير؟ يقول[1]:-

١. رَحْمَةٌ صُيِّـــرَتْ عَلَــيَّ عَـذّابَاً تَرَكَتْ مَنْزِلي خَـرَابـاً يَبَابَـــا
٢. لَمْ تَـدَعْ لـي بهَـا وَلا لِعِيَـالِي سَقْفَ بَيْتٍ تكُفُّ عَنّـا الـسَّحَابَا
٣. أمْطَرَتْنَا خَلْفَ مَا أمْطَـرَتِ الـــ ـــنّاسَ لَبْناً وَجَنْـــدلاً وتُرابـا

لقد أمطرت السماء أبا علي البصير خلاف ما أمطرت الناس به ، لقد أمطرته اللبن والجندل والتراب المتهاوي من سقف بيته المتآكل فما عَاد له ولا لعياله سقفٌ يحميه ويحميهم.

أما أبو العيناء فقال[2] :

١. الحَمْـدُ للهِ لَيْسَ لي فـــرَسٌ وَلا عَلَى بَـابِ مَنْزِلـي حَـــرَسُ
٢. ولاَ غُـلامٌ إذَا هَتَفْـــتُ بـــهِ بَادَرَ نَحْـوي كَأَنَّـــهُ قَبَـــسُ[3]
٣. ابْني غُلامي وَزَوجَتِـي أَمَتِـي مَلّكَنِيْهَا المُـــلاَّكُ وَالعُـــرُسُ[4]
٤. غَنَيْتُ باليَأْسِ واعْتَصَمْتُ بِـهِ عَـنْ كُـلِّ فَرْدٍ بِوجَهْـــهِ عَـبَسُ
٥. فَمَـا يَرَانِـي بِبَابِـــهِ أبَـدَاً طَلْقُ المُحَيَّا سَـمْحٌ ولا شَـــرِسُ

---

(١) د. يونس أحمد السامرائي: شعراء عباسيون، الجزء الثاني، ص ٢٣٠.
(٢) أبو العيناء: ديوان أبي العيناء ونوادره ، ص٣١.
(٣) قبس: شعلة من نار
(٤) العُرُسُ: طعام الوليم

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

يرسم الشاعر من خلال هذه الأبيات الشعرية صورتين متناقضتين : صورة إنسان غني، يتمتع بملذات الدنيا وبهجتها، ويحظى بملكية أشياءَ كثيرة، إذ يملك فرساً – رمز الرجولة والشجاعة والفروسية – ، وحرساً – رمزَ السيادة والنفوذ والسُّلطة – ، وغلاماً خادماً له – رمز رفاهية العيش وفوقية السيد على خادمه – وكل هذه الأشياء تعكس رَغداً، وترفاً، وبذخاً، وسعادة ينعم بها هذا الإنسان، فالحياة أعطته مباهجها، وفتحت له أبواب سعادتها.

والصورة الثانية صورة إنسان فقير مجرد من كل مظاهر الغنى ، فلا فرسٌ ولا حارسٌ أمام بيته ، ولا خادمٌ ،وبالتالي لا مالٌ ولا ملبسٌ أو طعامٌ .

إذن قدّم أبو العيناء بعدسته الدقيقة هاتين الصورتين، صورة إنسان غني محفوف بملامح الغِنى، وصورة إنسان فقير محروم ومجرّد من كل مظاهر الغنى.

وواضحٌ أنّ أبا العيناء هو ذلك الفقير الذي حوّر الفقر غِنىً حينما جعل ابنه غلاماً، وزوجته أمةَ له، وبالتالي فهو يمتلك من مظاهر الغنى وأسبابه ما يمتلكه الغني، لكنَّ السؤال هنا: هل هذا الغنى يصل حَدّ الحقيقة؟

إنّه غِنى من لا غِنى له، إنّه غِنىً يغيّر ملامح الحقيقة، كما يقول أبو العيناء بأن اليأس هو الغنى الحقيقي الذي أصابه واعتصم به عن باب كل غَنّي عبوس، وقد استغنى بيأسه فما طرق باب إنسان غني كريم ولا شرسٍ عبوس، وهذا ما أكدّه مفتخراً بنفسه رغم فقره في قوله[1]:-

١. أَلَمْ تَعْلَمِي، يا عَمْرَكِ اللهَ، أنَّني كَرِيْمٌ عَلَى حِيْنِ الكِرَامُ قَلِيْلُ
٢. وإنّي لا أُخْزَى إذا قِيْلَ مُقْتِرٌ جَوَادٌ، وأُخْزَى أَنْ يُقَالَ بَخِيْلُ

(1) أبو العيناء: ديوان أبي العيناء ونوادره، ص ٤٤.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library- Yarmouk University

إذا كان الفقرُ والجوعُ صفة حلّتْ بالإنسان رغماً عنه، لظروف وأسباب سياسيةٌ أو اقتصادية أو اجتماعية، لا شأنَ له بها، وخارجة عن إرادته كفردٍ في مجتمع له أنظمته وقوانينه، فهل يكون البخل كذلك ويقع موقعه؟ بمعنى أ يكون البخل رغماً عن صاحبه أم هو نتيجة لأسبابٍ كثيرة كالفقر والجوع مثلاً؟!

إن البخل ينبع من داخل الإنسان نفسه وسلوكاته مع نفسه ومع الآخرين، بفعل نوازع داخلية وعوامل نفسية لا تخرج عن إطار ذاته. أمّا الفقر والجوع، فالأمر على خلاف ذلك، فهما نتيجة لأمرٍ خارجي وظروف اجتمعت لتغيرَ في عالم الإنسان الفقير مأكلاً، ومشرباً، وملبساً، ومسكناً، تاركة في نفسه الحزن والأسى والشكوى، فالصفات الإيجابية والحميدة أصيلة في النفس لا تتحول في نفس المرء بين عشية وضحاها ، أو في حال يُسرة وعسرة، كالكرم والعفّة، والصّدق، والتقوى، وغيرها.

وهذا ما أكّده أبو العيناء حينما خاطب نفسه مفتخراً، لا صاغراً أو منهزماً، بأنه كريم في زمنٍ قَلّ فيه الكرامُ، إذ استطاع رغم قسوة الظروف وضيق المعيشة وسوء الحال أن يحتفظ بأصالة ما لديه من قيم كريمة تبعث في النفس الغِنى والرضا، ولا يجدُ عاراً أن يصفه الناسُ بالفقر وقلة ذات اليد، وإنما العار أن يوصف بالبخل.

قد يكون الفقر سبيلاً إلى السعادة إذا ولّدَ في نفس المرء القناعة والرضا، كما قال ابن بسام[1]:-

١. بَيْتِي أحَبُّ إلَيَّ مِنْ بَيْتِ الخَلِيفَةِ وَالوَزِيْرِ
٢. فَإذَا أكَلْتُ كُسَيْرَةً وَشَرِبْتُ مِنْ مَاءِ الغَدِيْرِ

---

(١) الثعالبي ، أبو منصور عبدالملك محمد إسماعيل : رسائل الثعالبي الكناية والتعريض ، دار صعب ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٧٩

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

٣. فَأنَا الخَلِيْفَـــةُ لا الَّـــذِي يُعْلَى بِهِ أعْلَـــى الـــسَّرِيْـــرِ
٤. إنّ القَلِيْـــلَ إذَا صَـــفَا وكَفَى يَنُـــوبُ عَـــنِ الكَثِيْـــرِ

يفضّل ابن بسام بيته على بيوتِ الخلفاء والوزراء، فهو قانعٌ وراضٍ، بما قسمه الله له.

وإذا تعددت موائد الخليفة وتنوعت صنوف شرابه، فإنّ ابن بسّام يجد من نفسه سـلطاناً حقيقياً عندما يأكل كسيرة خبز ويشرب من ماء الغدير، لأن القليل في نظره إذا صفا وكفـى ينوبُ عن الكثير.

وفي هذه المقطوعة الشعرية تعلو نبرة الفخر بالذات والاعتزاز بها، فالفقر لا ينقص من شأن المرء شيئاً، بل هو سيد نفسه، ولم يخضع لها يوماً ، ولم ينشغل بارضاء رغباتها.

إذا أمعنا النظر في هذه الأبيات فإننا نجد إشارة إلى طبيعة بيـوت الفقـراء ومـأكلهم، فبيوتهم متواضعة، وضيقّة، ومهترئة، أما طعامهم، فأقل القليل، يكاد ينحصر فـي الخبـز إن وجد، أما شرابهم، فلا يتجاوز الماء، وبالمقابل، فإنّ سادة العصر يرفلون بحياة هانئة رغيدة، حيث يسكنون القصور، ويأكلون أشهى الأطعمة، ويشربون صنوفاً متعددة من الأشربة.

ثم نلمح في هذه الأبيات قيمة القناعة والرضا بالقليل لدى فقـراء العـصر ومحتـاجيهم آنذاك، نفوسهم قانعة وسعيدة برزقها، بينما السادة والأغنياء – وإن اجتمعت لـديهم أسـباب السعادة المادية – فإنّهم يفتقدون للسعادة الحقيقية .

ولا ينسى الفقير أن يحمدَ اللهُ، إذ يجد في فقره راحة من تبعات الحياة ومغرياتها، وفـي ذلك يقول جحظة البرمكي [1]:-

١. الحَمـدُ للهِ لَيـــسَ لـي كَاتـبْ ولاَ علـى بَـابِ مِنْزِلـي حَاجِـبْ
٢. ولا حِمَـارٌ إذَا عَزَمْـتُ عَلَـى رُكُوبِـهِ، قِيْـلَ: جَحْظَـةُ رَاكِـبْ

(١) جحظة البرمكي: الديوان، ص ٣٥.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٣. ولاَ قَمِيـــصٌ يكـــونُ لِـــي بَـــدَلاً مَخَافَـــةً مِـــنْ قَمِيْـــصِـــيَ الـــذّاهِبْ

٤. وَأُجْـــرَةُ البَيْتِ فَهْـــيَ مُقْرِحَـــةٌ أجْفَانَ عَيْنِـــيَّ بالوَابِـــلِ الـــسّاكِبْ

٥. إنْ زَارَنِي صَـــاحِبٌ عَزَمْـــتُ عَلَـــى بَيْـــعِ كِتَـــابٍ لِـــشِبْعَةِ الـــصّاحِبْ

٦. أَصبَحْـــتُ فِـــي مَعْـــشَرٍ تَـــشَمَّتُهُمْ فَـــرْضٌ مِـــنَ اللهِ لازِبٌ[1] واجِـــبْ

ليس لجحظة كاتب، ولا على بابه حاجب، فهو لم يكن مـــن أغنيـــاء عـــصره، ولا مـــن أصحاب السلطة، ولعل التجرد من الغني والسلطة أتاح له التأمل الذاتي والتحرر من متاعبهما، ويبلغ التجرد من مظاهر الغِنى ألا يملك جحظة حماراً يركبه وينقله من مكان لآخر، ولا بدلاً لقميصه، كذلك فهو لا يملك بيتاً إنما بيته مستأجَرٌ، ولم يكن قادراً على دفع أجَرته، وعيونـــه مقرحة من شدة الحزن والبكاء لضيق الحال وصعوبة العيش.

والمصيبة تعظم لدى جحظة حينما يزوره صديقٌ، فلا يعتذر منه عُدْماً، بل يجد أن القيام بواجب الضيف وإكرامه فرضٌ عليه، فيضطر إلى بيعِ كتابٍ من كُتبه ليشتري لضيفه ما يسدّ جوعه، وقد أصبح محط شماتة الآخرين لشدة فقره وسوء حاله.

إنّ الباحثة لتستشف من هذه المقطوعة الشعرية أن بعض بيوت الفقراء والعامة مستأجرة، بل إنّهم في بعض الأحيان لا يقدرون على دفع أجرتها ، وتستشف كذلك الطبائع الأصيلة في إكرام الضيف ولو كلّف الأمر صاحب البيت بيع بعض أشيائه الخاصة ، وأخيراً تجد الباحثة أنّ أفراد هذه الطبقة المحرومة – رغم فقرهم– كانوا على قدرٍ من الثقافة والاهتمام باقتنـــاء الكتب ومطالعتها.

وإذا كان جحظة قد جرّد نفسه من كل الممتلكات، فإنّه يحمّل الطبقة العليا أسباب تعاســـة الفقراء وعامة الناس، ، فالأولى تنعمُ بالرفاهية، والثانية تعاني العَوَز.

---

(١) لازب: ثابت

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

وكان جحظة البرمكي من الشعراء الذين لمسوا الفوارق الاجتماعية في العصر وفصّل في معاناة الطبقة المحرومة، بل وصف طعامهم وشرابهم، وملبسهم، ومسكنهم، وهو يحمِلُ على الأغنياء والبخلاء وغيرهم ممن ينعمون بالغِنى والترف، فيقول[1]:-

١. إنِّي رَضِيْتُ مِنَ الرَّحِيْقْ بِشَرَابِ تَمْرٍ كَالعقيقْ
٢. ورَضيْتُ مِنْ أكْلِ السَّمِيـ ـذِ[2] بأكْلِ مُسْوَدِّ الدّقيقْ
٣. و رَضِيْتُ مِنْ سَعَةِ الَصُّحو نِ بمِنْزِلٍ ضَنْكٍ وضِيْقْ
٤. وجَعَلْتُ تَغْرِيدَ الحَمَا مةِ مَنْزِلي عَنْدَ الشَّروقْ
٥. فَغَدوتُ كِسْرَى صَاحِبَ الـ ـإيْوانِ وَالعَيْشِ الأَنِيْقْ
٦. وَحَجَبْتُ نَفْسِي عَنْ حُجَا بِ البَاخِلِيْنَ ذَوي الطّرِيْقْ
٧. القَاطِعِيْنَ، مَخَافَةَ الـ ـإنْفَاق، أَسْبَابَ الصَّدِيْقْ

تشمل هذه المقطوعة الشعرية المتطلبات الأساسية للعيش ونوعية كل منه لدى جحظة ، مصدّراً هذه المتطلبات بالرضا والتوكيد عليه، ومنها : - الشراب، إنه شراب لا يتعدى النوع الواحد، شرابُ التمر لا يعرف مُذاقاً غيره، وهو قانع وراضٍ في ظاهر الأمر، ناقمٌ وساخطٌ في باطنه، أمّا طعامه فهو كذلك لا يقبل التعدد، الدقيق لا غيره، وليته كان جيّده، بل إنه مُسْوَّد الدقيق، ومن كان هذا شرابه وطعامه، فكيف سيكون منزله؟! إنّه منزلُ ضَنِك وضيق، وربما يوحي ضيقه عن خرابه، وضيق نوافذه وأبوابه.

ومع ذلك الضنك والضيق والجوع والفقر، فإن جحظة يُعلن رضاه بواقعه المرير ، فإن امتلك أصحاب الطبقة العليا النفوذ والسلطة والمال، فقد امتلك جحظة ما لم يمتلكوه، إذ امتلك القناعة والرضا، وعدم احتياجه إليهم، وكأنها قصرٌ آواه وحفظ عياله.

---

(١) جحظة البرمكي: الديوان، ص ١٣٠.

(٢) السميذ:- السميد، الطعام وهي بالدال غير المعجمة.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

ولقد عمدت الدارسة، فيما سبق ، إلى قراءة الأبيات الشعرية قـراءة أفقيـة، وتجـد إمكانية قراءتها عمودية، إذ تجد فيها صورتين متقابلتين باللفظ والمعنى، ويمكن تمثيل القراءة بالرسم التالي[1]:-

صورة الأغنياء		صورة الفقراء
١. إنّي رَضِيْتُ مـن	الرَّحيـقْ	بشَـرابِ تَمـرٍ كالعقيـقْ
٢. ورَضيْتُ مِـنْ	أكْـلِ السَّميـ	ـذِ[2] بأكْلِ مُسْوَدّ الدّقيقْ
٣. و رَضِيْتُ مِـنْ	سَعَـةِ الصُّحو	ن بمِنـزِلٍ ضَنْـكٍ وضِيْقْ

أما القناعة والرّضا فتمثلها الكلمات الأولى من كل بيت:-

١. إنّي رَضيْتُ ...
٢. ورَضيَـتْ ....
٣. ورَضيْتُ .....
٤. وجَعَـلْـتُ ..... [3]
٥. فَغدَوْتُ .... [4]
٦. وَحَجَبْتُ ..... [5]

إنّ هذه القراءة وما سبقتها تدل على وعيِ وإدراك الشاعِر بما يقّدم من صـورٍ لفئـات مجتمعه وطبيعة حياة كل فئة ، ومن ثم تلك الثنائية الضدية بين فئتي الأغنيـاء والفقـراء وانعدام العلاقات الاجتماعية بينهما . وإن كانت هذه الأبيات تشير إلى رفض الشاعر التبـاين الطبقي في مجتمعه فإنّها تشير كذلك إلى رغبته في إقامة مجتمع مثالي تلغى فيـه الطبقيـة والفوارق الاجتماعية ، فالرضا هنا مقتصر على فئة الفقراء دون الأغنياء .

---

(١) جحظة البرمكي: الديوان، ص ٩٤.
(٢) المقصود: ليس عندي خدمُ أناديهم بأسمائهم.
(٣) الشواهين: الصقور وتستخدم للصيد، وهي رياضة الأثرياء.
(٤) الوزان: من يَزنون البضائع و الدنانير وهم من عمال التجار وأصحاب الأموال.
(٥) البدور: جمع بذرة وهي صرّة فيها عشرة الآف درهم.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

وإذا كان الفقر والجوع أوجبا الرضا والقناعة، فإنهما يوجبان الحمدَ من منظور جحظة البرمكي، فيقول:-

١. أَحْمَدُ اللهَ لمْ أَقُلْ قَطُّ: يا بَدْ ... رُ ويا مُنْصِفاً ويا كَافُورُ
٢. لا، ولا قُلْتُ: أَيْنَ أَيْنَ الشَّواهِيـ ... ـنُ وَوَزَّانُنَا وَأَيْنَ البُدُورُ
٣. لا ولا قِيْلَ: قَدْ أَتاكَ مِنَ الضَّيْـ ... ـعَةِ بُرٌّ مُوَفَّرٌ وشَعِيرُ
٤. وَأَتَاكَ العَطَاءُ بالنَّدِّ[1] لَمَّا ... قِيلَ لِي إنَّ فِي الخَزِيْنِ بَخُورُ
٥. أَنَا خِلْوٌ مِنَ المَمَالِيكِ والأمْـ ... ـلاكِ جَلْدٌ على البَلا وَصَبُورُ
٦. لَيْسَ إلاّ كُسَيْرَةٌ وَقَدِيْحٌ ... وخُلَيْقٌ أَتَتْ عَلَيْهِ الدُّهُورُ

يحمد جحظة الله على فقره وقلة حيلته، ويحمده كذلك على تجرّده من مظاهر الغنى، وهو يعرض لما يتمتع به هؤلاء الأغنياء من مَتاعٍ وثراء، فالخدم كُثر يحفونهم من كل جهة، وخواطرهم خُلْوٌ من الانشغال بمتاعب الحياة وتأمين لقمة العيش، هم يتمتعون بوسائل اللهو والتسلية ، كرياضة صيد الصقور، وتجري الأموال والدراهم بين أيديهم، ويمتلكون الضياع التي تجني الحنطة والشعير وغيرها من الخيرات.

أما جحظة – الذي يمثل حياة البائسين والفقراء في مجتمعه- فهو لا يملك الضياع والأموال، لكنه يملك الصبر والجلد على هذه الحياة البائسة، وليس له من طعامه وشرابه إلا ما يسد رمقه، وقد وظّف جحظة اللغة في التعبير عن عيش الكفاف وقله رزقه، إذ عمد إلى صيغة التصغير ، فخبزه كُسَيْرة، وشرابه قُديح، وثوبه خُلَيق مضت عليه دهور.

يقيم جحظة مفارقة شديدة بين الصورتين حيث شدة الغنى والترف وشدة الفقر والحاجة، مضمناً هاتين الصورتين رفضاً للفوارق الاجتماعية تلك، ونقمة على الطبقة العليا لما تنعم به دون الفقراء .

---

(١) النَّدّ: البخور.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library- Yarmouk University

ومن الجدير بالذكر أنّ الفقراء والمحتاجين كلما ازدادت حاجتهم وبؤسهم ازدادت عفَـتهم واعتدادهم بأنفسهم، وتجلّدوا بالصبر ليقووا على مصائبهم، فيقول جحظة[1]:-

١. رُبَّ فَقِيْرٍ أعَـزُّ مِـنْ أسَـدٍ وَرُبَّ مُثْرٍ أذَلُّ مِـنْ نَقَـدِ

ويضاف إلى فقرهم ومعاناتهم غلاء الأسعار التي تضيّق عليهم الخناق، فيكتفون بـالنظر لما على موائد الأثرياء وما بين أيديهم، وقد شَكّلَ الفقر وما تبعه من مظاهر اجتماعية فلسفة ورؤى لدى بعض الشعراء استقوها من حياتهم وما شهدوه من تناقضات، فقد قال أحدهم في غلاء الأسعار[2]:-

١. وإذَا غَلا شَيٌ عَليَّ تَرَكْتُـهُ فَيَكُونُ أَرْخَصَ مَا يَكُونُ إذَا غَلاَ

إنه يترك الأشياء ويتجاوزها، ولعلّه هنا يروّض نفسه على الكفاف والقناعة، ويوافقه جحظة البرمكي في موقفه هذا مُستثنياً شيئاً واحداً لا يمكن الاستغناء عنه وهو الدقيق، فيقول[3]:

١. إلاّ الدَّقِيْقَ فإنّهُ قُوْتٌ لنـا فإذَا غَلاَ يوماً فقد نَـزَلَ الـبَلا

إنّ الدّقيق قوت الفقراء الوحيد، فإذا غلا فقد حلّتْ مصيبةٌ بهم، تهدد حياتهم، في حين تتعدد أصناف أطعمة الأغنياء وشرابهم.

لقد أصاب الفقرُ عامة الشعب حتى علماءه وفقهاءه، فهذا منصور الفقيه يدعو ابنته أن تصبر على الفقر والحاجة قائلا لها [4]:-

١. بُنَيّةُ لا تَجْزَعِي وَاصْبِـري عَسَاكِ بِـصَبْرِكِ أنْ تَظْفَـرِي

---

(١) جحظة البرمكي: الديوان، ص٨١

(٢) النَقَدِ: صغار الغنم أو يقال هو أذل النقد: الشُّغَّلُ من الناسِ.

(٣) جحظة البرمكي: الديوان، ص١٤٢.

(٤) د.عبدالمحسن فراج القحطاني : منصور الفقيه حياته وشعره ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص١٠٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

٢. فَلَو نَالَ يَوْماً أَبُــوكِ الغِنَــى كَسَاكِ الدَّبِيْقِيَّ وَالتُّــسْتَرِيّ[١]

٣. وَلَكِنْ أَبُوكِ اُبْتلــى بــالعُلُومِ فَمَــا أَنْ يَبِيْــعُ ولاَ يَــشْتَرِي

يعي الإمام الفقيه رغبات ابنته وما يشغلها وقريناتها من تزّين ومن اقتناء الأثواب الفاخرة والجميلة، داعياً إيّاها أن تتسلح بالصبر لعدم مقدرته على تحقيقه تلك الرغبات، فهو لا يملك إلاّ علومه التي لا تجلب لهما الطعام والثياب، ولا سبيل لهما إلاّ الصبر، فهــو طريــق الأمل والفرج والرزق. وفي هذه الأبيات للإمام الفقيه إشارة إلى حَال علماء العصر وعــدم تقدير الدولة لجهودهم والاهتمام بهم، وتبذير أموالها في مسالك اللهو والطرب والمجون.

١- التُّستُريّ : نوع من أنواع الحرير .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ثانياً:- البخل

تناولت الدراسة في الفصل السابق ظاهرة البخل، فوقفت على صور البخلاء وملبسهم ومأكلهم ثم مشربهم وسلوكاتهم، أما في هذا الفصل فستتناول الدراسة البخل قيمة خلقية، حلّت محل الكرم قديما ، وموقف المجتمع منها.

إنّ البخل من الصّفات السلبية الممقوتة في كل الأزمان؛ لما يولّده من قطيعة وحقد وكراهية بين أفراد المجتمع، وقد سخر الشعراء من البخلاء وكشفوا عن نفسياتهم ،وهذا علي بن الجهم يرفض أن يوصف بالبخل كقيمة اجتماعية سلبية ،فيقول [1]:

١. أعَاذِلَ لَيسَ البُخْلُ مِني سجِيَّةً ولَكنْ رَأَيْتُ الفَقْرَ شرَّ سَبِيلِ
٢. لَمَوْتُ الفَتى خَيْرٌ من البخْلِ للفَتَى وللَبُخْلُ خيرٌ مِنْ سُؤالِ بَخِيْلِ
٣. لَعَمْرُكَ ما شيءٌ لِوَجْهِكَ قِيْمَةُ فَلا تَلْقَ مَخْلُوقاً بِوَجْهِ ذَلِيلِ
٤. ولاَ تَسْأَلَنْ مَنْ كَانَ يَسْأَلُ مَرَّة فَلَلمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ سَؤَالِ سَؤُولِ

يشير علي بن الجهم إلى أنّ البخل سجية وطبع في الإنسان لا يستطيع أن يتخلص منه، بينما الفقر له أسبابه التي متى زالت زال عن صاحبه ، وهنا يفرّق علي بن الجهم بين البخل والفقر من جهة ، ويشير إلى شيوعهما في مجتمعه من جهة أُخرى .

وقد امتدَّ البخلُ ليتجاوز العالم الإنساني ويصل أضراره وآثاره السلبية عالم الحيوان، كشاةِ سعيد[2] التي لحقها الهزال لبخل سعيد عليها ،قال الحمدوي[3]:

---

(١) علي بن الجهم، الديوان، ص ١٧٤.

(٢) كان المثل يضرب بشاة منيع ثم تحول المثل إلى شاة سعيد لكثرة ما قال الحمدوي فيها وتسييره المُلح في وصف هزالها.

(٣) الثعالبي : ثمار القلوب: ص ٣٧٥ – ٣٦٧/ النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب :نهاية الأرب في فنون الأدب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٠ / ١٣١

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

١. مَا أرى إنْ ذُبِحَتْ شاةُ سَعِيدٍ حَاصِلاً فِي يَدَيَّ غَيْرَ الإهَابِ

٢. لَيْسَ إلاّ عِظَامُهَا لَو تَرَاهَا قُلْتَ هَذَا أرازِنُ فِي جِرَابِ

٣. مِنْ خِسَاسِ الشّاءِ اللّواتي إذَا مَا أبْصَرُوهُنّ قِيلَ شَاءُ النَّهَابِ

٤. ستَرَاهُنَّ كَيْفَ يَبْصُقْنَ فِي وَجْـ ـهِ المُضَحِّي بِهِنَّ يَوْمَ الحِسَابِ

٥. كَمْ تَغَنَّتْ لَدَيْهِمِ حِيْنَ لَمْ تُطْـ ـعَمْ ولَمْ تَرْعَ غَيْرَ مَحْضِ التُّرَابِ

٦. رَبِّ لاَ صَبْرَ لِي عَلَى العَذَابِ قَدْ بَرَى مُهْجَتِي وَأَبْلَى شَبَابِي

إنّ بخل سعيد فاق الحدّ حتى أصاب شاته التي لم يبقَ منها إلاّ الجلدُ والعظم، فلا خير فيها يرتجى، ومن المؤسف أن تكون أُضحية، علماً بأن من شروط الأُضحية السّمنة وخلوها من العيوب، لكنّ شاة سعيد وأمثالها ستبصق في وجه مضحيها يوم القيامة.

وقد استغرقت شاة سعيد وطيلسان ابن حرب معظم أشعار الحمدوي ليوجه من خلالها نقداً إلى الأغنياء الأشحاء ، وليدعوهم إلى أن يجودوا ويساعدوا المحتاجين والفقراء في ذلك العصر. وقد شخّص الحمدوي شاة سعيد لتعبّر عن هموم المجتمع وشدة فقره وجوع أبنائه من عامة الناس، فيقول:- [1] :

١. أبا سَعِيْدٍ لَنَا في شَاتِكَ العِبَرُ جَاءَتْ ومَا إنْ لها بَولٌ ولاَ بَعَرُ

٢. وكَيْفَ تَبْعَرُ شاةٌ عندكم مَكَثَتْ طَعَامُها الأبيضانِ الشمسُ والقَمَرُ

٣. لَو أنّها أبْصَرَتْ في نَوْمِها عَلَفاً غَنَّتْ لَهُ ودُمُوعُ العَيْنِ تَنحدرُ :

٤. يَا مَانِعِي لَذَّةَ الدُّنيا بأجْمَعِهَا إنّي لَيَفْتُنني مِنْ وَجْهِكَ النَّظَرُ

تُعد شاةُ سعيد معادلاً موضوعياً للإنسان الفقير ، وكذلك سعيد معادلٌ موضوعي للإنسان الغني الذي بخل على محتاجي مجتمعه وفقرائه.

وقد رسم الحمدوي صورة ساخرة لشاة سعيد إذ جعلها بلا بَعَرٍ ولا بولٍ لقلة علفها، وهي تماثل تماماً صورة الفقير في مجتمع العصر العباسي الثاني الذي يعاني الجوع والبؤس،

---

(١) الحصري : زهر الآداب، ١ / ٥٤٩
- وانظر النويري : نهاية الأرب، ١٠ / ٢٣١

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد ترى شاة سعيد من علف يوازي ما يراهُ الفقراء في أيدي الأغنياء والمترفين في المجتمع دونهم.

وقد أهدى محمد بن حرب إلى الحمدوي طيلساناً خلقاً، وكان الحمدوي يحفظ قولاً لأبي حمدان السُّلَمي في طيلسانه، فاحتذى حذوه وانثالت عليه المعاني، حتى قال في وصف الطيلسان قُرابة مائتي مقطوعة، ولا تخلو واحدة منها من معنى بديع، وصار الطيلسان عُرضة لشعره، ومثلاً في البلى والخُلوقة [1].

فقال:

١. أَيا طَيْلَساني أَعْيَيْتَ طِبِّي ... أَسِلٌّ بِجِسْمِكَ أَمْ دَاءُ حُبِّ
٢. وَيَا رِيحُ حَيَّرتِنِي أَتَّقِيكِ ... وَقَدْ كُنْتُ لا أَتَّقِي أَنْ تَهُبِّي
٣. وَمُسْتَنْجِزِ خَبَرَ الطَّيْلَسَانِ ... فَقُلْتُ لَهُ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي

حتى وصفه بمريض السِّلِ أو عاشق متيم، ولخفّته تكادُ الريحُ أن تطيّره، وقد أصبح طيلسان ابن حرب مثار استغراب وتساؤل لدى الآخرين عن لحظة فنائه.

ويضفي الحمدوي على الطيلسان معالم الحياة البائسة والمعدمة كحال كثيرٍ من عامة الناس، فملامحُ السعادة لا أثَر لها، والجِدَّةُ والتفاؤل لا يعرفان طريقاً إلى قلوب الفقراء، والفقر والجوع حَلاّ بيوتهم وسكناها ، وبخل الأغنياء أسهم في تبديد آمالهم وأحلامهم.

كما أن للبخل أثراً نفسياً في عامة الناس لا سيما الفقراء منهم، إذ إنّهم يشعرون بعدم الرغبة بهم والتبرّم منهم، ولربّما يصل الأمر حَدّ الكُره، كما يقول جحظة البرمكي[2]:-

١. تَبَرَّمَ إِذْ جِئْتُهُ للسَّلام ... وأَبْدَى لي الكُرْهَ لَمّا دَخَلْتُ
٢. فَقُلْتُ له: لاَ يَرُعْكَ الدُّخولُ ... فو اللهِ ما جِئْتُ إلاّ أكَلْتُ

---

(1) الثعالبي : ثمار القلوب: ص ٦٠١، ٦٠٢

وانظر : الحصري : زهر الآداب: ١ / ٥٥٢ مع اختلاف في الرواية .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

لقد ولّدَ البخل انطباعاتٍ عدّة في نفس جحظة لدى زيارته أحد بخلاء عصره، فقد شعر بأنه إنسانٌ غير مرغوب فيه، وشعر كذلك بكُره ذلك البخيل له، لكنّ عزّة نفسه تفسد على ذلك البخيل شعوره، وسوء ظنّه، إذ لم تكن غايته من المجيء أكلاً أو شرباً ، فقد استغنى بفضل الله وبما رزقه إياه عمن سواه.

إن البخل بوصفه خلقاً سلبياً يقضي على الأخلاق الكريمة والمستحبة؛ فهو يضربُ بآداب الضيافة – مثلاً – عُرضَ الحائط، ويعطّل حق الصديق على صديقه، ومؤازرته إياه في الملّمات والمصائب، ولا يسمح للتعاون والتآخي والإيثار أن يسود في المجتمع، فالأنانية وحب الذات، وشدة الحرص والطمع كلها وليدة البخل، وكل هذه الصفات من شأنها أن تحدّ من العلاقات الاجتماعية.

ومن الجدير بالذكر أنّ البخلاء كانوا يحاولون نفي صفة البخل عنهم، فيقدّمون لضيوفهم الطعام أو يبادرون إلى دعوة الأصدقاء لولائمَ يقيمونها، لكن البخل قد جرى في نفوسهم، واستقر فيها، إذ تفضحهم سلوكاتهم أمام ضيوفهم، ومن أمثالِ ذلك صاحب جحظة الذي يقول فيه [1]:-

١. أَطْعمَنَـــي بَيْـــضَـــةً ونـــــاوَلَني مِنْ بَعْدِها – ذُقْـتُ فَقْـدَهُ – قَـدَحا
٢. وقَالَ أيُّ الأصواتِ يـا ابْـنَ أخـي تُريـــــدُ؟ إنّـــي أرَاكَ مُقْتَرِحَـــا
٣. فقلتُ: مقلىً وصَـــوْتُ جُرْدَقَـةٍ[2] إنْ جَـازَ ذا الاقْتَـراحُ أو صَلُحَـــا

٤. فاشْتَطَّ مِـــنْ ذَاكَ وَامْـتَلا غَـضَباً وكَـــانَ سَـكْرَانَ طَافِحـاً، فَـصَحَا
٥. فَقُلْتُ: إنّي مَزَحْـتُ. قَـالَ: كَـذَا رَأَيْـــتُ حُـــرّاً بمِثْـــلِ ذَا مَزَحَـا

لعل بيضة من الطعام تعني لهذا البخيل الشيء الكثير، وأنه بذلك يقوم بواجب الضيافة، فيسلك مسلكاً يرى فيه وسيلة لإشغال ضيفه عن الطعام، إذ يقدّم له قَدحاً من الشراب؛ ليذهب عقله وينُسيه جوعه، فضلاً عن الغناء، ليوقظ أشجانه، لكنّ جحظة يعي تماماً التركيب

---

(١) جحظة البرمكي: الديوان، ص٦١.

(٢) الجردقة: الرغيف

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

النفسي للبخلاء، فيطلب من صاحبه البخيل لحماً مقلياً وخبزاً، ليكشف الصورة الحقيقية لهذا البخيل الذي سرعان ما استشاط غضباً واستيقظ من سكرته لشدة وقع ما طلب جحظة في نفسه.

ومن الشعراء الذين سخطوا على الفوارق الاجتماعية في العصر العباسي الثاني الشاعر الخبزأَرُزّي *، الذي صوّر قلّة الطعام على موائد البخلاء، بسخرية تحمل روح النقد لأغنياء العصر الذين بخلوا على الفقراء والمحتاجين، إذ قال[1]:-

١. مِنْ حَدِيثِي: أَنّ ابْنَ بَكْرٍ دَعَانِي ... لِشَقَائِي، فَلَيْتَهُ مَا دَعَانِي
٢. غَرّنِي مِنْهُ مَنْظَرٌ وَلِبَاسٌ ... وَأَثَاثٌ وَمَجْلِسٌ وَأَوَانِي
٣. مَجْلِسٌ كَالجِنَانِ حُسْنَاً، ولَكِنْ ... قَبَّحَ الجُوعُ حُسْنَ تِلْكَ الجِنَانِ
٤. فَلَعَمْرِي، كَانَ الخِوانُ، ولَكِنْ ... لَمْ يَكُنْ مَا تَكُونُ فَوقَ الخِوَانِ
٥. وَجِفَانٍ مِثْلُ الجَوابِي[2]، ولَكِنْ ... لَيْسَ فِيهُنَّ مَا يُرَى بِالعَيَانِ
٦. وَغُضَارُ الأَلْوانِ جَاءَتْ، ولَكِنْ ... لَيْسَ فِيْهَا رَوَائِحُ الأَلْوَانِ
٧. فَإِذَا مَسَّا أَدَرْتُ فِيْهَا بَنَانِي ... لَمْ أَجِدْ مَا أَمَسَّهُ بِبَنَانِ
٨. إِنَّنِي مَاضِغٌ عَلَى غَيْرِ شَيءٍ ... غَيْرَ صَكِّ الأَسْنَانِ بِالأَسْنَانِ
٩. تَرْجِعُ الكَفُّ، وهِيَ أَفْرَغُ فِيْهَا ... عِنْدَ مَدِّي لَهَا، فَدَأْبِي وشَانِي
١٠. لَوْ تَرَانِي، وَالجُوعُ يَضْحَكُ مِنِّيّ ... عِنْدَ غَسْلِي يَدَيَّ بِالأُشْنَانِ[3]
١١. زَادَ فِي السَّفْرِ [4] مُسْرِفاً مِثْلَمَا أَسْـ ... ـرَفَ عِنْدَ الطَّعَامِ بِالنُّقْصَانِ

---

(١) الخبز أرزي: ديوان الخبز أزري في المظان، تحقيق محمد قاسم المصطفى وسناء طاهر محمد، ص١٤٨، ١٤٩

وانظر : العسكري ، الإمام أبو هلال : ديوان المعاني ، مكتبة المقدسي ، (د. ت) ، ١/ ٢٩٧.

* الخبز أرزي : هو نصر بن أحمد بن نصر البصري ، وكنيته أبو القاسم ، شاعر شيعي ، عرف بالغزل واشتهر به، وكان له دكان في مربد البصرة يخبز فيه خبز الأرز ، ويمتع زبائنه بالشعر ، انتقل إلى بغداد ، وتوفي سنة ٣١٧هـ .

– انظر : ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ٧ / ٢٠٨ / الزركلي : الأعلام ، ٨/ ٢١ .

(٢) الجوابي: جمع جابية وهي حوض الماء.

(٣) الأشنان: (بضم الهمزة وكسرها): غسل معروف نافع للجرب والحكة.

(٤) السَّفْر: الانكشاف والوضوح.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

١٢. والغضارات[1] فارغاتٌ أتتنا وسقانا بالمترع الملآنِ

١٣. سكرةُ فوقَ جوعةٍ تركتني راحماً كلَّ جائعٍ سكرانِ

يتخذ الإسراف معنى آخر لدى البخلاء، إنّه إسرافٌ في قلة الطعام، فجفانهم كبيرة الحجم، لكن ما فيها يكاد لا يُرى للعيان، وأوانيهم متعددة الألوان، لكنها لا تحتوي إلاّ روائح الطعام، ومَنْ يجلس على موائدهم يرجع جائعاً.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

(1) الغضارات: الأواني المصنوعة من الفخار.

ثالثاً:- النفاق والرياء:-

يُعَدّ النفاق والرّياء من الصفات الاجتماعية السلبية التي شاعت في العصر العباسي الثاني، وقد تناول الشعراء هاتين الصفتين في شعرهم ، ووقفوا من المنافقين موقفاً حازماً يجمع بين الرفض والسخرية من اتخاذهم النفاق والرياء سبيلاً لتحقيق غاياتهم، ووسيلة ينفذون عبرها إلى مآربهم الشخصية، ومن أولئك الشعراء سعيد بن حميد، إذ يقول [1]:-

١. أَخٌ لِي كَأَيَّامِ الحَيَاةِ إِخَاؤُهُ تَلَوَّنَ أَلْوَاناً كَثِيراً خُطُوبُهَا
٢. إِذا عِبْتُ عَنْهُ خَلَّةً فَهَجَوْتُهَا تَذَكَّرْتُ مِنْهُ خَلَّةً لاَ أُعِيبُهَا

إِنّ الأخوة – كما يرى سعيد بن حميد – لا تدوم، بل تتغير وتتلون كأيام الحياة، بين حلاوةٍ ومرارة، وسعادة وشقاء، ويُسْرةٍ وعسرة، وفرجٍ وشدّة، وهكذا حال أصحاب سعيد بن حميد وخلاّنه. إنّه يريد صاحباً مثالياً يقف إلى جانبه في النوائب، وفياً له لكنه كان على غير ما يشتهي، فيقول:[2]

١. يَا صَدِيْقِي مَا كُنْتَ لِي بِصَدِيْقٍ إِنّما كُنْتَ لِلزّمَانِ صَدِيْقاً

إن الأصدقاء متلونون، يميلون حيث المصلحة والمال والجاه، وقد عاتب عبد الصمد بن المعذل أخاه أحمد إذ اتصل بالسلطان وأخذ صلته، فغيَّرَهُ المال وأعرض عن أصحابه وأهله، فيقول[2]:-

١. عَذِيري مِنْ أَخٍ قَدْ كَانَ يُبْدي عَلَى مَنْ لاَبَسَ السُّلْطَانَ عَتَبَهْ
٢. وكَان يَذُمُّهُمْ فِي كُلّ يَوْمٍ يَشِي بِالجَهْلِ وَالهَذَيَانِ خَطْبَهْ
٣. فَلَمَّا أَتَتْهُ دُرَيْهِمَاتٌ مِنَ السُّلْطَانِ بَاعَ بِهُنّ رَبَّهْ
٤. كَسَيتَ أَبَا الفُضُولِ لَنَا مَعَابَا وَعَاراً قَدْ شَمِلْتَ بِهِ وَسَبَّهْ

تتضح صورة المنافق في الأبيات السابقة جلية، حيث كان أخ عبد الصمد بن المعذل يعتب على مَنْ يتملّق إلى السلطان ويتقرب منه، بل كان يذمه ويصفه بالجهل والهذيان، لكن

---

(١) سعيد بن حميد: رسائل سعيد بن حميد وأشعاره ، ص ١٢٤.

(٢) عبدالصمد بن المعذل : شعر عبدالصمد بن المعذل ، ص ٢٤ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

موقفه هذا لا يدوم، والعتب والذم يتلاشى ويتوارى وراء مصالح شخصية بدت، ودُريهمات لمعت، فمال حيث مصلحته.

وكأن السُّلطان عرف موضع ضعف أخي عبد الصمد وغيره من الناس، إذ أغراه بالمال فأعشى بصره، وحادَ عن موقفه، وفقد ذاته أمام سلطتي الحُكم والمال.

وإذا تقرب بَعضُ الناس من السلطة لنيل رضاها وعطائها ، فإنهم كذلك تقربوا من الأغنياء، وأظهروا لهم الودّ والإجلال، وتجافوا عن الفقراء، وأظهروا لهم البُغض والعداوة؛ لأن مصالحهم لا تتفق مع أحوالهم البائسة، وقد قال أبو العيناء في ذلك[1]:

١. مَنْ كَانَ يَمْلِكُ دِرْهَمَيْنِ تَعَلَّمَتْ ... شَفَتَاهُ أَنْوَاعَ الكَلامِ فَقَالاَ
٢. وَتَقَدَّمَ الفُصَحَاءَ فَاسْتَمَعَا لَهُ ... وَرَأَيْتَهُ بَيْنَ الوَرَىٰ مِخْتَالا
٣. لَولا دَرَاهِمُهُ فِي كِيسِهِ ... لَرَأَيْتَهُ شَرَّ البَرِيَّةِ حَالا
٤. إِنّ الغَنِيَّ إِذَا تَكَلَّمَ كَاذِباً ... قَالُوا: صَدَقْتَ وَمَا نَطَقْتَ مُحَالا
٥. وإذا الفَقِيْرُ أَصَابَ قَالُوا: لَمْ تُصِبْ ... وَكَذَبْتَ، يَا هَذا، وَقُلْتَ ضَلاَلا
٦. إِنَّ الدَّرَاهِمَ فِي المَوَاطِنِ كُلِّهَا ... تَكْسُو الرِّجَالَ مَهَابَةً وَجَلاَلاً
٧. فَهْيَ اللِّسَانُ لِمَنْ أَرَادَ فَصَاحَةً ... وَهْيَ السِّلاحُ لِمَنْ أَرَادَ قِتَالا

إِنّ الناسَ، في هذا العصر يقدّمون الغني، ويثنون عليه وإن كان من شرّ الناس، ويُعرضون عن الفقير، ويكذِّبونه وإنْ صَدَق، وتتفوق هنا سلطة المال لتضع الناس في غير مواضعهم الحقيقية، فتعْلي من شأن الوضيع، وتحطُّ من شأن الرفيع.

---

(1) أبو العيناء: ديوان أبي العيناء ونوادره، ص ٤٠، ٤١.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويشكو ابن الرومي – كذلك – كثرة أصدقائه في سرائه، وقلّتهم في ضرائه، إذ يقول[1]:

١. وَلِي أَصْدِقَاءٌ كَثِيرُو السَّلاَ ... مِ عَلَيَّ وَمَا فِيْهُمُ نَافِعُ
٢. إِذَا أَنَا أَدْلَجْتُ فِي حَاجَةٍ ... لَهَا مَطْلَبٌ نَازِحٌ شَاسِعُ
٣. فَلِي أَبَداً مَعْهُم وَقْفَةٌ ... وتَسْلِيْمَةٌ وَقْتُهَا ضَائِعُ
٤. وَفِي مَوْقِفِ المَرْءِ عَنْ حَاجَةٍ ... تَيَمَّمَها شَاغِلٌ قَاطِعُ

إنَّ أصْحَابَ ابن الرمي ها هنا أصحابُ حاجة، إن قضوا حاجتهم انقضت معها صحبتهم، كما أنّ نفاقهم أفسد كثرتهم، ولهذا فإنّ صحبتهم مضيعة للوقت . إنّ ابن الرومي يبحث عن الصديق الصَّدوق ، الذي يقف إلى جانبه في السّراء والضرّاء ،لا يريد كثرة العدد بقدر ما يريد الصديق المخلص والوفيّ.

وربّما يجمع المنافق صفات أخرى إلى جانب نفاقه كاللؤم والغرور، لكن النفاق يملك عليه طباعه، فيشوّه كل ما في ذاته من قيمٍ، ويسلبه إيجابيته، بل إنسانيته، ولهذا فقد صوره ابن الرومي بالثعلب لمراوغته، وبالكلب لشده لؤمه، فيقول[1]:

١. مَلَكَ النِّفَاقُ طِبَاعَهُ فَتَثَعْلَبَا ... وأَبَى السَّمَاحَةَ لُؤْمُهُ فَاسْتَكْلَبَا
٢. فَتَرَى غُرُوراً ظَاهِراً مِنْ تَحْتِهِ ... نَكَدُ، فَقَبّحَ شَاهِداً ومُغَيَّبَا
٣. ولَشَرُّ مَنْ جَرَّبْتَهُ فِي حَاجَةٍ ... مَنْ لا تَزَالُ بِهِ مُعَنًّى مُتْعَبَا
٤. مَنْ لا يَبِيْعُكَ مَا تُرِيْدُ وَلا يُرَى ... لَكَ حُرْمَةً إنْ جِئْتَهُ مُسْتَوْهِبَا

و تتجلى صفتا النفاق والرياء، وصورة المنافق في أبيات البحتري، الذي يقول[2]:

١. كَمْ مِنْ أَخٍ لَكَ لَسْتَ تُنْكِرُهُ ... مَا دُمْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فِي يُسْرِ!
٢. مُتَصَنِّعٍ لَكَ فِي مَوَدَّتِهِ ... يَلْقَاكَ بالتَّرحِيْبِ وَالبِشْرِ
٣. يُطْرِي الوَفَاءَ وَذَا الوَفَاءِ ويُلْـ ... ـحِي الغَدْرَ مُجْتَهِداً وَذَا الغَدْرِ
٤. فَإِذَا عَدَا – والدَّهْرُ ذُو غِيَرٍ ... دَهْرٌ عَلَيْكَ عَدَا مَعَ الدَّهْرِ

---

(١) ابن الرومي: الديوان، ٤ / ١٤٨٨ .

(٢) البحتري: ديوان البحتري، ١ / ٦٠٨ – ٦٠٩.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

٥. فَــارْفُض بإجْمَــالٍ أُخُــوَّةَ مَــنْ يَقْلَى المُقِــلَّ وَيَعْــشَقُ المُثْــرِي
٦. وعَلَيْكَ مَــنْ حــالَاهُ وَاحــــدَةٌ في اليُسْرِ – إمّا كُنْتَ – والعُــسْرِ
٧. لاَ تَخْلِطَنَّهُــــــمُ بِغَيْرِهِــــــمُ مَنْ يَخْلِطُ العِقْيَانَ[1] بالــصُّفْرِ؟![2]

يُقَدِم البحتري خلاصة تجربته المثقلة بآهاته وأوجاعه في هذه الحياة التي تغيّــرت فيهــا ملامح كثيرة، حيث أصبح الأصحاب والخِلاّن متصنعين في مودّتهم، يكثرون عنــد الطَّمــع، ويقلون عند الفزع، فما دام المرء في يُسْرٍ وخيرٍ وصلوه واستفاضوا في مشاعرهم وحــبهّم، لكن سرعان ما تتبدل أحوالهم، وتنقطع محبتهم، وتظهر جفوتهم، إذا أصاب المرءَ قَدَرٌ أو حلّت عليه مصيبة.

وهنا يدعو البحتري إلى رفض أُخوَّةَ المنافقين الذين يتقربون من الأغنياء ويبتعدون عن الفقراء، ويدعو كذلك إلى مؤاخاة من تكون نواياه وحاله واحدة في السّراء والضّراء، وهم قِلّة، لذا فعلى المرء أن يحافظ على صحبتهم ؛ لأنّهم المعدن الخالص والنفيس.

أما أبو بكر الصولي فيكشف عن نوعٍ آخر من النفاق، وهو النفاق الديني، فيقول في أحمد بن الطيب السرخسي- وكان قد زعم أنّه أحرق كتبه كلّها إلا الحديث والفقه واللغة والشعر ، فقال المعتضد: وما ينفعه ذلك مع كفره – : [3]

١. يَــا مَــنْ يُــصَلِّي رِيَــاءً وَيُظْهِــــرُ الــصَّوْمَ سُــمْعَهْ
٢. وَلَيْسَ يَعْبُــــــدُ رَبّــا وَلا يَدِيــــــنُ بِــــــشَرْعِهْ
٣. قَدْ كُنْتَ عَطَّلْتَ دَهــــرًا فَكَيْــــفَ أَسْــــلَمْتَ دُفْعَــــــهْ
٤. إِنْ كُنْتَ قَدْ تُبْتَ فَالــشَّـ ـــيْخُ لا يُفَــــارِقُ طَبْعَــــهْ

---

(١) العِقيان: ذهب متكاثف في مناجمه، خالص مما يحتك به من الرمال والحجارة.

(٢) الصُّفْر: النحاس الأصفر.

(٣) ابن النديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق د. سهيل زكار، دمشق، ص ٨٤٥، ٨٤٦.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٥. لَو ظلْتَ فـــي كُلّ يَـوْمٍ مُـــصَلّيَاً أَلْـــــفَ رُكْعَـــةْ

٦. مَـــا كُنْتَ في الكُفْـرِ إلاّ كَالنـــارِ فـــي رَأْسِ قَلْعَـــةْ

إنّ صلاة أحمد بن الطيب – مثلما يزعم الصولي – رياُء، وصومه طلب للسمعة؛ فأفعاله لا تدلُّ على معتقداته، وإنْ تابَ وظلَّ قائماً للصلاة، وصائماً الدهر، فإنّ رياءَهُ بادٍ لا ينتهي ولا يَجبُّه عمل.

ولعلّ الصولي يريد هنا النفاق المذهبي ، لا سيما أنّـه قـد تعـددت المـذاهب الدينيـة والاتجاهات الفكرية في هذا العصر.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

رابعاً: الغدرُ والخيانةُ:-

اضطربت العلاقات الاجتماعية في العصر العباسي الثاني، لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية، وتشوّهت العلاقات الإنسانية وفسدت، لفساد المجتمع، وتلاشت القيم الاجتماعية المُثلى وحلّ محلها البخلُ والفقر، والنفاق والرياء، والسرقة واللصوصية، والغدرُ والخيانة.

ترتبط صفتا الغدر والخيانة بالنفاق في بعض الجوانب، لكن الشعراء أفردوا الحديث عنهما إذ لمسوا آثارهما في حياة المجتمع، وأصابهم ألمهُما في علاقاتهم وصداقاتهم التي كانوا يقيمونها.

وقد قال في ذلك دعبل الخزاعي [1]:

وَرُبَّ ذِي ثِقَةٍ قَدْ كُنْتُ آمُلُهُ ... هَبَّتْ عَلَيْهِ رِيَاحُ الغَدْرِ فَانْتَفَضَا

أَهْمَلْتُهُ حِيْنَ لَمْ أَمْلِكْ مَقَادَتَهُ ... ثُمَّ انْقَبَضْتُ بِوُدِّي مِثْلَ مَا انْقَبَضَا

فَمَا بَكَيْتُ عَلَيْهِ حِيْنَ فَارَقَنِي ... وَلا وَجَدْتُ لَهُ تَحْتَ الحَشَا مَضَضَا

وَقُلْتُ لِلنَّفْسِ عُدِّيْهِ فَتًى نَزَحَتْ ... بِهِ النَّوَى أَوْ مِنَ القَرْنِ الَّذِي انْقَرَضَا

إنّ الغدر ينزعُ الثقة من قلوب الناس، ويُفسدُ الصداقة، ويشيع الحقد والكره، ولذا فعلى الإنسان أن يتوخى الحذر في تعامله مع الناس، والاّ يَحْسَبَ أنهم جميعاً أصدقاء أوفياء، وفي ذلك يقول الشاعر العطوي[2]:-

لَمْ أَجِدْ كَثْرَةَ الأَخِلاّءِ إلاّ ... تَعَبُ النَّفْسِ فِي قَضَاءِ الحُقُوق

فاصْرِفِ النَّفْسَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ النَّا ... سِ فَمَا كُلُّ مَنْ تَرى بِصَدِيق

---

(1) الآبي ، الوزير الكاتب أبو منصور بن الحسين : الأُنس والعرس ، تحقيق د. إيفلين فريد يارد ، الطبعة الأولى ، دار النمير ، دمشق ، ١٩٩٩ ، ص ٤٧.

(2) الثعالبي : الإعجاز والإيجاز، ص ١٩٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقال في موضعٍ آخر يشكو أصدقاءه[1]:-

لـــيَ خَمْـــسُونَ صَدِيقَـــاً بَيْـــنَ قَـــاضٍ وَأَمِيْـــرِ
لَبِسُوا الـــوَفْرَ فَلَـــمْ أَخْـــ ـــلَعْ بِهِـــمْ ثَـــوبَ الفَقِيـــرِ
كُلُّهم كَـــالَ لِـــيَ الحِـــرْ مَـــانَ بالـــصَّاعِ الكَبِيـــرِ

إنّ أصدقاء العطوي كثُرُ، ويشغلون مناصب مرموقة، فضلاً عن غِناهم، لكّـن صـداقتهم لا تجدي شيئاً لدى العطوي، إذ ظَلّ فقير الحال، ولم يقدموا له إلاّ الحرمان.

وربّما تنقلب الصداقة إلى عداوة، ويساهم المال في تغيير ملامح العلاقات الاجتماعيـة فتزدهر بعض العلاقات وتفتر أخرى كالصداقة مثلاً، كما في قول أبي علي البصير[2]:

١. تَعَلَّـمْ إنَّ شَـرَّ المَـالِ مَـالٌ تُدَافِعُ عَنْهُ بالعِلَـلِ الحُقُوقَـا
٢. فَلاَ تُسْلِمْ صَدِيْقَكَ عِنْـدَ أَمـرٍ دَعَاكَ لَهُ، يُكَابِدُ فِيْـهُ ضِـيْقَا
٣. فإنَّكَ واجِـدٌ أَبَـداً عَـدُوّاً وَلَسْتَ بِوَاجِدٍ أَبـداً صَـدِيْقَاً

ولم يقف الغدرُ عند حدودِ الأفراد، بل تفشى حتى عَمّ الدُّنيا، وتفشت الخيانة وأفسدت كُلّ معالم الخيرات، فما عاد للدنيا بهجة، فلا حَسَب، ولا أدب، ولا دين، ولا خلق .

وكل هذه- الحسب – الأدب- الدين – الخُلُق - من شأنها أن تقيم مجتمعاً صالحاً، لكنها كادت أن تتلاشى في هذا المجتمع، ولأن الناس أصبحوا كذلك فأبو العيناء لا يدري أين يضع ثقتـه، إذ يقول[3]:

---

(١) العسكري : ديوان المعاني ج٢، ص ٢٠٣ / الثعالبي : خاص الخاص، ص ١٢٧.
(٢) الآبي : الأُنس والعرس ، ص ١٠.
(٣) أبو العيناء: ديوان أبي العيناء ونوادره، ص ٣٧.
(٢) الصنوبري ، أحمد بن محمد بن الحسن الضبي : الديوان ، تحقيق د. إحـسان عبـاس ، دار الثقافـة ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٢٧ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

١. تَوَلَّـــتَ بَهْجـــةُ الـــدُّنيا فَكُـــلُّ جَدِيـــدِها خَلَـــقُ

٢. وَخَـــانَ النَّـــاسُ كُلُّهُـــمُ فَمَـــا أَدْرِي بِمِـــنْ أَثِـــقُ

٣. رَأَيْـتُ مَعـالِمَ الخَيْـرَا تِ سُـدَّتْ دُونَهـا الطُّـرُقُ

٤. فَـــلا حَـــسَبٌ ولاَ أَدَبٌ ولا دِيْـــنٌ ولاَ خُلُـــقُ

من اللافت للنظر في هذه الأبيات أنّ أبا العيناء قدّم ذكر الخيانة على ذكر معالم الخيرات من حسب ونسب وأدبٍ ودين؛ لأن الخيانة سببٌ في تلاشي الخيرات وتبديدها.

ومن الجدير بالذكر هنا أنّ الخائن يخفي خيانته، ويظهر حُسْنَ الخلـق، وصـفاء النيّـة لصاحبه، لكنه حين يُفْتضحُ أمره، ويكشف غدره وخيانته، يبادر إلى الاعتذار، وخلق الحيل؛ لأنه حريص على مصالحه الشخصية التي يحققها من تلـك الـصحبة، وفـي ذلـك يقـول الصنوبري.(٢)

١. غَدَرْتَ فلمَا بَانَ غَدْرُكَ جِئْتَنِي تُقَدِّرُ أَنِّي أعْذِرُ الخِلَّ في الغَدْرِ

٢. فَلاَ تَلْتَمِسْ عُذْرَاً فَلَسْتُ بِعَاذِرٍ أَخَا غُذْرُهُ يَحتَـاجُ إلى غُذْرِ

أنّ الصنوبري مثلما يبدو في هذين البيتين صاحب موقف حاد وجازم في تحديد علاقاتـه وأصحابه، فالغدر عنده يفسد الصداقة، ولا يجد له عذراً.

إنّ صفتي الغدر والخيانة لا يغيرهما الزمن، ولا يعرف صاحبهما إلاّ التلّون، فهو يبطن الغدر ويظهر الوفا، لكن أفعالة تفضحه وتكشف خبثه مثلما في قول الخبز أرزي [١]:

فَلِمْ تَتَعَاطَى مـا تَعَـوَّدْتَ ضِـدَّهُ إذَا كُنْتَ خَوَّاناً، فَلِمْ تَدَّعي الوَفَا؟

---

(١) الخبز أرزي: ديوان الخبز أرزي في المظان، تحقيق محمد قاسم مصطفى وسناء طـاهر محمـد، ص ١٢٣.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد كان للأئمة دورٌ في الكشف عن هذه الفئة و توجيه الناس في كيفية التعامل معها ، إذ يقول الإمام منصور الفقيه : [1]

إنَّ فِـــي دّهْرِنَـــا أَفَـــاعٍ لَـــيْسَ لِمَـــنْ سَـــاوَرَتْ طَبِيْـــبُ

فَـــلا تَكُـــنْ فِيْـــكَ بَعْـــدَ هَـــذا لِوَاحِـــــدٍ مِـــــنْهُمُ نَـــــصِيْبُ

خامساً: الظلم والجور:-

مثلما شاع البخل والفقر والجوع، والنفاق والرياء، شاع الظلمُ في العصر العباسي الثاني، وقد كانت الطبقة العليا هي القوة الفاعلة والمسيطرة بيدها مقاليد الأمور، تنعم بالحياة الهانئة، وتغرق في أسباب اللهو والمجون، وتتقاسم فيما بينها المناصب السياسية والأموال الطائلة، وتفرض على الطبقة الفقيرة الضرائب، وتحرمها أسباب العيش الكريم؛ لتظل تكدح من أجل لقمة العيش بعيداً عن أمور السياسة، وقد كان ابن الرومي من الشعراء الذين اشتكوا الظلم في مجتمعهم ، فقال[2]:

١. لاَنْتِقَامُ الظُّلُومِ أرْبَى [3] عَلى الظَّا لِـــمِ مِـــنْ ظُلْمِـــهِ عَلَـــــى المَظْلُـــومِ

٢. صَاحِـــــبُ الظُّلْـــمِ، إنْ تأَمَّلْتَ،كَـــالرَّا تِـــعِ فِـــي المَرْتَـــعِ الوَبِيْـــلِ الـــوَخِيْمِ

٣. يَجْتَلِي أَمْـــرَهُ فَـــيَعْلَمُ أَنْ قَـــدْ بَـــاعَ لَيـــــلَ الكَـــرَى بِلَيْـــلِ الـــسَّلِيْمِ

---

(١) الآبي : الأنس والعرس ، ص ١٧٤ .

(٢) ابن الرومي: الديوان، ٦ / ٢٢٥٥.

(٣) أربى: زاد

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

٤. فَهْوَ مِنْ لَـوْمِ نَفْـسِهِ حـيْنَ يَخْلُـو في غَـــرَامٍ وفـــي عَذَابٍ أَلِيْمِ

٥. قَـــدْ أُمِّـــرَتْ حَيَاتُـــهُ وَشَجَتْـــهُ بُرَحَـــاءُ النـــدَمِ والتَّنْـــدِيْمِ

٦. لَوْ تَجَافَى الخَـصْيمُ عَنْـهُ وأَغْـضَى لكَفَـاهُ بنَفْيِـهِ مِـنْ خَـصِيْمِ[١]

٧. وأَخُـــو الانْتِقَـــامِ نَاعِـــمُ بَـــالٍ يَتَـــشَفَّى بكُـــلِّ ثَـــأْرٍ مُنِـــيْمِ[٢]

٨. لَـمْ يَجِـدْ نَفْـسَهُ أَلامَـتْ فَلَحَـا[٣] هَـا، ولَـمْ يَنْـصَرِفْ بِخَـدٍّ لَطِـيْمِ[٤]

يتنافى الظلم مع ما دعَا إليه الدِّين مَن عَدْلٍ بين أفراد الرعية، لكنـه – أي العـدل – أصبح غريباً ومستهجناً في هذا العصر، وقد أشارَ جحظة إلى هذا المعنى فقال[٥]:

١. وَقَائِلٍ قَـالَ لِي: مَـنْ أَنْـتَ؟ قُلْـتُ لَـهُ، مقَالَ ذِي حِكْمَةٍ وَاتَتْ لَـهُ الحِكَـمُ

٢. لَسْتُ " الـذي تَعْـرِفُ البَطْحَـاءُ وَطْأَتَـهُ والبَيْـتُ يَعْرِفُـهُ والحِـلُّ والحَـرَمُ

٣. أَنَـــا الَّـــذِي دِيْنُـــهُ إِسْـعَافُ سَـائِلِهِ والضُّرُّ يَعْرِفُـهُ والبُـؤْسُ والعَـدَمُ

٤. أَنَـا الَّـذِي حُـبُّ أَهْـلِ البَيْـتِ أَفْقَـرَهُ فَالعَدْلُ مُـسْتَعْبَرٌ والجَـوْرُ مُبْتَـسِمُ

يجرّد جحظة البرمكي من نفسه شخصاً يطارحه الحوار ويبادله الحديث ويوجّه إليه الأسئلة عن حاله، وقد كان السؤال الذي وجهّه إليه: مَنْ أنت؟ وهذا السؤال أصعب من الخوض فـي الإجابة أو البحث عنها؛ لأنه سؤال يحمل مدلولات كثيرة، كهامشية المسؤول عنه، وتغطرس السائل وتكبّره.

---

(١) الخصيم: الخصم.

(٢) المنيم: لامها وعابها.

(٣) خدّ لطيم: كناية عن الذل والنّدم.

(٤) جحظة البرمكي: الديوان، ص ١٦٢.

(٥) يشير إلى عكس قول الفرزدق: هذا الذي تعرفُ البطحاء وطأته والبيتُ يعرفهُ والحلُّ والحَرَمُ

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويؤكدُ جحظة هامشيته في هذا المجتمع بتوظيفه بيت الفرزدق مسبوقاً بنفي، وكأنّه إنسانٌ بلا هوية. ويستدرك جحظة القول حينما يجد جواباً وعنواناً لذاته التائهة في زحِـام المجتمـع المشبع بالأمراض الاجتماعية، فهو إنسانٌ يعرفه الضُّرُ والبؤسُ والفقرُ، وبهذا يجد إجابة عن سؤال: مَن أنت؟ وحال جحظة تنطبق على حال غيره من أفراد المجتمـع فالـضُّرُ والبـؤس والفقرُ ملامح حياة العامة، والتي أصبح العدلُ فيها غريباً ومستهجناً، والظلم مألوفاً وسائداً.

سادساً: التّكَبُّرُ:-

ومن الصفات السلبية التي نقدها شعراء العصر العباسي الثاني صفة التكبر، ومن الجدير بالذكر أن هذه الصفة اختصت بها الطبقة العليا، أو مِن تغيّرت أحواله وأصاب غنى أو منصباً كقول عبد الصمد بن المعذل مخاطباً صديقاً له ولي " النفاطات "[1] فأظهر تيهاً [2]:-

١. لَعَمْـري لَقَـدْ أَظْهَـرْ تيهَـاً كَأَنّمَـا تَوَلَّيْتَ " للِفَـضْلِ بِـنْ مـروانَ " عَكْبَـرا[3]

٢. دَعِ الكِـبْرَ واستَبْقِ التَّوَاضُـعَ إنَّـهُ قَبِـيْحٌ بِـوَالي الـنّفْطِ أنْ يَتَغَيّـرَا

٣. لحِفْظِ عُيُونِ الـنّفْطِ أَحْـدَثْتَ نَخْـوَة فَكَيْفَ تُـرى لـو كـانَ مِـسْكاً وعَنْبَـرَا

يعيب عبد الصمد بن المعذل على والي النفاطات ما أظهره من تيهٍ وتكبر، ويدعوه إلـى التواضع؛ لأن منصباً كولاية النفاطات لا يبعث على التكبر، فهو مجرد حارس لعيون النفط.

تبرز في أبيات عبد الصمد بن المعذل لا سيما الأخير منها السخرية، فعبد الـصّمدِ أدرى بصديقه وما كان عليه من قبل، وكأنّه يومئ إليه بمراجعة الذات لتقلع عما صارت عليه، وقد اتّبع عبد الصمد تسلسلاً منطقياً في مخاطبة صديقه الوالي، إذ أخذ عليه أولاً تيهه، ثم دعاه إلى

---

(١) النفاطات: بُليدة من نواحي دُجيل بينها وبينَ بغداد عشرة فراسخ.

(٢) عبد الصمد بن المعذل: شعر عبد الصمد بن المعذل، ، ص ٢٤.

(٣) عكبرا: اسم موضع في العراق، كركوك حالياً.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

التواضع، وترك الكِبْر، وأخيراً صَغَر في عينيه منصبه المتمثل بولاية النفاطات، ليعود عن كِبْره وينظر في المرآة فتصغر نفسه قبل أن تتضخم .

ويسخر كذلك ابن المعذل بمتكبرٍ قد كان فقيراً فيقول[1]:

١. يَتَمَشَّى في ثَوْبِ عُصبَ مِنَ العِرِ ي عَلَى عَظْمِ سَاقِهِ مَسْدُولِ

٢. دَبَّ في رَأسِهِ خمارٌ مِنَ الجُو عِ سَرَى خَمْرَةَ الرَّحِيَق الشَّمُول

٣. فبَكَى شَجْوَهُ وحَنَّ إلى الخُبْزِ ونَادىَ بِزَفْرَةٍ وعَوِيل

٤. مَنْ لِقَلْبٍ مُتَيَّمٍ بِرَغِيْفَيْ نِ ونَفْسٍ تَاقَتْ إلى تَطْفِيْلِ

إن الباعث الحقيقي وراء تكبّر هذا الفقير هو محاولة تجاوز الواقع المرير، وتمثّل دور الإنسان الغني، وكأنه تعويض نفسي عن الحرمان والجوع والهامشية التي يعانيها، لكن شدة الجوع وقسوته تهدّم ما قد تسّرب إلى نفسه من تكبّرٍ وتيهٍ.

---

(١) عبد الصمد بن المعذل: شعر عبد الصمد بن المعذل، ص ٢٥.

- وانظر : الأصفهاني : الأغاني ١٣/ ٢٣١

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library- Yarmouk University

الفصل الرابع

أولاً - توطئة

ثانياً - بائية ابن الرومي في عتاب سهل بن نوبخت .

ثالثاً - رائية العطوي يشكو فيها الزّمان .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

أولاً – **توطئة :**

ستتناول الدارسة في هذا الفصل نصين شعريين يمثِّل النص الأول موقف شاعر الرفض المباشر للتباين الطبقي في مجتمع العصر العباسي الثاني ،وهو " بائية ابن الرومي في عتاب سهل بن أبي نوبخت " ويمثِّل النص الثاني موقف شاعر الرفض غير المباشر ، وهو " رائية العطوي يشكو فيها الزمان " .

وقد حاولت الدَّارسة في هذا الفصل أن تعاين النص الشعري معتمدة في ذلك القراءة الداخلية للنَّص دون أن تتقيد بمنهج محدَّد ، وإنَّما تتغيا أن تفيد من المناهج التي تراها قادرة على إظهار رؤية النَّص والكشف عن معماريته وبنائيته في ضوء التفاعل القائم بين أجزائه واختيار هذين النصين كان منبثقاً عن رؤية منطلقها دراسة نصين متباينين في الحضور الأدبي للشاعر ؛ فأحدهما من كبار الشعراء المشهورين "ابن الرومي " والآخر من الشعراء المقلين والمغمورين " العطوي " ومتباينين _ كذلك _ في الموقف النقدي لكل منهما من التباين الطبقي في المجتمع فقصيدة ابن الرومي تمثل أنموذج الشاعر الجريء و الرافض لمظاهر التباين الطبقي والناقد الاجتماعي الذي يكشف الأدواء الاجتماعية ، ويبين أسبابها ومن ثم يقدم رؤيته التي ربما دعت إلى الإصلاح أو نادت إلى الثورة واقتلاع أسباب الضعف والفساد .

والنص الثاني " نص العطوي " يمثل أنموذج الشاعر الرافض رفضا غير مباشر ، يعرض فيه تدهور أوضاع العامة من الشعب ، ويبين أوجه معاناتهم ، لكنه لا يملك الجرأة للتصدي لأصحاب السلطة ؛ فيعلق أسباب تعاسته وإيَّاهم على الزمان .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ثانياً - بائيةُ ابن الرومي في عتاب سهل بن نوبخت [1]

١-أَحْمَـدُ اللَّـهِ حَمْـدَ شَـاكِرِ نُعْمَـى ... قَابِـلٍ شُـكْرَ رَبِّـهِ غَيْـرِ آبِ

٢-طَـارَ قَـومٌ بِخِفَّـةِ الـوَزْنِ حَتَّـى ... لَحِقُـوا رِفْعَـةً بِقَـابِ العُقَـابِ[2]

٣-وَرَسَا الرَّاجِحُونَ مِـنْ جِلَّةِ النَّـا ... سِ رُسُـوَّ الجِبَـالِ ذَاتِ الهِـضَابِ

٤-وَلَمَـا ذَاكَ لِلْئَـامِ بِفَخْـرٍ ... لا ولا ذَاكَ لِلْكِـرَامِ بِعَـابِ

٥-هَكَذَا الصَّخْرُ رَاجِـحُ الـوَزْنِ رَاسٍ ... وَكَذَا الذَّرُّ[3] شَائِلُ الـوَزْنِ[4] هَـابِ

٦-فَلْيَطِـرْ مَعْـشَرٌ وَيَعْلُـو فَـإِنِّي ... لا أَرَاهُـمْ إلاَّ بِأَسْـفَلِ قَـابِ

٧-لا أَعُـدُّ العُلُـوَّ مِـنْهُم عُلُـوّاً ... بَـلْ طُفُـوّاً يَمِـيْنَ غَيْـرِ كِـذَابِ

٨-جِيَفٌ أَنْتَنَتْ فَأَضْحَتْ عَلَـى اللُّجْـ ... ـجَـةِ وَالـدُّرُّ تَحْتَهَـا فِـي حِجَـابِ

٩-وَغُثَاءٌ عَـلا عُبَابَـاً مِـنَ اليَمْـ[5] ... ـمِ وَغَاصَ المَرْجَانُ تَحْتَ العُبَـابِ[6]

١٠-وَرِجَـالٌ تَغَلَّبُـوا بِزَمَـانٍ ... أَنَـا فِيْـهِ وَفِـيْهِمُ ذُو اغْتِـرَابِ

١١-غَلَبُـونِي بِـهِ عَلَـى كُـلِّ حَـظٍّ ... غَيْرَ حَـظٍّ يَفُـوتُ كُـلَّ اغْتِـصَابِ

١٢-إِنَّنِي مُـؤْمِنٌ وَإِنِّـي أَخُـو الحَقِّ ... قِّ عَلِـيْمٌ بِفَرْعَـهِ وَالنِّـصَابِ

١٣-إِنْ تَغْلِبُـوا بِغَالِـبِ مَغْلُـو ... بٍ فَحَـسْبِي بِغَالِـبِ الغَـلاَّبِ

١٤- وَبِخِـلٍّ إِذَا اخْتَلَلْـتُ[7] رَعَـانِي ... بِالَّـذِي بَيْنَنَـا مِـنَ الأَسْـبَابِ

١٦.كَـأَبِي سَـهْلٍ المُـسَهِّلِ مَـأْتَى ... كُـلِّ عُـرْفٍ وَفَـاتِحِ الأَبْـوَابِ

١٧.يَا بْنَ نُوبِخْتٍ المَزُورَ عَلَى البُخْـ ... ـتِ[8] تَغَالَى فِي سَـيْرِهَا وَالعِـرَابِ[9]

١٨.أَنَـا شَـاكٍ إِلَيْـكَ بَعْـضَ ثِقَـاتِي ... فَـافْهَمِ اللَّحْـنَ فَهْـوَ كَـالإِعْرَابِ

١٩.لِي صَـدِيْقٌ إِذَا رَأَى لِـي طَعَامَـاً ... لَمْ يَكَـدْ أَنْ يَجُـودَ لِـي بِالـشَّرَابِ

---

(١) ابن الرومي: الديوان، ٢٨٢/١ وما بعدها.

(٢) قاب العقاب: كناية عن ارتفاع السفهاء

(٣) الذّر: صغار النمل.

(٤) شائل الوزن: خفيف الوزن.

(٥) اليم: البحر.

(٦) العُباب: الموج

(٧) اختللت: افترقت واحتجت.

(٨) البُخت: الإبل الخراسانية.

(٩) العراب: الإبل العربية الأصيلة.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

٢٠.فَـإِذَا مَـا رَآهُمَـا لِـي جَمِيْعَـاً ... كَفَيَـانِي لَدَيْـهِ لُـبْسَ الثِّيَـابِ

٢١.فَمَتَـى مَـا رَأَى الثَّلاثَـةَ عِنْـدِي ... فَهْـيَ حَسْبِي لَدَيْـهِ مِـنْ آرَابِـي

٢٢.لا يَرَانِـي أَهْـلاً لِمِلْـكِ الظَّهَـارِ ... يِّ[1] وَلا مَوْضِعَ العَطَايَا الرِّغَـابِ[2]

٢٣.وَكَـأَنِّي فِـي ظَنِّـهِ لَـيْسَ شَـأْنِي ... لَهْـوَ ذِيْ نُهْيَـةٍ [3] وَلا مُتَـصَابِ

٢٤.فِـيَّ طَبْـعٌ مَلائِكِـيٌّ لَدَيْـهِ ... عَازِفٌ صَـادِفٌ[4] عَـنِ الإِطْـرَابِ

٢٥.أَوْ حِمَارِيَّـةٌ فَمِقْـدَارُ حَظِّـي ... شَـبْعَةٌ عِنْـدَهُ بِـلا إِتْعَـابِ

٢٦.إِنَّمَـا حَظِّـيَ اللَّفَـا[5] لَدَيْـهِ ... مَعَ مَـا فِيْـهِ بِـي مِـنَ الإِعْجَـابِ

٢٧.لَـيْسَ يَنْفَكُّ شَـاهِداً لِـي بِفَهْـمٍ ... وَبَيَـانٍ وَحِكْمَـةٍ وَصَـوَابِ

٢٨.وَمَتَى كَانَ فَـتْحُ بَـابٍ مِـنَ اللَّـ ... ـهِ تَوَقَّعْـتُ مِنْـهُ إِغْـلاقَ بَـابِ

٢٩.كَاتِبٌ حَاسِبٌ فَقَـدْ عَامَـلَ الخُلْـ ... ـلَةَ بَيْنِـي وَبَيْنَـهُ بِالحِسَابِ

٣٠.لَيْسَ يَنْفَكُّ مِنْ قِـصَاصِي إِذَا أَجْـ ... سَـنَ دَهْـرٌ إِلَـيَّ أَوْ مِـنْ عِقَـابِي

٣١.كُلَّمَا أَحْسَنَ الزَّمَـانُ أَبَـى الإِحْـ ... سَـانَ يَـا لَلْعُجَـابِ كُـلِّ العُجَـابِ

٣٢.أَحْمَدُ اللهَ يَا أَبَـا سَـهْلٍ السَّـهْـ ... ـلَ مَـرَامِ النَّـوَالِ للطُّـلاَّبِ

٣٣.وَالفَتَى المُرْتَجَـى لِفَـصْلِ القَـضَايَا ... عِنْـدَ إِشْـكَالِهَا وَفَـصْلِ الخِطَـابِ

٣٤.لَـمْ إِذا أَقبَـلَ الزمَـانُ بِإِخْـصا ... بٍ تربّعْـتُ منـك فـي إِجْـدابِ

٣٥.أَتُرَى الدَّهْرَ لَيْسَ يَعْجَبُ مِـنْ هَيْـ ... جِـكَ عَتْبِـي إِذَا نَـوَى إِعْتَـابِي

٣٦.وَتَجَافِيْـكَ حِـيْنَ يَعْطِـفُ وَالْـوَا ... جِـبُ أَنْ تَـسْتَهِلَّ مِثْـلَ السَّحَابِ

٣٧.أَفَـلا إِذَا رَأَيْـتَ دَهْـرِي سَـقَانِي ... بِـذَنُوبٍ[6] سَـقَيْتَنِي بِـذِنَابٍ[7]

٣٨.أَيْـنَ مِنْـكَ المُنَافَـسَاتُ اللَّـوَاتِي ... عَهِـدَ النَّـاسُ مِـنْ ذَوِي الأَحْـسَابِ

٤٠. مَا هَنَاتٌ[8] تَعَرَّضَـتْ لَـكَ فَلَّـتْ ... مِنْكَ شُـؤْبُوبَ[9] سَـابِحٍ[10] وَثَّـابِ

---

(١) الظهاري: جمع ظهري وهو البعير المعد للحاجة.

(٢) الرغاب: المرغوب فيها.

(٣) النهية: العقل.

(٤) صادف: معرض

(٥) اللّفاء: كل خسيس يسير حقير.

(٦) ذناب: الوفير و الكثير .

(٧) ذنوب: القليل .

(٨) الهنات: جمع هنة بمعنى الشيء اليسير.

(٩) الشؤبوب: الحدّ

(١٠) السابح: العظيم

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٤١. أَمِـــنَ العَـــدْلِ أَنْ تَعُـــدَّ كَثِيْـــرَاً لِـــيَ مَـــا تَـــسْتَقِلُّ لِلأَوْقَـــابِ[١]

٤٢-أَتُرَانِـــي دُوْنَ الأُلَـــى بَلَغُـــوا الآ مَـــالَ مِـــنْ شُـــرْطَةٍ وَمِـــنْ كُتّـــابِ

٤٣-وَتِجَـــارٍ مِثْـــلِ البَهَـــائِمِ فَـــازُوا بِـــالمُنَى فِـــي النُّفُـــوسِ وَالأَحْبَـــابِ

٤٤-فِـــيْهِمُ لُكْنَـــةٌ[٢] النَّبِـــيْطِ[٣] وَلَكِـــنْ تَحْتَهَـــا جَاهِلِيَّـــةُ الأَعَـــرْابِ

٤٥-أَصْـــبَحُوا يَلْعَبُـــونَ فِـــي ظِـــلِّ دَهْـــرٍ ظَـــاهِرِ الـــسُّخْفِ مِـــثْلِهِمْ لَعَّـــابِ

٤٦-غَيْـــرَ مُغْنِـــيْنَ بِالـــسُّيُوفِ وَلا الأَقْـــ ـــــلامِ فِـــي مَـــوْطِنٍ غَنَـــاءَ ذُبَـــابِ

٤٧-لَـــيْسَ فِـــيْهِمْ مُـــدَافِعٌ عَـــنْ حَـــرِيْمٍ لا وَلا قَـــائِمٌ بِـــصَدْرِ كِتَـــابِ

٤٨-مُتَـــسَمِّيْنَ بِالأَمَانَـــةِ زُوْرَاً وَالمَنَـــاتِيْنُ أَخْـــرَبُ الخُـــرَّابِ

٤٩-كَـــاذِبِي المَـــادِحِيْنَ يَعْلَمُـــهُ اللّـــ ـــــهُ عُـــدُوْلُ الهُجَـــاةُ وَالعُيَّـــابِ

٥٠-شَغَلَتْ مَوْضِعَ الكُنَـــى لا بَـــلِ الأَسْـــ ـــــمَاءِ مِـــنْهُمْ قَبَـــائِحُ الأَلْقَـــابِ

٥١-خَيْـــرُ مَـــا فِـــيْهِمُ وَلا خَيْـــرَ فِـــيْهِمْ أَنَّهُـــمْ غَيْـــرُ آثِمِـــي المُغْتَـــابِ

٥٢-وَيَظَلُّـــوْنَ فِـــي المَنَـــاعِمِ وَاللَّـــذَّا تِ بَـــيْنَ الكَوَاعِـــبِ[٤] الأَتْـــرَابِ

٥٣-لَهُمُ المُـــسْمِعَاتُ مَـــا يُطْـــرِبُ الـــسَّا مِـــعَ وَالطَّائِفَـــاتُ بِـــالأَكْوَابِ

٥٤-نَعَـــمٌ أَلْبَـــسَتْهُمُ نِعَـــمُ اللّـــ ـــــهِ ظِـــلالَ الغُـــصُونِ مِنْهَـــا الرِّطَـــابِ

٥٥-حِـــيْنَ لا يَـــشْكُرُوْنَهَا وَهْـــيَ تَنْمَـــى لا ولا يَكْفُرُوْنَهَـــا بِارْتِقَـــابِ

٥٦-إِنَّ تِلْـــكَ الغُـــصُونَ عِنْـــدِي لَتُـــضْحِي ظَالِمَـــاتٍ فَهَـــلْ لَهَـــا مِـــنْ مَتَـــابِ

٥٧-مَـــا أُبَـــالِي أَأَثْمَـــرتْ لاجْتِنَـــاءٍ بَعْـــدَ هَـــذَا أَمْ أَيْبَـــسَتْ لاحْتِطَـــابِ

٥٨-كَـــمْ لَـــدَيْهِمْ لِلَهْـــوِهِمْ مِـــنْ كَعَـــابٍ وَعَجُـــوزٍ شَـــبِيْهَةٍ بِالكَعَـــابِ

٦٠. خَنْـــدَرِيْسٍ[٥] إِذَا تَرَاخَـــتْ مَـــدَاهَا لَبِـــسَتْ جِـــدَّةً عَلَـــى الأَحْقَـــابِ

٦١. بِنْـــتُ كَـــرْمٍ تُـــدِيْرُهَا ذَاتُ كَـــرْمٍ مُوْقَـــدِ النَّخْـــرِ مُثْمِـــرِ الأَعْنَـــابِ

٦٢. حِصْرِمٌ مِـــنْ زَبَرْجَـــدٍ بَـــيْنَ نَبْـــعٍ مِنْ يَوَاقِيْـــتَ جَمْرُهَـــا غَيْـــرُ خَـــابِ

٦٣. فَوْقَ لَبّاتِ[٦] غَـــادَةٍ تَتْـــرُكُ الخَـــا لِيَ مِنْ كُـــلِّ صَـــبْوَةٍ وَهْـــوَ صَـــابِ

٦٤. مَا اكْتَسَتْ شَيْبَةً سِوَى نُظُمِ الـــدُّرْ رِ عَلَـــى رَأْسِـــهَا البَهِـــيْمِ الغُرَابِـــي

---

(١) الأوقاب: جمع وقب وهو النذل الدنيء.المعْرِق: العريق في الكرم أي الأصيل.

(٢) اللُّكنة: غلبة العُجمة على الإنسان.

(٣) النبيط: قوم كانوا يسكنون بين العراق العربي والعراق العجمي.

(٤) الكواعب: جمع كاعب وهي الناهدة الثديين.

(٥) خندريس: الخمر.

(٦) لبّات: جمع لبّة وهي موضع القلادة من الصدر.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

٦٥. لَوْنُ نَاجُوْدِهَـا[١] إِذَا هِـيَ قَامَـتْ لَـوْنُ يَاقُوْتِهَـا المُـضِيءِ النَّقَـابِ

٦٦. وَعَلَـى كَأْسِـهَا حَبَـابٌ[٢] يُبَـارِي مَـا عَلَـى رَأْسِـهَا بِـذَاكَ الحِبَـابِ

٦٧. دُرُّ صَهْبَاءَ قَـدْ حَكَـى دُرَّ بَيْـضَا ءَ عَـرُوْبٍ كَدُمْيَـةِ المِحْـرَابِ

٦٨. تَحْمِـلُ الكَـأْسَ وَالحُلِـيَّ فَتَبْـدُو فِتْنَـةَ النَّـاظِرِيْنَ وَالـشُّرَّابِ

٦٩. يَـا لَهَـا سَـاقِيَاً تُـدِيْرُ يَـدَاهُ مُـسْتَطَابَاً يُنَـالُ مِـنْ مُـسْتَطَابِ

٧٠. لَذَّةُ الطَّعْمِ فِي يَـدَيْ لَـذَّةِ المَلْـ ثَـمِ تَـدْعُو الهَـوَى دُعَـاءَ مُجَـابِ

٧١. حَوَّلَهَا مِنْ نِجَارِهَا[٣] عَـيْنُ رَمْـلٍ لَـيْسَ يَنْفَـكُّ صَـيْدُهَا أُسْـدَ غَـابِ

٧٢. يُونِقُ العَيْنَ حُسْنُ مَـا فِـي أَكُـفٍّ ثَمَّ تَسْقِي وَحُـسْنُ مَـا فِـي رِقَـابِ

٧٣. فَفَـمٌ شَـارِبٌ رَحِيْقَـاً وَطَـرْفٌ شَـارِبٌ مَـاءَ لَبَّـةٍ وَسِـخَابِ[٤]

٧٤. وَمِزَاجُ الشَّرَابِ إِنْ حَـاوَلُوا المَـزْ جَ رُضَابٌ يَا طِيْـبَ ذَاكَ الرُّضَـابِ

٧٥. مِـنْ جَـوَارٍ كَـأَنَّهُنَّ جَـوَارٍ يَتَسَلْـسَلْنَ مِـنْ مِيَـاهٍ عِـذَابِ

٧٦. لابِـسَاتٍ مِـنَ الـشُّفُوفِ لُبُوسَـاً كَـالهَوَاءِ الرَّقِيْـقِ أَوْ كَالـشَّرَابِ

٧٧. وَمِـنَ الجَـوْهَرِ المُـضِيءِ سَـنَاهُ شُـعَلاً يَلْتَهِـبْنَ أَيَّ الْتِهَـابِ

٧٨. فَتَـرَى المَـاءَ ثَـمَّ وَالنَّـارَ وَالآ لَ بِتِلْـكَ الأَبْـشَارِ وَالأَسْـلابِ

٧٩. يُـوْجِسُ اللَّيْـلُ رِكْـزَهُنَّ فَيَنْجَـا بُ[٥] وَإِنْ كَـانَ حَالِـكَ الجِلْبَـابِ

٨٠. عَـنْ وُجُـوهٍ كَـأَنَّهُنَّ شُـمُوسٌ وَبُـدُورٌ طَلَعْـنَ غِـبَّ سَـحَابِ

٨١. سَالَمَتْهَا الأَنْدَابُ وَهْيَ مِـنَ الرِّقْـ قَـةِ أَوْلَـى الوُجُـوهِ بِالأَنْـدَابِ

٨٢. أَوْجُـهٌ لا تَـزَالُ تُرمَـى ولا تَـدْ مَى عَلَى كَثْـرَةِ السِّهَامِ الصُّيَّابِ

٨٣. بَـلْ تَـرُدُّ السِّهَامَ مُنْكَفِئَـاتٍ فَتُـصِيْبُ القُلُـوبَ غَيْـرَ نَـوَابِ[٦]

٨٤. جُعِلَ النُّبْـلُ والرَّشَـاقَةُ حَظَّـيْـ نِ لِتِلْـكَ الأَكْفَـالِ[٧] وَالأَقْـرَابِ[٨]

٨٥. فَتَخَـايَلْنَ بِـاهْتِزَازِ غُـصُونٍ نَاعِمَـاتٍ وَبَارْتِجَـاجِ رَوَابِـي

---

(١) الناجود: الخمرة وإناؤها.

(٢) حباب: فقاقيع تطفو عليه كأنها اللآلئ.

(٣) نجارها: أصلها أو يماثلها.

(٤) سَخاب: القلادة.

(٥) ينجاب: ينجلي.

(٦) غير نواب: غير مخطئات المرمى.

(٧) الأكفال: جمع كفل وهو الردف.

(٨) الأقراب: جمع قُرْب أو قُرّب وهو الخاصرة أو من الشاكلة (أصل الفخذ) إلى مراق البطن.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٨٦. نَاهِـــدَاتٍ مُطَرَّفَـــاتٍ[١] يُمَانِعْـــــ ... نَـــــكَ رُمَّـــــانَهُنَّ بالعُنَّـــــابِ

٨٧. لَوْ تَـرَى القَـوْمَ بَيْـنَهُنَّ لأَجْبَـرْ ... تَ صُـرَاحاً ولَـمْ تَقُـلْ بِاكْتِـسَابِ

٨٨. مِـنْ أُنَـاسٍ لا يُرْتَـضَوْنَ عَبِيْـداً ... وَهُـمُ فِـي مَرَاتِـبِ الأَرْبَـابِ

٩١. حَالُهُمْ حَالُ مَنْ لَـهُ دَارَتِ الأَفْـــ ... لاكُ وَاسْتَوْسَـقَتْ[٢] عَلَـى الأَقْطَـابِ

٩٢. وَكَـذَاكَ الـدُّنْيَا الدَّنِيَّـةُ قَـدْرَاً ... تَتَـــصَدَّى لأَلأمِ الخُطَّـــابِ

٩٣. مُكِّنُوا مِنْ رِحَالِ مَـيْسٍ[٣] وَطِيْئَـا ... تٍ وَأَصْـحَابُنَا عَلَـى الأَقْتَـابِ[٤]

٩٤. كَـابْنِ عَمَّـارٍ الَّـذِي تَرَكَتْـهُ ... حَمَقَـاتُ الزَّمَـانِ كَالمُرْتَـابِ

٩٥. مِنْ فَتَىً لَوْ رَأَيتَـهُ لَـرَأَتْ عَيْـ ... نَـاكَ عِلْمَـاً وَحِكْمَـةً فِـي ثِيَـابِ

٩٦. بَزَّهُ الدَّهْرُ[٥] مَـا كَـسَا النَّـاسَ إلا ... مَـا عَلَيْـهِ مِـنْ لَحْمِـهِ وَالإِهَـابِ

٩٧. أَوْ حُلَـى ظَرْفِـهِ الَّتِـي نَحَـسَتْهُ ... فَلَـوْ اسْـطَاعَ بَاعَهَـا بِجِـرَابِ[٦]

٩٨. سَوْءَةً سَـوْءَةً[٧] لِـصُحْبَةِ دُنْيَـا ... أَسْـخَطَتْ مِثْلَـهُ مِـنَ الأَصْـحَابِ

٩٩. لَهْفُ نَفْسِي عَلَـى مَنَـاكِيْرَ لِلنُّكْـ ... ـرِ عِضَابٍ ذَوِي سُـيُوفٍ غِـضَابِ

١٠٠. تَغْسِلُ الأَرْضَ بِالدِّمَاءِ فَتُـضْحِي ... ذَاتَ طُهْـرٍ تُرَابُهَـا كَـالمَلابِ[٨]

١٠١. مِنْ كِلابٍ نَأَى بِهَـا كُـلُّ نَـأْيٍ ... عَنْ وَفَـاءِ الكِـلابِ غَـدْرُ الـذِّئَابِ

١٠٢. وَإِثْبَاتٍ عَلَـى الظِّبَـاءِ ضِـعَافٍ ... عَنْ وِثَـابِ الأُسُـودِ يَـومَ الوِثَـابِ

١٠٣. شُرَطٌ خُوِّلُـوا عَقَائِـلَ[٩] بِيْـضَاً ... لا بِأَحْـسَابِهِمْ بَـلْ الاكتِـسَابِ

١٠٤. مِنْ ظِبَاءِ الأَنِيْسِ تِلْـكَ اللَّـوَاتِي ... تَتْـرُكُ الطَّـالِبِيْنَ فِـي أَنْـصَابِ[١٠]

١٠٥. فَإِذَا مَـا تَعَجَّـبَ النَّـاسُ قَـالُوا ... هَلْ يَـصِيْدُ الظِّبَـاءَ غَيْـرُ الكِـلابِ

١٠٦. أَصْبَحُوا ذَاهِلِيْنَ عَنْ شَـجَنِ النَّـا ... سِ وَإِنْ كَـانَ حَـبْلُهُمْ ذَا اضْـطِرَابِ

---

(١) مطرفات: مُخَضّبات بنانهن.

(٢) استوسقت: اجتمعت.

(٣) وحال ميس: المراكب اللينة.

(٤) الأقتاب: الأكف الصغيرة التي تجعل على أسنمة الأبعرة.

(٥) بزّه الدهر: أخذ منه قهراً.

(٦) جراب: وعاء.

(٧) سوءة سوءة: دعاء بأعظم المكروه المتوالي.

(٨) الملاب: الطيب أو/ الزعفران

(٩) عقائل: جمع عقيلة وهي المرأة الكريمة المخدرة.

(١٠) أنصاب: جمع نصب وهو التعب.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

١٠٧. فِي أُمُورٍ وَفِي خُمُورٍ وَسَمُّو ... رٍ[١] وَفِي قَاقُمٍ[٢] وَفِي سِنْجَابِ

١٠٨. وَتَهَاوِيلَ[٣] غَيْرِ ذَاكَ مِنْ الرَّقْـ ... ـمِ[٤] وَمِنْ سُنْدُسٍ وَمِنْ زِرْيَابِ[٥]

١٠٩. فِي حَبِيْرٍ[٦] مُنَمْنَمٍ وَعَبِيْرٍ ... وَصِيحَانٍ فَسِيْحَةٍ وَرِحَابِ

١١٠. فِي مَيَادِيْنَ يَخْتَرِقْنَ بَسَاتِيْـ ... ـنَ تَمَسُّ الرُّؤُوسَ بِالأَهْدَابِ

١١١. لَيْسَ يَنْفَكُّ طَيْرُهَا فِي اصْطِحَابٍ ... تَحْتَ أَظْلَالِ أَيْكِهَا وَاصْطِحَابِ

١١٢. مِنْ قَرِيْنَيْنِ أَصْبَحَا فِي غِنَاءٍ ... وَفَرِيْدَيْنَ أَصْبَحَا فِي انْتِحَابِ

١١٣. بَيْنَ أَفْنَانِهَا فَوَاكِهَ تَشْفِي ... مَنْ تَدَاوَى بِهَا مِنَ الأَوْصَابِ

١١٤. فِي ظِلَالٍ مِنَ الحَرُورِ[٧] وَأَكْنَا ... نٍ مِنَ القُرِّ[٨] جَمَّةِ الحُجَّابِ

١١٥. عِنْدَهُمْ كُلُّ مَا اشْتَهُوْهُ مِنَ الآ ... كَالِ وَالأَشْرِبَاتِ وَالأَشْوَابِ

١١٦. وَالطُّرُوقَاتِ[٩] وَالمَرَاكِبِ وَالوِلْـ ... ـدَانِ مِثْلِ الشَّوَادِنِ[١٠] الأَسْرَابِ

١١٧. وَاليَلَنْجُوجِ[١١] فِي المَجَامِرِ وَالنَّدِّ ... تَرَى نَشْرَهُ كَمِثْلِ الضَّبَابِ

١١٨. وَالغَوَالِي وَعَنْبَرِ الهِنْدِ والمِسْـ ... ـكِ عَلَى الهَامِ وَاللِّحَى كَالخِضَابِ

١١٩. وَلَدَيْهِمْ وَذَائِلُ[١٢] الفِضَضِ البِيْـ ... ـضِ تُبَاهِي سَبَائِكَ الأَذْهَابِ

١٢٠. لَمْ أَكُنْ دُوْنَ مَالِكِي هَذِهِ الأَمْـ ... ـلاكِ لَو أَنْصَفَ الزَّمَانُ المُحَابِي

١٢١. أَنْتَ طَبٌّ[١٣] بِذَاكَ لَكِنْ تَغَابَيْـ ... ـتَ وَحَابَيْتَ كُلَّ كَابٍ[١٤] وَنَابِ

١٢٢. آتِيَاً مَا أَتَى الزَّمَانُ مِنَ الظُّلْـ ... ـمِ وَهَاتِيْكَ مِنْكَ سَوْطُ عَذَابِ

---

(١) السَّمُور: دابة يتخذ من جلدها فِراء مثمنّة.

(٢) القامُم: حيوان ببلاد الترك على شكل الفأر وفروته أطيب الأنواع.

(٣) تهاويل: الزينة من النقوش والتصاوير.

(٤) الرّقم: تخطيط الثياب.

(٥) الزرياب: ماء الذهب.

(٦) حبير: البُرد الموشى والثوب الجديد.

(٧) الحرور: الريح الحارة.

(٨) القّر: البرد.

(٩) الطروقات: النوق في شبيهتها.

(١٠) الشودان: جمع شادن وهو الظبي.

(١١) اليلنجوج: عود يتبخر به.

(١٢) وذائل: جمع وذيلة وهي المرآة أو قطعة الفضة المجلوة كالمرآة.

(١٣) طب: خبير، ماهر.

(١٤) كاب: عائب.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

١٢٣. قَاتَــلَ اللَّــهُ دَهْرَنَــا أَوْ رَمَــاهُ ... بِاسْــتِوَاءٍ فَقَــدْ غَــدا ذَا انْقِــلابِ

١٢٤. يَعْلِفُ النَّاطِقِيْنَ مِنْ جَوْرِهِ الأَجْـ ... ـــلالَ وَالنَّــاهِقِيْنَ مَحْــضَ اللُّبَــابِ

١٢٥. ثُمَّ تَلْقَــى الحَكِــيْمَ فِيْــهِ يُمَــالِي ... كُــلَّ وَغْــدٍ عَلَــى ذَوِي الآدَابِ

١٢٦. جَامِحَاً فِي هَوَاهُ يَحْكُــمُ بِالحَيْـ ... ـــفِ عَلَــى الأَنْبِيْــاءِ لِلأَحْــزَابِ

١٢٧. لا يَعُدُّ الصَّوَابَ أَنْ تَغْمُــرَ الثَّــرْ ... وَةَ إلا ذَوِي العُقُــولِ الخَــرَابِ

١٢٨. غَيْرَ مُسْتَكْثِرٍ كَثِيْراً لِذِي الجَهْـ ... ـــلِ وَإِنْ كَــانَ فِــي عَدِيْــدِ التُّــرَابِ

١٢٩. وَإِذَا مَــا رَأَى لِحَامِــلِ عِلْــمٍ ... قُــوْتَ يَــوْمٍ رَآهُ ذَا إِخْــصَابِ

١٣٠. فَمَتَى مَا رَأَى لَــهُ قُــوْتَ شَــهْرٍ ... عَــدَّهُ المُلْــكَ فِــي اقْتِبَــالِ الــشَّبَابِ

١٣١. لا تُــصَمِّمْ عَلَــى عِقَابِــكَ إِيَّــا ... يَ إِذَا أَحْــسَنَ الزَّمَــانُ ثَــوَابِى

١٣٢. فَعَسَى يُمْنُ مَــا تُنِيْــلُ هُــوَ القَــا ... ئِــدُ نَحْــوِي مَوَاهِــبَ الوَهَّــابِ

١٣٣. فَمَتَى مَــا قَطَعْتَــهُ جَــرَّ قَطْعَــاً ... لِلْعَطَايَــا مِــنْ سَــائِرِ الأَصْــحَابِ

١٣٤. كَمْ نَوَالٍ مُبَــارَكٍ لَــكَ قَــدْ قَــا ... دَ نَــوَالاً إِلَــيَّ طَــوْعَ الجَنَــابِ

١٣٥. وَأُمُــورٍ تَيَــسَّرَتْ وَأُمُــورٍ ... بِالمَفَــاتِيْحِ مِنْــكَ وَالأَسْــبَابِ

١٣٦. لا تُقَابِــلْ تَيَمُّنِــي بِــكَ بِــالرَّدْ ... دِ وَلا الظَّــنَّ فِيْــكَ بِالإِكْــذَابِ

١٣٧. فَــاحْمِ أَنْفَــاً لأَنْ يُعَــدَّ مُرَجِّيْــ ... ـــكَ سَــوَاءً وَعَابِــدُ الأَنْــصَابِ

١٣٨. وَاجِبِــي أَنْ أَرَى جَــوَابِيَ عُتْبَــا ... كَ فَــلا تَجْعَــلِ الــسُّكُوْتَ جَــوَابِي

١٣٩. فَتَكُونَ الَّــذي تَنْــصَلّ[1] بالمُنْــ ... ـــصُلِ مِنْ ضَرْبَةٍ بِــصَفْحِ القِــرَابِ

١٤٠. إِنَّ فِي أَنْ تَعُقَّنِي بَعْــضَ إِغْــضَا ... بِــي وَفِــي أَنْ تُهِيْنَنِــي إِغْــضَابِي

١٤١. فَأْتَنِفْ[2] تَوْبَــةً وَرَاجِــعْ فِعَــالاً ... تَرْتَــضِيْهِ الأَسْــلافُ لِلأَعْقَــابِ

---

(١) تنصل: تخلص بالسيف.

(٢) فأتنف: استأنف، ابتدئ.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

الشريحة الأولى:الافتتاحية (١-١٤)

١. أحمـــدُ اللّـــه حمـــدَ شـــاكرِ نُعْمَـــى قابـــلٍ شُـــكر رَبِّـــه غيـــرِ آبِ

٢. طـــار قـــومٌ بخفَّـــة الـــوزن حتـــى لحقوا رفْعَـــةً بقـــاب العُقـــابِ

٣. ورسا الراجحون مـــن جِلَّةِ النـــا سِ رسوَّ الجبال ذات الهـضابِ

٤. ولَمـــا ذاك للئـــامِ بفَخْـــرِ لا ولا ذاك للكـــرام بعـــابِ

٥. هكذا الصخرُ راجـحُ الـوزنِ راسٍ وكذا الذرُّ شائل الـوزنِ هـابِ

٦. فليَطِـــرْ معـــشرٌ ويعلـــو فـــإني لا أراهـــم إلا بأســـفل قـــابِ

٧. لا أعـــدُّ العلـــوَّ مـــنهم عُلـــواً بل طُفُوّاً يمـــينَ غيـــرِ كِـذابِ

٨. جِيفٌ أنتنت فأضحتْ علـــى اللُّجْـــ جَة والدُّرُّ تحتها فـــي حجـــابِ

٩. وغُثـــاءٌ عـــلا عُبابـــاً مـــن اليمْـــ مِ وغاص المَرْجانُ تحت العُبابِ

١٠. ورجـــالٌ تغلَّبـــوا بزمـــانٍ أنا فيـــه وفـــيهُم ذو اغتـــرابِ

١١. غلبـــوني بـــه علـــى كـــل حـــظٍّ غيرَ حظٍّ يفوتُ كـــلَّ اغتـــصابِ

١٢. إنني مؤمنٌ وإني أخـــو الحقّـــ قِ علـــيمٌ بفَرْعـــهِ والنِّـــصابِ

١٣. إن تغلبـــوا بغالِـــب مغلـــو بٍ فحـــسبي بغالـــبِ الغَـــلاّبِ

١٤. وبخِـــلٌ إذا اختللـــتُ رعـــاني بالـــذي بيننـــا مـــن الأســـبابِ

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يستهل ابن الرومي قصيدته بحمد الله على نعمائه، وشكره على ما هو عليه من حال، وهذه علامات المؤمن الذي يحمد الله في السراء والضراء، ويوظف ابن الرومي صيغة الفعل المضارع (أَحْمَدُ) للدلالة على استمرارية حمده لله في كل الأحوال والظروف، ومن ثم ثبات إيمانه وهو في هذا المطلع يرسم صورة لنفسه، من خلال صيغة اسم الفاعل (شاكر، قابل، آبِ) فهو حامد وذاكر لربه، وشاكر له على نعمه، وهو بذلك يضع نتائج لما سيقدم فيما بعد من أحداث ومواقف، فكثرة المصائب، وتعقد أحداث الحياة وتغير مجرياتها، لا تفقده إيمانه بالله.

وربما استدعى ابن الرومي هذه الصفات الإيجابية المستوحاة من روح الدين ليسبغ على شخصه طابعاً دينياً يستحق الاحترام والحضور في المجتمع، فإنسان يتمتع بهذه الصفات لا بد وأن يكون على قدر من الصلاح والصدق فيما يقول، ولذا نجده يوظف المعاني الدالة على ذلك، فكل كلمة في البيت تحمل دلالة الإيمان (أحمد، الله، حمد، شاكر، نعمى، قابل، ربه، غير آبِ) وكأنه يريد بأن إيمانه بالله متأصل فيه وممتد لا ينقطع في لحظة رخاء أو شدة.

ويذكرنا ابن الرومي في هذا المطلع بافتتاحية الخطبة التي يستهلها الخطيب بذكر الله وحمده على نعمه، وهو يعي أهمية المقدمة الدينية إذ إنها مدعاة للسمع ما إن يستوثق من استماع جمهوره وتعلق قلوبهم بما يقول حتى يبدأ الحديث في موضوعه الذي يريد.

وقد أشارت بعض الدراسات إلى هذه السمة الفنية لدى ابن الرومي إذ "كان يفتتح بعض قصائده بمقدمات دينية، تقوم على التسبيح بحمد الله وفي ديوانه أربع منها يهيئ بها الممدوح، فهي أدعى إلى الإنصات والانتباه، فضلاً عن أنها تناسب شخصية هذا الممدوح"[1].

---

(1) د. سامي يوسف أبو زيد، و د. عبد الرؤوف زهدي: بناء القصيدة في شعر ابن الرومي، مجلة علوم إنسانية ، العدد ٣٥ ، السنة الخامسة ، ٢٠٠٧ . www.ulum.nl

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

وبعد هذه المقدمة الدينية ينقلنا ابن الرومي إلى إيقاع موسيقي مختلف تتراوح نغماتـــه بين ارتفاع وانخفاض ليتناسب مع مضمون أبياته، إذ يقدم لنا مفارقة لم يشهدها من ذي قبـــل، ويضعنا كذلك أمام تناقض شديد من تناقضات الحياة التي تخرج عن المألوف والمنطق، وذلك يتمثل باختلال موازين الحياة واضطراب المعايير الاجتماعية التي تسود كل مجتمع؛ فأصحاب العقول السخيفة والجهلة من الناس أصبحوا في أسمى المراتب بل أصبحوا من أصحاب النفوذ والسيادة، ووصلوا إلى مراكز حساسة في الدولة وأجهزتها، بينما أهل الرجاحة مـــن أجـــلاء الناس وعلمائهم وأهل الأدب والمعرفة دثروا تحت المطامع والأهواء، وحرموا من المشاركة في فعاليات مجتمعهم، لا لقصور هممهم بل خوفاً من قوتهم الفكرية والعلمية، فالفكر والعلم لا يقبلان ضعيفاً أو إنساناً سلبياً أو عدواً مداهناً، فيقول:

طار قومٌ بخفَّة الـــوزن حتـــى لحقوا رفْعَـــةً بقـــاب العُقـــابِ
ورسا الراجحون من جِلَّة النا سِ رسوَّ الجبال ذات الهـــضابِ

وقد استخدم ابن الرومي الصورة الفنية لتنقل الواقع بدقة ووضوح إذ صوَّر الـــسفهاء من قومه وقد وصلوا أعلى المراتب بأجسام خفيفة الوزن طارت حتى وصلت مستوى طـــائر العقاب، وصوّر العلماء وأجلة الناس بأجسام ثقيلة رست واستقرت في القاع، وقد مـــنحهم أي العلماء وأجلة الناس الثبات والأهمية في الوجود فهم كالجبال في عظمتها وشموخها وتثبيتهـــا الأرض.

والشاعر في هذين البيتين يوظِّف الحقائق العلميَّة في تأكيد رؤيته، فالأجسام الخفيفـــة سريعة الطيران وسهلة الحركة والأجسام الثقيلة ترسو ويصعب تحريكها من أماكنهـــا، وقـــد استخدم ابن الرومي الطباق لتحقيق هذه المفارقة التي يشهدها عصره في قوله (طار، رســـا) ولايفوته أن يبين للسامع أو القارئ- مستعيناً بحرف الجر (بـــ) الذي يفيد السببية -أنّ ارتفاع هذه الأجسام ليس سمواً ورفعة، إنما سببه خفة الوزن (طار قوم بخفة الوزن) ثم ينتقل بحركة

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

عكسية تماماً (رسا) للحديث عن أجلة الناس الذين لم يحالفهم الحظ، ولم يحظوا برضا السلطة لتعلي من شأنهم، ولا يفوت ابن الرومي –كذلك– أن يضفي المعاني الإيجابية على كلمة (رسا) فيجعل رسوهم كرسو الجبال التي لا يمكن أن تخفى عن الأنظار أو تستغني عنها الأرض.

إن الشاعر يكشف عن حقيقة في مجتمعه وعن تباين في القدرات والحظوظ، وهو يطرح قضية عامة ينتقل منها إلى قضيته ومعاناته الخاصة دون أن يشعرنا بذلك، فإن عدم رضاه عن هذا التباين في مجتمعه يعني أنه ممن ساء حظهم رغم رجاحة عقله، وسداد رأيه، وقوة عزيمته.

ومن اللافت للنظر أنّ ابن الرومي يقف موقف الندِّ لندِّه من هؤلاء السفهاء الذين نالوا الحظوة والمكانة في مجتمعه، إذ إنه ينال منهم من خلال معاني مفرداته وصوره الفنية، فارتفاعهم سببه خفة الوزن لا غير ذلك، كما يجعلهم نكرة (قومٌ) في حين جعل العلماء وأجلة الناس من قومه –الذين لم ينالوا حظهم ومكانتهم– جعلهم معرفة (الراجحون) موظفاً أصوات الحروف (الراء، الجيم، الحاء) التي توحي بالقوة والثبات.

نلاحظ كثرة حروف المد في هذين البيتين (طار، قوم، الوزن، لحقوا، قاب، العقاب، رسا، الراجحون، الناس، الجبال، ذات، الهضاب) وهو بذلك يطلق أنفاسه المكبوتة، ويمد آهاته وكأنه ينطلق من مساحات ضيقة ومقيدة من عالمه المشبع بالمعاناة إلى مساحات واسعة وممتدة في الفضاء الخارجي، إذ أصبح لا يقوى على تحمل أعبائه وهمومه، ولكثرتها فإنها تشق جدران صمته لتدوي في عالم أرحب ينبغي أن يشاركه تلك الآلام والمعاناة.

ويدرك ابن الرومي أن علوَّ المكانة لا يمنح الإنسان الفخر، لأنه مهما بلغ من علوٍّ وسيادة فإن ذلك لا يغير من جوهره شيئاً، كما لا ينقص سوء الحظ وقلة الحظوة والمكانة من

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

أصحاب العقول والحصافة شيئاً؛ لأنهم قد حققوا منزلة علمية وفكرية لا يعوضـــها المـــال أو المرتبة.

ولَما ذاك للئامِ بفَخْـــرِ لا ولا ذاك للكرام بعـــابِ

ويحدث النفي هاهنا إيقاعاً موسيقياً يتناسب مع الحالة النفسية لدى الـــشاعر والمعنـــى الذي يسعى إلى تحقيقه، إذ لم يكتف بالنفي مرة واحدة عند الحديث عن اللئام (ولماذا للئام) ثم قوله (لا) بينما عند الحديث عن الكرام من قومه اكتفى باستخدام أداة النفي (لا) مـــرة واحـــدة (ولا ذاك للكرام بعاب).

ولو تأملنا تتابع أداة النفي (لا ولا) لوجدناها تحقق نغمة موسيقية سريعة بين نغمتـــين بطيئتين (ولما ذاك للئام بفخر) و (ولا ذاك للكرام بعاب) ناهيك عن السجع الوارد في كلمتـــي (لئام، كرام)، ولعل هذه النغمة الموسيقية السريعة كان سببها انشغال الشاعر بالكرام من قومه وقلقه نحوهم، فرغب في الانتقال السريع إلى الحديث عنهم ويستمر ابن الرومي فـــي رســـم صوره الفنية ليستوفي المعنى الذي يريده وقد امتاز بهذه السمة الفنية من بين شعراء عصره، فيقول ابن رشيق: "وكان ابن الرومي ضنياً بالمعاني، حريصاً عليها، يأخذ المعنـــى الواحـــد ويولده، فلا يزال يقلبه ظهراً لبطن، ويصرفه في كل وجه، وإلى كل ناحية حتى يميته، ويعلم أنه لا مطمع فيه لأحد"[1].

وكذلك قال عنه ابن خلكان: "صاحب النظم العجيب، والتوليد الغريب، يغوص علـــى المعاني النادرة، فيستخرجها من مكامنها ويبرزها في أحسن صورة، ولا يترك المعنى حتـــى يستوفيه إلى آخره، ولا يبقى فيه بقية"[2].

---

(1) ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر، ٢ / ٢٣٨.

(2) ابن خلكان: وفيان الأعيان، ٣ / ٣٥٨.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لم يكتف ابن الرومي في هذه القصيدة بتصويره لكلٍّ من سفهاء مجتمعه وأجلته بالبيتين:

طار قومٌ بخفَّة الوزن حتى لحقوا رفْعَةً بقاب العُقابِ
ورسا الراجحون من جلَّة النا سِ رسوَّ الجبال ذات الهضابِ

بل نجده يقدم الصورة ثم يعلق عليها برأيه وكأنه مصور وأديب، يكتب تعليقه في آخر الصورة بلغة طريفة وبليغة، فبعد هذه الصورة الأولى يعلق على ذلك بقوله:

ولَما ذاك للئامِ بفَخْرٍ لا ولا ذاك للكرام بعابِ

ثم ينتقل إلى صورة أخرى هي استكمال للصورة السابقة، إذ إنَّه يحرص على إعطاء الصورة أبعاداً متنوعة وفي الوقت نفسه يحرص على الإحاطة بها من زوايا مختلفة تماماً مثلما يفعل المصور البارع الذي لا يكتفي بالتقاط الصورة من جهة واحدة، فينتقل من موقع لآخر، من أعلى وعن يمين أو شمال، ومن قريب أو بعيد، حتى يحيط بالشخص المراد تصويره من جميع الاتجاهات والزوايا، وكذلك ابن الرومي يفعل؛ إذ يسقط ما في الطبيعة والبيئة من حوله على معانيه ومفرداته، فتتجلى الصورة الثانية بنفس شخوصها مع اختلاف المشبه به، فالعلماء وأجلة الناس المغمورون في مجتمعه كالصخر الراجح الوزن الراسي لثقل وزنه، وأصحاب الحظوة والمنزلة من السفهاء كالذَّر (صغار النمل) الذي لا وزن له وبمجرد هبوب الريح فإنه يتطاير كما يتطاير الغبار.

وقد استعار ابن الرومي من البيئة رموزه، فالصخر رمز الصلابة والقوة والثبات، والنمل يوحي بصغر الحجم والضعف، فقد قال:

هكذا الصخرُ راجحُ الوزنِ راسٍ وكذا الذرُّ شائلُ الوزنِ هابِ

ويبدو أن ابن الرومي اعتمد على نوع من الحركة واتجاه واحد معاكس من الأعلى إلى الأسفل، لكنه غيَّر في نظرة المرء لكل ما هو أعلى أو أسفل في الدنيا، فالأعلى (طار،

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

شائل الوزن هاب) لم يعد يمثل أنموذجاً ومثالاً كالعادة، والأسفل أصبح مكاناً لغير أهله، للأجلة العلماء.

إن هذه الحركة المتناقضة باتجاهها ومدلولاتها تمثل صورة لواقع المجتمع العباسي في عصره الثاني، إذ ارتفع أناس ليسوا على قدرمن الكفاءة والخبرة والمعرفة، وحط شأن من هم أهل للسمو والمكانة والرفعة.

وكما سبق ذكره بأن ابن الرومي لا يكتفي بالتصوير، بل يسجل تعليقاته الطريفة بعد كل صورة، إذ يرى بأنه من أهل الكفاية والمعرفة ويجد في نفسه أيضاً القدرة على اتخاذ الموقف من هذا التباين والتناقض في مجتمعه، فماذا عساه يقول إزاء هذا التناقض:

فليَطِرْ معشرٌ ويعلو فإني لا أراهم إلا بأسفل قابِ

فابن الرومي لا يبالي بشأن هؤلاء السفهاء مهما بلغوا من مناصب ومكانة فهم في نظره أسفل الناس.

أما تعليقه على هذه الصورة –صورة الصخر والذر– فيتمثل في قوله:

لا أعدُّ العلوَّ منهم عُلُواً بل طُفُوّاً يمينَ غيرِ كِذابِ

إذن العلو هنا لم يكن علواً حقيقياً إنما طفو، وهو استخدام بارع لمعاني الكلمات ودلالاتها، فالعلو يحمل معنى إيجابياً، وهنا يحرص ابن الرومي على إقرار الحقائق على ما هي عليه، فالعلو لم يكن حظ السفهاء من قومه بل كان حظهم الطفو، والطفو يحمل معنى الخفة والموت واليباس.

ويوظف ابن الرومي أسلوب النفي لتأكيد رؤيته (لا أعدُّ)، ويحدد العلو المرفوض في نظره بقوله (منهم) ليخرج بذلك من دائرة التعميم إلى التخصيص.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهو باستخدامه لفظة الطفو ودلالاتها يمهد للصورة التالية لحال مجتمعه ومسؤوليه وأصحاب المناصب والمكانة والرفعة، فيصورهم بالجيف الميتة التي تطفو على وجه الماء، وهو بذلك يجردهم من ملامح الحياة ويسلبهم القيمة والفاعلية، فيقول:

جِيفٌ أنتنت فأضحتْ على اللُّجْ جَةِ والدُّرُّ تحتها في حجابِ
وغُثاءٌ علا عُباباً من اليمْـ مِ وغاص المَرْجانُ تحت العُبابِ

ولا يكتفي بأن جعلهم جيفاً بل يبالغ في تحقيرهم وتشويههم، إذ إنَّ هذه الجيف تصدر رائحة نتنه دلالة على موتها منذ زمن، ونلاحظ ونحن نقرأ شعر ابن الرومي أنه يتكئ على الطبيعة اتكاء الرسام على الألوان، والكاتب على الحروف، والموسيقي على الأنغام، فصوره حية مستوحاة من الطبيعة، يستعير الجزئيات والأجسام الجامدة والمتحركة ليركب منها صورة واحدة كلية أو مشهداً متكاملاً، ويحرص على استيفاء الصورة جميع عناصر الحياة وملامحها، من حركة ولون وصوت ورائحة، فهو يقابل حاسة بحاسة وحركة بحركة معاكسة، فحاسة الشم (أنتنت) تقابلها حاسة اللمس (الدر تحتها)، والحركة المعاكسة من الأعلى إلى الأسفل دائماً حاضرة في صوره (على اللجة)، و(الدر تحتها) وقوله أيضاً (علا عباباً) و (غاص المرجان).

ومن اللافت للنظر أن ابن الرومي لديه القدرة على إقامة علاقات بين الصورة والحرف وصوته، فصورة الجيف تتناسب مع صوت الجيم والياء والفاء ثم التنوين، وصورة الدر تتناسب مع صوتي الدال والراء، وكذلك فابن الرومي يوفق بين اللفظ والمعنى، فلفظتا (جيف وغثاء)توحيان بالخواء والموت وانعدام القيمة، وكذلك توحي لفظتا (الدر والمرجان) بالقيمة المادية والجمالية والأهمية.

وقد اعتمد ابن الرومي كثيراً على الطباق في تصويره من أجل إقامة المفارقات، و زخرت قصائده بهذه السمة الفنية التي تعبر عن وجه من وجوه ثقافته اللغوية والكونية،

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

والجدلية بصورة خاصة، فهو يعد اللفظة المفردة عالماً كعالم نفسه يجوس خلاله، ويقف على سطوحه، ويرى من ورائه، ويستشف من داخله أبعاد الوجود"[1].

فلا يكاد يخلو بيت من أبيات قصيدته هذه من طباق مثل قوله: (طار، رسا) و(راجح، شائل) و (علا، غاص) ...الخ وهو استخدام تبدو فيه براعة وجِدَّة دون تكلف أو صنعة، فهو يقصد إلى المعاني ويستوفيها لا الألفاظ لذاتها.

وبعد أن تعرض ابن الرومي إلى طبقتين من مجتمعه، متفاوتتين في المكانة والرفعة والعلم والجهل، وقد أخذت كل منهما مكانة لا تستحقها -رفعة أو دنوّاً- نجده يكشف عن أسباب معاناته الذاتية لينتقل بحركة معاكسة اعتدناها في قصيدته من الآخر إلى الذات، ومن الخارج إلى الداخل، فهو إنسان مغلوب لم يسعفه الحظ كما أسعف غيره، وهو فرد من المغلوبين وأصحاب الحظ التعس في هذا الزمان، ولأنه لم يحقق مساعيه ولم ينجح في إقامة علاقات مع المحظوظين في مجتمعه من أصحاب المكانة والجاه والسلطة، وهو الأجدر منهم، والأكثر علماً ورجاحة عقل _ برأيه _ .

ولذا انتابه شعور بالغربة بل أصبحت إحدى معاناته، إنها غربة مضاعفة، غربة مع الذات والآخر، وغربة مع الزمن الذي يسير عكس اتجاهه، وكأن الاتجاهات المتناقضة تشغل ابن الرومي لأنها تخلق التناقض، فيقول:

ورجـــالٌ تغلَّبـــوا بزمـــانٍ ... أنا فيه وفـيهُم ذو اغتـرابِ
غلبوني به علـــى كـــل حـظٍّ ... غيرَ حظٍّ يفوتُ كلَّ اغتـصابِ
إنني مؤمنٌ وإني أخو الحقّـ ... ـقّ عليمٌ بفَرْعـهِ والنِّـصابِ
وبخلٍّ إذا اختللـتُ رعـاني ... بالذي بيننـا مـن الأسـبابِ

---

(1) د. علي شلق: ابن الرومي، ملامح وأبعاد، الشركة الشرقية، لبنان، ١٩٧٠، ص١٠٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library- Yarmouk University

إن موقف ابن الرومي من الزمن موقف مأزوم، إذ إنَّ الزمن هو سبب معاناته عندما بخل عليه بحظ طيب، وفي الوقت نفسه هو سبب رفعة قوم دونه علماً ومعرفة وكفاءة، ويحقق حرف الباء الذي يفيد السببية في كلمة (بزمان) هذا المعنى، كما يدل حرف العطف في قوله (أنافية وفيهم) على ازدواجية الغربة في نفس ابن الرومي، فهي غربة مزدوجة مركبة، غربة مع الذات وغربة مع الآخر، ويرافق هذا الشعور –الغربة– شعور بالغلب والخسارة، ويتسم هذان الشعوران بالسعة والامتداد في نفسه مثلما يبدو في قوله: (أنا فيه وفيهم ذو اغتراب) وقوله: (غلبوني به على كل حظِ) وعندما يفقد كل أسباب السعادة وتبلغ أزمتة حداً كبيراً يجد من هو أقوى من هؤلاء الغالبين، وأكبر من كل حظ فاته، إنه الإيمان بالله وقدرته، وهنا تتضاءل كل القوى وتتلاشى أمام قوة الله والإيمان الصادق بأنه على حق.

ويلفت النظر ولع ابن الرومي باستخدامه الأسماء المشتقة كاسم الفاعل والمفعول، والصفة المشبهة، وصيغة المبالغة، كما في قوله:

إن تغلبوا بغالبٍ مغلو ... بٍ فحسبي بغالبِ الغَلاّبِ

ومع أن ابن الرومي يحاول أن يعزي نفسه ويخفي أحزانه وغلبه في هذا المجتمع، فإن حرف الغين المتكرر بشكل لافت يوحي بالغصَّة والاختناق، إذ تكرر عشر مرات في بيتين عدا غيرهما من الأبيات: (تغلبوا، اغتراب، غلبوني، غير، اغتصاب، تغلبوا، غالب، مغلوب، غالب، غلاب).

وإن كان ابن الرومي يلوذ بالله معيناً وناصراً له، فإنه لا يخرج عن نطاق دائرة البشر التي هو واحد منها، ولا يستغني عنها، فالخل الوفي والصادق هو أيضاً عون على الأزمات والملمات، وقد استطاع ابن الرومي أن يخرج بسلاسة إلى غرض قصيدته الرئيسي وهو عتاب أبي سهل بن نوبخت، إذ كان –أبو سهل– هو ذلك الخل الذي ألفه، واستند إليه في حياته المزدحمة بألوان المعاناة فيقول:

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

الشريحة الثانية: شريحة العتاب (١٥ – ٤١):

١٥.وبخـــلٍ إذا اختللـــتُ رعـــاني بالـــذي بيننـــا مـــن الأســـبابِ
١٦.كـــأبي ســـهلِ المُـــسَهِّلِ مـــأتَى كلِّ عُـــرْفٍ وفـــاتحِ الأبـــوابِ
١٧.يا بن نوبختٍ المَـــزُورَ علـــى البُخْ ت تَغالَى في سيرها والعِـــرابِ
١٨.أنـــا شـــاكٍ إليـــك بعـــضَ ثِقـــاتي فافهم اللحنَ فهـــو كـــالإعرابِ
١٩.لـــي صـــديقٌ إذا رأى لـــي طعامـــاً لم يكد أن يجودَ لي بالـــشرابِ
٢٠.فـــإذا مـــا رآهمـــا لـــي جميعـــاً كَفيـــاني لديـــه لُـــبسَ الثيـــابِ
٢١.فمتـــى مـــا رأى الثلاثـــة عنـــدي فهْي حسبي لديه مـــن آرابـــي
٢٢.لا يرانـــي أهـــلاً لمِلْـــكِ الظَّهـــار يٍّ ولا موضعَ العطايا الرِّغـــابِ
٢٣.وكـــأني فـــي ظَنِّـــهِ لـــيس شـــأني لَهْوَ ذي نُهيَـــةٍ ولا مُتَـــصابِ
٢٤.فـــيَّ طبـــعٌ ملائكـــيٌّ لديـــهِ عازفٌ صادفٌ عـــن الإطـــرابِ
٢٥.أو حماريَّـــةٌ فمقـــدارُ حظِّـــي شَـــبعةٌ عنـــدهُ بـــلا إتعـــابِ
٢٦.إنمـــا حظـــيَ اللَّفـــاءُ لديـــهِ مَع ما فيهِ بي مِـــنَ الإعجـــابِ
٢٧.لـــيس ينفـــكّ شـــاهداً لـــي بفهـــمٍ وبيـــانٍ وحكمـــةٍ وصـــوابِ
٢٨.ومتى كـــان فـــتحُ بـــابٍ مـــن الـــلَّ ه توقعتُ منـــهُ إغـــلاق بـــابِ
٢٩.كاتبٌ حاســـبٌ فقـــد عامـــل الخـــلْ لَةَ بينـــي وبينـــهُ بالحـــسابِ
٣٠.ليس ينفـــكّ مـــن قِـــصاصي إذا أح سنَ دهرٌ إليَّ أو مـــن عقـــابي
٣١.كلمـــا أحـــسن الزمـــانُ أبَـــى الإح سانَ يا للعُجابِ كـــلِّ العجـــابِ
٣٢.أحمـــدُ اللهَ يـــا أبـــا ســـهل الـــسه لَ مـــرامِ النـــوال للطُـــلاَّبِ
٣٣.والفتى المُرتجَـــى لفـــصل القَـــضايا عند إشكالها وفـــصلِ الخطـــابِ
٣٤.لـــمْ إذا أقبـــلَ الزمـــانُ بإخـــصا بٍ تربّعتُ منـــك فـــي إجـــدابِ
٣٥.أترى الدهرَ ليس يُعجب مـــن هَـــيْ جك عتبي إذا نـــوى إعتـــابي
٣٦.وتجافيـــكَ حـــين يعطـــفُ والـــوا جبُ أن تستهلَّ مثل الـــسحابِ
٣٧.أفـــلا إذا رأيـــتَ دهـــري ســـقاني بِـــذَنوبٍ ســـقيتني بِـــذنابِ
٣٨.أيـــن منـــك المنافـــساتُ اللـــواتي عَهِدَ الناسُ من ذوي الأحسابِ
٣٩.أيـــن منـــك المقايـــساتُ اللـــواتي عَهِدَ الناسُ من ذوي الألبـــابِ
٤٠. مـــا هنَـــاتٌ تعرضـــتْ لـــك فَلَّـــتْ منك شُـــؤبوبَ ســـابحٍ وثَّـــابِ
٤١.أمـــن العـــدلِ أن تعُـــدَّ كثيـــراً لـــيَ مـــا تـــستقلُّ للأوقـــابِ

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تمثل الأبيات (١٥-٤١) غرض القصيدة الرئيسي، وهو عتاب أبي سهل بن نوبخت لتأخر عطائه وصلته، ومن الجدير بالذكر أن ابن الرومي مهَّد لشريحة العتاب من قصيدته بمقدمة نقدية، بين فيها تفاوت طبقات مجتمعه، وصنَّف نفسه من الطبقة التي لحقها الضيم والجور، ثم تسلَّح أمام الطبقة الغالبة والمترفة بالإيمان وبالصديق المخلص، وهو يوحي من بعيد لأبي سهل أنه هو ذاك الصديق المخلص الذي كان ينتظر منه الإنصاف.

جعل ابن الرومي البيتين الأخيرين من المقدمة مفتاحاً لعتابه الموجه لأبي سهل بن نوبخت حين قال:

إن تغلبوا بغالِب مغلو ... بٍ فحسبي بغالبِ الغَلاّبِ

وبِخلٌ إذا اختللتُ رعاني ... بالذي بيننا من الأسبابِ

إن العلاقة التي تربطه بهذا الصديق تتجاوز حدود الصداقة والصحبة إلى حد الارتباط بالنسب، وهو بذلك يسبغ على هذه العلاقة درجة من المتانة والقوة.

ثم يوظف ابن الرومي حرف (الكاف) الذي يفيد التشبيه ليحدد ذلك الصديق وينتقل بذلك من دائرة التعميم و(بخلٌ) إلى التخصيص والتحديد (كأبي سهل) ليكون الصديق والخل المعني بالحديث هو أبا سهل.

ويمتلك كذلك ابن الرومي قدرة بلاغية ومهارة لغوية في توجيه خطابه، موظفاً أسلوب الالتفات لينتقل من ضمير المتكلم (قلت) إلى المخاطب (يا ابن سهل)، فيوجه عتابه إليه بطريقة غير مباشرة فيها شيء من التورية، إذ أخذ يشكو إليه بعض أصحابه الثقات، ويحدثه عن تقصير أحد أصحابه تجاهه إذ ضن عليه بالعطاء، واكتفى بعطائه المتطلبات الأساسية للحياة كالطعام والشراب والملبس، في حين يرى -ابن الرومي- أنه يستحق العطاء الوفير.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

ويشير هاهنا إلى أن الإنسان بطبيعته يميل إلى اللهو والتصابي وإن كان ذا عسرة، فالنفس البشرية تنزع أحياناً إلى الخروج عن الجادة والاستقامة، لأنها في بحث دائم عن السعادة والمتعة، وفي خروجها هذا تجد شيئاً من السعادة، فالإنسان مهما بلغ من اتزان أو رجاحة عقل إلا إنَّه يظل إنساناً يميل إلى اللهو والطرب لا ملاكاً معصوماً عن الخطأ والزلل، إذ يقول:

وكأني في ظنِّهِ ليس شأني ... لَهْوَ ذي نُهيَةٍ ولا مُتصابِ
فيَّ طبعٌ ملائكيٌّ لديهِ ... عازفٌ صادفٌ عن الإطرابِ

لقد طلب ابن الرومي من صاحبه أبي سهل منذ بداية شريحة العتاب أن يفهم اللحن الوارد في شعره، وهو يشير هنا إلى قضية اللحن التي كان العرب يستخدمونها أحياناً في مواضع لا يريدون فيها أن يفهمهم غير أناس معينين، فاللحن هنا بمثابة الإعراب، أو إن صح التعبير شيفرة تبعث لشخص محدد يعرف مفاتيحها ورموزها، وبالتالي على أبي سهل أن يفهم أنه الصديق المعني بالحديث لا غيره.

وإذا كان أبو سهل صديقاً مخلصاً فإن عليه حق الوفاء لصديقه، وإن قصر فإن العتاب لا يفسد الصداقة، فكان على أبي سهل أن يدرك أن ابن الرومي إنسان مثله لديه رغبات وأهواء وأمنيات في هذه الحياة يجدر به أن يراعيها أو يساهم في تحقيقها له.

ولا يفوت ابن الرومي أن يصور نصيبه من هذه الدنيا وقلة حظِّه مع صديقه الذي ظن أنه ملاك لا يحتاج إلى متاع الدنيا، أو أنه حمار يكتفي بسد جوعه وإشباع بطنه، فيقول:

فيَّ طبعٌ ملائكيٌّ لديهِ ... عازفٌ صادفٌ عن الإطرابِ
أو حماريَّةٌ فمقدارُ حظّي ... شَبعةٌ عندهُ بلا إتعابِ

يضعنا ابن الرومي في هذا التصوير أمام عالمين: مثالي (ملائكي) و حيواني (حمارية)، وهو بذلك يقدم لنا فلسفة في كينونة الإنسان وحقيقته، فهو يمثل عالماً خاصاً به لا

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

هو بالملائكي و لا هو بالحيواني، إنما هو كائن يجمع بين العقل والعاطفة، وبالتالي فإن أفعاله وتصرفاته تنبثق عنهما.

ويبدو أن ابن الرومي يعيش في إشكالية مع حظه الذي يسير في حركة معاكسة طالما أقلقته، فلم يكن له من صديقه إلا كل يسير وحقير في حين كان يبدي له الإعجاب ويشهد له بالفهم والبيان والحكمة والصواب، وأبو سهل لا يكتفي بالعطاء اليسير له بل يسد أمامه الأبواب ويقسو عليه ويحرمه، حتى يضيق به الأمر وتتفجر آهاته، وتنطلق أنفاسه المكبوتة ليسمعها العالم الخارجي.

ويمثل تكرار حرف الباء المنون بموسيقاه صوت دوي وانفجار هما انعكاس لما في داخله الباطني (كاتبٌ، حاسبٌ) فضلاً عن كثرة التنوين في أبيات القصيدة جميعها الذي يبعث أصوات الأنين والألم، كما جاء في أحد الأبيات: (شاهداً، فهمٍ، بيانٍ، حكمةٍ).

وبعد أن أطمأن ابن الرومي إلى أن أبا سهل بن نوبخت قد فهم لحنه وأدرك مرمى حديثه انتقل ضمن شريحة العتاب نفسها (١٥-٤٠) إلى العتاب المباشر مصدراً عتابه بصيغة الفعل المضارع (أحمدُ) ليؤكد استمرارية حمده لله، الذي استهل به قصيدته، فهو رغم قسوة أبي سهل عليه وقلة عطائه إلا أنه يحمد الله على كل حال، ثم يشرع بذكر فضائل أبي سهل، فهو معطاء، وصاحب كلمة فصل في القضايا والدعاوى والنزاعات، إذ يقول فيه:

أحمدُ اللهَ يا أبا سهل السهـ ... لَ مرامِ النَّوال للطُلاَّبِ
والفتى المُرتجَى لفصل القَضايا ... عند إشكالها وفصلِ الخطابِ

ويشكل الإيقاع دوراً في تشكيل المعنى والكشف عن الحالة النفسية التي يعيشها الشاعر، إذ أن الإيقاع في هذين البيتين إيقاع فيه هدوء وبطء، فتتوالى حروف المد (مرام، نوال، طلاب، الفتى، المرتجى، قضايا، أشكالها، الخطاب) وهذا التوالي يسهم في تشكيل

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

جزئيات الموقف الوجداني لدى الشاعر، إضافة إلى حرف النداء (يا) الذي يتيح ارتفاع المدى الصوتي، "وهو أتاح أمام الشاعر ليبث صديقه شكواه، مخرجاً مع هذه الألف مواجع قلبه المفعم بالهموم"[1].

ثم يأخذ الإيقاع الصوتي بالتسارع من خلال توالي حرف متحرك يليه ساكن (إذا، الزمان، بإخصاب، تربعت، فيك، إجداب) ويوحي هذا الانتقال في الإيقاع الصوتي من البطيء والهادئ إلى السريع والمتحرك بأن الشاعر ازدادت حدة شعوره وزاد انفعاله.

ويسهم الجناس في إبراز المعاني وتجليتها، إذ إنَّ أبا سهل له من اسمه نصيب إذ يسهل طلب العطاء منه وإن خيب آمال صاحبه –ابن الرومي– في أيام شدته ومحنته.

لذلك انبرى يواجهه بالعتاب الصريح المباشر بقوله:

لِمَ إذا أقبلَ الزمانُ بإخصا ... بِ تربّعتُ منك في إجدابِ
أترى الدهرَ ليس يُعجب من هَيْـ ... ـجك عتبي إذا نوى إعتابي
أفلا إذا رأيتَ دهري سقاني ... بِذَنوبٍ سقيتني بِذنابِ
أين منك المنافساتُ اللواتي ... عَهِدَ الناسُ من ذوي الأحسابِ
ما هنَاتٌ تعرضتْ لك فَلَّتْ ... منك شُؤبوبَ سابحٍ وثَّابِ
أين عن مُعْرِقٍ من الخيلِ طرفٍ ... عزَّ إحضارُهُ اقتحامَ العُقابِ
أمن العدلِ أن تعُدَّ كثيراً ... ليَ ما تستقلُّ للأوقابِ

لا يكاد يخلو بيت من هذه الأبيات من أسلوب الاستفهام الذي يخرج معناه للإنكار، بعد أن قدَّم الشاعر لهذه الأبيات بذكر فضائل أبي سهل وطيب كرمه، وكأنه يستنكر منه أن يجمع النقيضين السخاء والكرم ، والمنع والتقتير، ويتكرر الاستفهام في هذه الأبيات بشكل لافت للنظر (لم، أترى، أفلا، أين، ما، أين، أمن العدل).

---

[1] د. ابتسام أحمد حمدان: الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي، دار القلم العربي، حلب، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ص ١٧٧–١٧٨.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهو يرمي من وراء تكرار هذا الاستفهام إلى مراجعة أبي سهل ذاته وتقصيره مع صديقه ثم محاولة استثارة مشاعره وكسب وده وعطائه.

وفي هذا السياق يبدو الدهر في صورة إيجابية لدى ابن الرومي على غير العادة في حين يكون الصديق سبب الشكوى والحزن، موظفاً الطباق بشكل واضح لعرض صورة كل منهما، فالدهر (يخصب، يعطف، يسقي، ذنوب) في حين أن صديقه أبا سهل (يجذب، يجا في، ويسقي بذناب).

ويوحي الاستفهام المتكرر في هذه الأبيات بإيقاع موسيقي متسارع إلى جانب التدوير في أبيات عدة منها ليدل على دفقات شعورية تملأ نفس الشاعر فيسمح له الاستفهام بإخراجها ويحقق لنفسه الراحة.

كما تشيع في هذه الأبيات وغيرها من القصيدة روح الجدل والحجاج مما يجعله "يسرف في تقصي المعاني واعتصارها اعتصاراً شديداً لا يبقى فيه زيادة لمزيد مع المحافظة على الوحدة العضوية فيها، فكل بيت يرتبط –غالباً– بأخيه من قبل وبعد، لأن المعنى لا يكتمل إلا إذا قرأنا ما قبله وما بعده، فالمعاني عنده متولد بعضها من بعض، ولا سبيل إلى الفصل بينها في كثير من الأحيان، وهذا سبب من أهم أسباب إطالة القصائد في شعره "[1].

وهذا التقصي واضح في عدم اكتفائه بالعتاب غير المباشر مع إشارته إلى اللحن في كلامه، بل نجده يوجّه عتاباً مباشراً فيه كثير من التفصيلات والتساؤلات التي تقتضي من أبي سهل الإجابة والتعليل ويحسن ابن الرومي التخلص من الموضوع الذي يتناوله ليدخل في موضوع آخر وقضية أو ظاهرة أخرى بسلاسة وترابط، إذ جعل البيت الأخير من شريحة

---

(1) د. محمد عبد القادر أشقر: "المؤثرات البيئية والشخصية في شعر ابن الرومي، موقع موسوعة دهشة، www. dahsha. Com .٣ ص

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

العتاب الموجه إلى أبي سهل تساؤلاً عن قضية إنسانية كبرى يقوم المجتمع عليها ويسعد بها، وتحقق الرخاء والأمن، ألا وهي قضية العدل الذي غابت معالمه واختلت كفتاه في مجتمع قائم على الطبقية، وإن كان ابن الرومي يخص نفسه بمعاناته مع صاحبه أبي سهل في عدم إنصافه وميله وتمييز الأنذال والأخساء من أبناء مجتمعه، إلا إنَّه يجعل من هذا التساؤل تساؤلاً عاماً يطرحه كل فرد من أفراد المجتمع في عصره، إذ يقول:

أمـــنِ العـــدلِ أن تعُـــدَّ كثيـــراً لـــيَ مـــا تـــستقلُّ للأوقـــابِ

إن معاناة ابن الرومي هي معاناة كل ذي خبرة وكفاءة لم يأخذ نصيبه ومكانتـــه فـــي المجتمع، وبالتالي هو –ابن الرومي– نموذج للإنسان المضطهد والمغلـــوب اجتماعيـــاً فـــي عصره.

وقد اختار ابن الرومي التساؤل عن العدل ليمهد به إلى الانتقال إلى شريحة ذات صلة وثيقة به، وهي نقد اجتماعي يشمل فئات المجتمع المختلفة وما أصابه من أمراض اجتماعية .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الشريحة الثالثة : (٤١-٥٧)

٤١. أتُراني دون الأولـــى بلغـــوا الآ ... مالَ من شُرطةٍ ومـــن كُتَّـــابِ

٤٢. وتِجـــارٍ مثـــل البهـــائمِ فـــازوا ... بالمنى في النفوس والأحبـــابِ

٤٣. فـــيهمُ لُكنـــةُ النَّبـــيط ولكـــنْ ... تحتهـــا جاهليَّـــةُ الأعـــرابِ

٤٤. أصبحوا يلعبون في ظـــل دهـــرٍ ... ظاهِرِ الـــسُّخْف مـــثلهم لَعَّـــابِ

٤٥. غيرَ مُغنين بالسيوف ولا الأقْـــ ... ـلامِ في مـــوطنٍ غَنَـــاءَ ذُبـــابِ

٤٦. ليس فيهم مُـــدافعٌ عـــن حـــريمٍ ... لا ولا قـــائمٌ بـــصدر كتـــابِ

٤٧. مُتَـــــسمِّين بالأمانـــــة زوراً ... والمَتـــاتينُ أخـــربُ الخُـــرَّابِ

٤٨. كاذبي المـــادحين يعلمُـــه اللّـــَـ ... ـــهُ عُـــدول الهُجـــاة والعُيَّـــابِ

٤٩. شَغَلَتْ موضعَ الكُنى لا بِل الأسْـــ ... مـــاء مـــنهم قبـــائحُ الألقـــابِ

٥٠. خيرُ ما فـــيهُم ولا خيـــرَ فـــيهم ... أنهـــم غيـــرُ آثمـــي المُغتـــابِ

٥١. ويظلون فـــي المنَـــاعم واللـــذّا ... تِ بـــين الكواعـــب الأتـــرابِ

٥٢. لَهُمُ المُسمِعَاتُ ما يُطـــربُ الـــسا ... مـــعُ والطائفـــاتُ بـــالأكوابِ

٥٣. نَعَـــمٌ ألبـــسهُمُ نِعَـــمُ اللّـــَـ ... ـــه ظلالَ الغصون منها الرِّطابِ

٥٤. حين لا يشكرونها وهـــي تَنمـــي ... لا ولا يكفرونهـــا بارتقـــابِ

٥٥. إن تلك الغصونَ عندي لتُـــضحي ... ظالماتٍ فهل لها مـــن متـــابِ

٥٦. مـــا أُبـــالي أأثمـــرتْ لاجتنـــاءٍ ... بعد هذا أم أيبـــستْ لاحتطـــابِ

٥٧. كم لديهم للهـــوهم مـــن كَعـــاب ... وعجـــوزٍ شـــبيهةٍ بالكَعـــابِ

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

تترابط شرائح القصيدة ترابطاً واضحاً، وينتقل الشاعر من شريحة إلى أخرى بشكل سلسل دون أن يشعرنا بانفصالها أو الانقطاع فيما بينها.

وقد مهد الشاعر لهذه الشريحة -كما قلنا- بتساؤل طرحه في البيت الأخير من سابقتها، إذ قال:

أمن العدلِ أن تعُدَّ كثيراً لـيَ ما تستقلُّ للأوقابِ

كان السؤال عن العدل في معاملة أبي سهل له، سؤالاً ممهداً لصورة المجتمع وشرائحه وظواهره -أيضاً- ، فالعدل في معاملة أبي سهل لابن الرومي -يخرج من نطاق الفردية إلى الجماعة، ويفضي الحديث عنه إلى تناول صور من تهشم ملامحه واختلال موازينه ويشكل الاستفهام الإنكاري (أمن العدل؟) جرس إنذار لأبي سهل وغيره من المسؤولين لمعاودة أنفسهم، لأن العدل أساس الحكم، واضطراب موازينه يثير الخلافات والبغضاء، ومن ثم اضطراب الحكم.

ومن هنا انطلق ابن الرومي ليوجه سهام نقده إلى بعض المسؤولين والمترفين في مجتمعه، وكأنه يريد أن يكشف في هذه الشريحة -الثالثة- عمن أشار إليهم بالصور والتشبيهات في الشريحة الأولى (طار قوم بخفة الوزن، وكذا الذر شائل الوزن هاب، جيف أنتنت، وغثاء علا عبابا) فمن هم هؤلاء؟ يتبين ذلك من قوله:

أتُراني دون الأُلى بلغوا الآ مالَ من شُرطةٍ ومن كُتّابِ
وتِجارٍ مثل البهائمِ فازوا بالمنى في النفوس والأحبابِ

إنهم الشرطة والكتّاب والتُّجار، والسؤال هنا هل قصرت همة ابن الرومي وعقليته ليكون دون هؤلاء مكانة في المجتمع كان على أبي سهل -وهو الأقرب إليه- أن يعرف أنه يفوق كل هؤلاء علماً وثقافة ، وهنا يضعنا ابن الرومي في هذين البيتين أمام حقيقة إنسانية، وهي سعي الإنسان إلى الفوز والكسب، وتعلقه بالآمال دائماً، فلولا الأمل لتوقف عن العمل.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يعرض لنا ابن الرومي كذلك بعض القطاعات الأساسية في كيان الدولة، فالقطاع الأمني للدولة (الشرطة) أولاً ثم القطاع الفكري والثقافي (الكُتّاب) وأخيراً القطاع الاقتصادي (التجار) وكلها أساسية وضرورية لقيام الدولة واستمرار كينونتها وقد رتب الشاعر هذه القطاعات ترتيباً مقصوداً لذاته، فإذا ما أرادت دولة أن تبسط نفوذها ويقوم كيانها في أي بقعة كانت، فإنها لا بد أن تنشر أفرادها، وتكثف عسكرها، وتوزع أفراد شرطتها بين الأحياء السكنية والمواطنين، ليكون الضبط الداخلي أولاً، ثم تأخذ الدولة بتنظيم شؤونها الداخلية، فالدولة تنهض بعد أمنها بمفكريها وعلمائها فكان القطاع الثاني هو القطاع الفكري والثقافي، وأخيراً لا بد من موارد مالية تؤمن مستلزمات المعيشة ومتطلبات سكان الدولة، فيكون الوارد والصادر من المواد الغذائية والتموينية وغيرها، فيكون القطاع الاقتصادي ممثلاً بالتجار من القطاعات الأساسية – أيضاً– لقيام هذه الدولة ، ولأهمية هذه القطاعات ينبغي لها أن تكون على قدر من رضا المواطنين، إذ يتوقف قيام الدولة، أو انهيارها عليها.

فهل كان ابن الرومي راضياً عن هذه القطاعات؟!!!

ويكشف التشبيه الوارد في البيت الثاني عن عدم رضاه البتة عن هذه القطاعات، فهو يشبههم بالبهائم، وقد أدى حرف العطف (الواو) في (من شرطة ومن كتاب وتجار) إلى اشتراك كل هؤلاء بالتشبيه، فكلهم بهائم تفتقد إلى الإنسانية والعقل الذي يقود إلى الفهم والإدراك والإدارة و....الخ.

ولم يكتف ابن الرومي –كعادته– بتقديم الصورة أو التشبيه فقط، بل يأخذ بالتفصيل وتقصي أوجه الشبه، فهؤلاء يفتقدون فصاحة اللسان وسلامة القول ، فكلامهم فيه عجمة يشبه

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

كلام النبيط[1]، وإلى جانب ذلك فيهم جهالة أهل البدو، مع أن سلامة اللغة وفصاحة القول من أهم المقومات لشخصية كل منهم وحين شبههم ابن الرومي بالبهائم فإنه جعلهم عاجزين عن التخاطب والتواصل مع الناس؛ لعجمة ألسنتهم كحال تلك البهائم التي لا تستطيع أن تفصح عن احتياجاتها.

ومع افتقارهم لأهم المقومات المتوجبة في شخصية كل منهم إلا إنَّهم أصبحوا يرتعون في عيش هنيء، وقد حالفهم الحظ وأعطاهم الدهر حلاوته، في حين أذاق ابن الرومي وغيره التعاسة والمرارة وربما توحي صيغة المبالغة (لعَّاب) إلى كثرة مصائبه ونكباته حتى أصابه التطير، وشغله سوء الحظ وغلبة الزمان، فيقول:

فيهمُ لُكنةُ النَّبيط ولكنْ تحتها جاهليَّةُ الأعرابِ
أصبحوا يلعبون في ظل دهرٍ ظاهِرِ السُّخْف مثلهم لَعَّابِ
ليس فيهم مُدافعٌ عن حريمٍ لا ولا قائمٌ بصدر كتابِ
مُتَسمِّين بالأماناةِ زوراً والمَناتينُ أخربُ الخُرَّابِ

ويشكل النفي بـ (لا، ليس) إيقاعاً موسيقياً خاصاً يتراوح بين العلو والانخفاض من خلال ما يتخللهما من حركات، فتنخفض النغمة الموسيقية عند قوله (ليس فيهم) ثم تعلو عند تنوين الضم (مُدافعٌ) ثم تنخفض عند (لا ولا) ثم تعلو عند (قائمٌ) .

وهكذا إن هؤلاء الشرطة والكتاب والتجار لا ينفعون في أي موضع يتطلب المنفعة، فهم كطنين الذباب، وهنا يجردهم من المنفعة ويوظف عنصري الصوت والحركة (غناء ذباب) في رسم صورة متحركة لهم لكنهما –الصوت والحركة– لا تجنيان فائدة بل إنهما تثيران الغضب والاشمئزاز، فهذه الصورة يتوافر فيها عدة عناصر من شكل وحركة وصوت، لتوحي

---

(1) النبيط: قوم كانوا يسكنون بين العراق العربي والعراق العجمي، والواحد منهم نبطي، وكلامهم فيه عجمة، إذ يعبرون بعبارة صحيحة عما يريدون.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بمعاني يريدها الشاعر، فالصورة تفرض علينا نوعاً من الانتباه إلى المعنى الـذي تعرضـه، وتجعلنا نتعامل مع ذلك المعنى ونتأثر به، كما أنها " تبطئ إيقاع التلقـي بـالمعنى، وتنحرف به إلى إشارات فرعية غير مباشرة، لا يمكن الوصول إلى المعنى دونها" [1].

ولا شك أن ابن الرومي على وعي كبير بأهمية الصورة الفنية، لذا فقصائده –عامة– وقصيدته هذه –خاصة– زاخرة بالصور الفنية.

كما أن ابن الرومي على درجة من العناية بهندسة القصيدة مع الاهتمام بالمعنى، فلو تأملنا الأبيات السابقة لوجدناه يخص كل قطاع بشطر بيت، فالشرطة يناسبهم قوله: (ليس فيهم مدافع عن حريم) والكتَّاب يناسبهم (ولا قائم بصدر كتاب) وأخيـراً التجـار يناسـبهم قولـه (متسمين بالأمانة زوراً) ومن هنا يتبين دور كل قطاع، فالشرطة دورهم حمايـة الحرمـات، والكتاب دورهم توجيه الكتب وتلقيها، أما التُّجار فدورهم الأمانة في البيع والـشراء، لكـنهم جميعاً أخفقوا في القيام بأدوارهم، بل يعدهم مخربين بدرجة فائقة من خـلال صـيغتي اسـم التفضيل (أخرب) وصيغة المبالغة (خراب).

ويلاحظ القارئ شعر ابن الرومي ترابط أبياته وتقصيه المعاني، فهو يظل على علاقة قوية بمعاني مفرداته وصوره التي يقدمها منذ بداية نصه الشعري حتى آخره، ففـي الـشطر الأخير من هذين البيتين نجده يصف (الشرطة، الكتاب، التجار) بالنتونة والخراب (والمنـاتين أخرب الخراب) وهو بقوله: (المناتين) يعيدنا إلى الصورة التي قدمها لهم سابقاً (جيف أنتنت) وكأن رائحتهم ما زالت تفوح منذ بدايات النص حتى أبيات كثيرة، وهو يجعل القارئ يشاركه

---

[1] د. جابر أحمد عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، دار المعـارف، القـاهرة، ١٩٧٣، ص ٣٦٣.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

حاستي الشم والبصر؛ ليجعل منه –القارئ– حكماً على هذه القطاعات الفاشلة والمخربة لكيان الأمة.

ولأن ابن الرومي شاعر نظم في أغراض الشعر مختلفة إذ مدح وهجا، ووصف ورثى، وخبر الناس والمسؤولين ونظرائه من الشعراء فقد عرف مقاصدهم وفسر مغازيهم، فعجب من هؤلاء المسؤولين (شرطة وكتاباً وتجاراً) إذ يكذبون المادحين من الشعراء ويصدقون الهجاة والعياب منهم، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على صدق ما وصفهم به من عجمة وعدم إدراك حتى أن أسماءهم وكناهم تحمل معاني مذمومة وقبيحة لفرط جهالتهم، فيقول:

كاذبي المادحين يعلمُه اللَّـ ـهُ عُدول الهُجاة والعُيَّابِ
شَغَلَتْ موضعَ الكُنى لا بِل الأسْـ ماء منهم قبائحُ الألقابِ

والمتمعن في أبيات القصيدة يجد أن ابن الرومي يعيش الإيقاع الموسيقي ويحاكي نفسيته التي تعاني الغلب وسوء الحظ وتأمل بالفوز وحسن الطالع، فتتراوح نغماته الموسيقية وأصوات حروفه بين علو وانخفاض، وبين مد وقصر، وحركة وسكون، ويجد في الأساليب اللغوية كالعطف سبيلاً لذلك، كما ورد في قوله (لا ولا) في غير موضع، وقوله في البيت التالي:

خيرُ ما فيهُم ولا خيرَ فيهم أنهم غيرُ آثمي المُغتابِ

إذ تشعر وكأنك أمام حركتي مد وجزر عندما تسمع قوله (خير ما فيهم)، و (ولا خير فيهم) فتوحي عبارة (خير ما فيهم) بالاسترخاء وتوقع الخير وكل ما هو حسن، لكن لا تلبث أن تنشغل بالتوقعات حتى تفاجئك عبارة (لا خير فيهم) بحركة معاكسة تقطع عليك استرخاءك وتمحي كل ما أحسنت من ظن أو توقع.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وهنا يتأخر الخبر عن المبتدأ؛ ليأخذ الإيقاع الموسيقي بتشكيل معانيه ومدلولاته، فهؤلاء كلهم شر باستثناء أمر واحد وهو أن من يغتابهم لا يأثم.

ويحق لحرف الغين أن يشار إليه في هذا النص الشعري؛ لكثرة تردده وحضوره بشكل لافت " فصورته الصوتية وهو يدغدغ الحلق عند خروجه، لهي أشبه ما تكون بدغدغة محسَّة من حديد تزيل غباراً عالقاً بجلد بعير، وإذا خفف صوته قليلاً، كان أشبه بحفيف ممحاة من نسيج خشن تحك خطوطاً طباشيرية مرسومة على لوح أسود، ويتطاير الغبار إن صوته يوحي بغرغرة الموت والإمحاء" [1].

وهذا هو شعور ابن الرومي في حياته المليئة بالمآسي والنكبات حيث الفقر والحاجة، وفقد الزوجة والأبناء، وذمامة الشكل، وسوء الحظ وقلة الحظوة، فلذلك نجده إنساناً ساخطاً ثائراً على المحظوظين، ناقداً الحكام والوزراء والمسؤولين، غاضباً على أثرياء مجتمعه، ساخراً من نماذج إنسانية كثيرة، فيشوه مناظرهم ويكشف عيوبهم ليجد في سخريته انتقاماً منهم وشعوراً بالفوز والغلبة عليهم.

وبعد أن صور ابن الرومي قلة إدراكهم، وضعف مستواهم الفكري والثقافي، أخذ يكشف عن الجانب الخلقي والاجتماعي لديهم، ليرسم بالتالي صورة من صور الفساد الاجتماعي الذي أصاب المجتمع العباسي، ويرصد الأسباب الباعثة لهذا الفساد، فالشاعر هنا يؤرخ لمرحلة من مراحل العصر، ويقدم ملخصاً عن الحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

---

[1] حسن عباس: خصائص الحروف العربية ومعانيها، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (د.م) ١٩٩٨، ص١٢٦

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

إنهم يعيشون في ترفٍ ونعيم، يتمتعون بملذات الدنيا منشغلين بها عن إدارة شؤون البلاد، فيقول:

ويظلون في المنَاعم واللذّا ... تِ بين الكواعب الأَتْرابِ

لَهُمُ المُسمِعَاتُ ما يُطربُ السا ... معُ والطائفاتُ بالأكوابِ

إذن حياتهم لهو وترف، تحيط بهم الجواري والمطربات، حيث الغناء والرقص وشرب الخمر.

ويدل الفعل المضارع المسند إلى واو الجماعة (يظلون) على استمرارية مجالس اللهو والطرب هذه، إذ يبدو أنها لا ترتبط بمناسبة معينة، كما يدل على اشتراك كل هذه الفئات جميعها في حضور هذه المجالس شرطة وكتاباً وتجاراً وكل من له صلة بهم، وشيوع الاختلاط بين الرجال والنساء.

وقد نجح ابن الرومي في تقديم صورة مجالسهم في هذين البيتين، إذ إنَّه قدَّم الأسباب الباعثة على اللهو والفساد، وهي: الترف والغنى (المناعم)، والنساء الحسناوات (الكواعب)، والطرب والغناء (المسمعات ما يطرب السامع)، وأخيراً الخمرة (الأكواب) وهذه جميعها تحقق للإنسان شعوراً باللذة وتجعله فاقداً للوعي والإدراك.

وهنا تتفاعل الحواس لتضفي على الصورة بعداً حقيقياً، وتجعل القارئ يستشعر الصورة ويتخيلها، ويكمل عناصرها الأخرى التي لم تذكر، فنجد حاسة اللمس في قوله: (المناعم) والتذوق في قوله: (اللذات-الأكواب) ثم حاسة السمع (المسمعات، السامع) فضلاً عن توافر عنصري الصوت والحركة، لتأخذ الصورة طابعاً حيوياً، وأي صوت وأي حركة نجد؟ إنه صوت الغناء والمزامير والدفوف، وإنها حركة الرقص والتمايل بين الجواري والمطربات، وحركة طواف بأكواب الخمر (الطائفات بالأكواب).

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

وقد نستشف من صيغة اسم الفاعل (الطائفات) معاني متعددة كتعلق هؤلاء بمجالس اللهو والشرب بما تعطيه الكلمة من مدلول ديني (الطواف)، وكثرة الساقيات وحركتهن الدائرية التي لا تنقطع فالشاعر" لا يهتم بالصياغة اللفظية بقدر اهتمامه بإبراز الإحساس في أدق تفاصيله، وابتكار الصور والمعاني الجديدة، واستقصائها إلى أبعد غاياتها "[1].

وتتصل معاني الشاعر بعضها ببعض، وتتواشج صوره في شرائح القصيدة جميعها، فإن كان قد صور تلك الفئات المسؤولة في موضع سابق بالبهائم (وتجار مثل البهائم) فها هو يعود ويصورهم مرة أخرى ببهائم تتفيأ عليها ظلال نعم الله تعالى، فلا يشكرونها مع أنها تزيد عليهم، ولا يجحدونها بانتظارها فهم عنها لاهون، لذا فيرى أنه من العدل أن تزول هذه النعم عنهم، فيقول:

نَعَمٌ ألبسهُمُ نِعَمُ اللـ ـه ظلالَ الغصون منها الرطابِ
حين لا يشكرونها وهي تَنمي لا ولا يكفرونها بارتقابِ
إن تلك الغصونَ عندي لتُضحي ظالماتٍ فهل لها من متابِ

إن هؤلاء المترفين حين أسرفوا في لهوهم وشربهم الخمر لا بد وأن عقولهم غابت عن الوعي، وبالتالي أصبحوا كالبهائم التي لا تعقل ، فهذه الصورة على ارتباط وثيق بصورة مجالس اللهو والشرب.

ويشكِّل الجناس غير التام (نَعَمٌ- نِعَمٌ) في هذين البيتين إيقاعاً موسيقياً واضحاً، فضلاً عن تكرار النفي للعبارة ذاتها (لا ولا) في عدة مواضع من القصيدة.

---

(1) د. حامد صادق قُنيبي و د.سامي أبو زيد: محاضرات في الأدب العباسي (الشعر) دراسة ونصوص، دار ابن الجوزي، عمان، ٢٠٠٦م، ص ٢٢٧.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

وتشيع هنا روح الثورة على هذه الطبقة المترفة التي ترفل بأثواب النعيم بينما تكابد عامة الشعب البؤس والحرمان، حتى أن هذه الطبقية أدخلت في نفوس الفقراء والبؤساء الكره والحسد، حتى لنجد الشاعر يقول:

ما أُبالي أأثمرتْ لاجتناءٍ بعد هذا أم أيبستْ لاحتطابِ

إن الحرمان الذي يعانيه ابن الرومي وغيره من أبناء الطبقة الكادحة جعلتهم لا يبالون بزوال هذه النعم عنهم أو تحولها لغيرهم، أو زوالها أبداً، ولعل السبب أنهم لم يذوقوا طعمها حتى يتمنوها أو يدعوا دوامها، وهم كذلك لا يأملون بفئة غنية أخرى؛ لأنها ستكون كغيرها.

ومن اللافت للنظر أن ابن الرومي يوظّف الطباق –وغيره من المحسنات البديعية– لتحقيق المعاني التي يريدها كما في قوله: (أثمرت، أيبست) و (اجتناء– احتطاب) وهذه ظاهرة لافتة في قصيدته، لأنه يقيم مقابلة بين طبقتين متناقضتين في المستوى المعيشي والفكري، ويعمد إلى تصوير حياتيهما.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٥٨. كم لديهم للهوهم من كَعاب ... وعجوزٍ شبيهةٍ بالكَعابِ
٥٩. خَنْدَريس إذا تراخت مَداها ... لبست جِدةً على الأحقابِ
٦٠. بنتُ كرمٍ تُديرها ذاتُ كَرْم ... موقَدِ النحرِ مثمرِ الأعنابِ
٦١. حِصْرِمٌ من زَبرجدٍ بين نَبْع ... من يواقيتَ جمرُها غيرُ خابِ
٦٢. فوق لَبّاتِ غادةٍ تترك الخا ... ليَ من كلّ صَبوةٍ وهْو صابِ
٦٣. ما اكتستْ شَيْبَةً سوى نظمِها الدُّرْ ... رَ على رأسها البَهيمِ الغرابي
٦٤. لونُ ناجودِها إذا هي قامت ... لون ياقوتها المضيءِ الثقابِ
٦٥. وعلى كأسها حَبابٌ يُباري ... ما على رأسها بذاك الحِبابِ
٦٦. دُرُّ صهباءَ قد حكى دُرَّ بيضا ... ءَ عَروبٍ كَدُمْيةِ المحرابِ
٦٧. تحملُ الكأس والحُليّ فتبدو ... فتنةُ الناظرين والشُرَّابِ
٦٨. يا لها ساقياً تُدير يداه ... مَستطاباً يُنالُ من مُستطابِ
٦٩. لَذةُ الطَّعمِ في يَدَيْ لذّةِ الملْـ ... ثَمِ تدعو الهوى دعاءَ مُجابِ
٧٠. حولَها مِنْ نُجَارِها عينُ رملٍ ... ليس ينفك صَيدُها أُسدَ غابِ
٧١. يُونقُ العينَ حسنُ ما في أكُفٍّ ... ثَمَّ تَسقي وحُسْنُ ما في رقابِ
٧٢. ففمٌ شاربٌ رحيقاً وطَرفٌ ... شارب ماءَ لَبّةٍ وسِخابِ
٧٣. ومَزاجُ الشَّرابِ إن حاولوا المز ... جَ رُضابٌ يا طيبَ ذاكَ الرُّضابِ
٧٤. من جَوارٍ كأنهنَّ جَوارٍ ... يتسلسلنَ من مياهٍ عذابِ
٧٥. لابساتٍ من الشفوف لَبوساً ... كالهواء الرّقيق أو كالشرابِ
٧٦. ومن الجوهرِ المضيء سناهُ ... شُعلاً يلتهبنَ أيَّ التهابِ
٧٧. فترى الماءَ ثَمَّ والنارَ والآ ... لَ بتلك الأبشارِ والأسلابِ
٧٨. يوجسُ الليلُ رِكْزَهُنَّ فينجا ... بُ وإن كان حالكَ الجلبابِ
٧٩. عن وجوهٍ كأنهنَّ شموسٌ ... وبدورٌ طلعنَ غِبَّ سحابِ
٨٠. سالمتْها الأندابُ وهي من الرِّقّ ... قَةِ أولى الوجوعِ بالأندابِ
٨١. أوجهٌ لا تزال تُرمَى ولا تَدْ ... مَى على كثرةِ السّهام الصّيابِ
٨٢. بل تَرُدُّ السّهام مُنكفئاتٍ ... فتصيبُ القلوبَ غيرَ نوابِ
٨٣. جُعِلَ النُّبْلُ والرَّشاقةُ حظّيـ ... ـنِ لتلك الأكفالِ والأقرابِ
٨٤. فتمايلنَ باهتزازِ غصونٍ ... ناعماتٍ وبارتجاج روابي
٨٥. ناهداتٍ مطرّفاتٍ يمانع ... نك رُمّانَهُنَّ بالعُنّابِ
٨٦. لو ترى القومَ بينهنّ لأجبر ... تَ صُراحاً ولم تقلْ باكتسابِ
٨٧. من أناسٍ لا يُرْتَضون عبيداً ... وهمُ في مراتبِ الأربابِ

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

إن انتشار مجالس اللهو، وشرب الخمر، ومنادمة النساء الحسناوات من الجواري كانت من الأسباب الباعثة لفساد تلك الفئات المسؤولة في المجتمع، التي يقع على عاتقها ضبط شؤون البلاد، وتصريف أمورها، ومتابعة أفراد رعيتها، لكنها انشغلت بملذاتها، وانغمست في شهواتها ولم يكتف شاعرنا ذو النفس الطويل، بذكر تلك الأسباب، بل نجده يفرد ما يقارب الثلاثين بيتاً لوصف الخمرة والجواري الساقيات، وهنا تبرز مقدرته الفنية على التصوير، فيسجل حضوراً فنياً، وينشغل برسم لوحة يروِّح فيها عن نفسه وسط زحام الهموم والآلام، ويطرد عن سامعيه الملل والسأم، ويصف في الوقت نفسه شريحة اجتماعية عج بها المجتمع العباسي آنذاك وهي شريحة الجواري والقيان.

يستهل الشاعر هذه الشريحة بـ (كم) الخبرية التي تفيد التكثير ليدل على كثرة الساقيات من الجواري الحسناوات وكذلك كثرة الخمرة التي تديرها تلك الساقيات بين الشاربين من أولئك الرجال والمسؤولين، فيقول:

كم لديهم للهوهم من كَعاب ... وعجوزٍ شبيهةٍ بالكَعابِ

أما الخمرة التي يتعاقرونها فهي من أجود الأنواع، معتَّقة مضت عليها عدة أعوام، وهي من أطيب كروم العنب، تديرها ساقية لا تقلُّ طيب مذاق عنها، فتعلق بهما النفوس والعيون، إذ يقول:

خَنْدَريس إذا تراخت مَداها ... لبست جِدةً على الأحقابِ
بنتُ كرمٍ تُديرها ذاتُ كَرْم ... موقَدِ النحرِ مثمرِ الأعنابِ
حِصْرِمٌ من زَبرجدٍ بين نَبْع ... من يواقيتَ جمرُها غيرُ خابِ
فوق لَبّاتِ غادةٍ تترك الخا ... ليَ من كلّ صَبوةٍ وهو صابِ

يقود وصف الخمرة الشاعر إلى وصف الساقية، فكلاهما يحدث أثراً للشاربين، وهو يحرص كذلك على التناسب والتناسق بين صوره الفنية، لتكون من حقل واحد لا تنافر بينها أو

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library- Yarmouk University

تباعد، فالخمرة –مثلاً– أصلها من العنب، والساقية تلبس في عنقها قلادة تحمل حبات عنب صغيرة خضراء متخذ من الزبرجد الأخضر، وهي متشابكة من الياقوت الأحمر، تتوقد، فتجذب الأنظار إليها، وتسلب العقول لجمالها.

ولعل ابن الرومي أقام هذا التناسب بين الصورتين ليعطي معنى يريده، وهو أن الشارب يسعى إلى امتلاك تلك الجارية الساقية كما حصل على الخمرة المتخذة من العنب، لتحدث في نفسه اللذة التي ينشدها، إذ إنَّ هذه الساقية (الغادة) تترك الخالي من الصبوة والطيش مفعماً بهما.

وتأتي أصوات الحروف في هذا المقطع الشعري متناسقة، وذات جرس موسيقي هادئ من خلال تنوع مخارجها وتناغم إيقاعاتها، فالشاعر هنا يخلو من الانفعال أو الإحساس بالألم والمعاناة، وينشغل بكل ما يُثير الجمال فنجده يعيش المشهد، فتلهو نفسه، وتنطلق ريشته لترسم ما أثار قريحته وأوقد شاعريته، إنه ينشغل بالفن للفن ذاته.

وإذا كانت الخمرة تزيَّن بالحرير والحلي فالساقية كذلك، إذ تزين صدرها بقلائد الزبرجد والياقوت، تضع على شعرها الأسود قلادة من الدرِّ، وقد عبر عن صغر سنها بسواد شعرها وخلوه من الشيب سوى القلادة الدُّريَّة التي تشبه في لونها لون الشيب. وهنا يحضر اللونان المتضادان: الأسود والأبيض وهما مطلوبان ومرغوب بهما لدى الشاعر؛ إذ إنَّ كلاهما موطن جمال، فشدة سواد شعر المرأة علامة جمال، والحلي تزيد من جمالها خاصة ما غلا ثمنها ، وصفا لونها ، وتشغل الألوان المضيئة مساحات من هذه الشريحة، فتغير من نفسية الشاعر المعتمة، وتدخل إلى نفسه الإحساس بالجمال والحاجة إليه ، وتشغله كذلك الصور اللطيفة والجذابة، فيقول:

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

لـــونُ ناجودِهـــا إذا هـــي قامـــت لون ياقوتها المـضيءِ الثقـابِ
وعلـــى كأســـها حَبـــابٌ يُبـــاري ما على رأسها بـذاك الحِبـابِ
دُرُّ صـــهباءَ قـــد حكـــى دُرَّ بيـــضا ءَ عَـروبٍ كَدُمْيـةِ المحـرابِ
تحمـــلُ الكـــأس والحُلـــيّ فتبـــدو فتنـــةَ النـــاظرين والـــشُرَّابِ

إن الشاعر يقيم العلاقات بين الألوان، فلون الخمرة وإنائها يشبه لون ياقوت الساقية المضيء، ولون الخمرة ذاتها بما فيها من حُمْرة يشبه حُمْرة وجه تلك الساقية البيضاء، وما ألطف تلك الصورة لحبات الفقاقيع الدائرية واللامعة التي تطفو على سطح كأس الخمرة فهي تشبه حبات الدر الكروية اللامعة على رأس الجارية الساقية إن الشاعر هاهنا يجد أن الساقية تعادل الخمرة جمالاً ولذة، وفتنة، حتى أن عباراته جاءت متساوية ومتوازية فعلى سبيل المثال:

الخمرة	الساقية
لون ناجودها	لون ياقوتها
وعلى كأسها	ما على رأسها
دُرُّ صهباء	دُرُّ بيضاء

فالعبارات تحمل إيقاعات موسيقية متماثلة تدل على أثر كل من الخمرة والساقية في نفس الشاعر وشغفه بهما، إن الشارب يسعى إلى الوصول إلى امتلاك الخمرة سعيه لامتلاك الساقية، فكلتاهما مصدر جمال وإعجاب ولذة، فهو يشرب بفمه الخمرة وبعينه جمال نحر الساقية، وهنا يعمد الشاعر إلى تراسل الحواس فالطرف (البصر) يشرب (التذوق) من جمال نحر الساقية فيقول:

يـــا لهـــا ســـاقياً تُـــدير يـــداه مَستطاباً يُنـالُ مـن مُـستطابِ
لَذةُ الطَّعـمِ فـي يَـدَيْ لـذّةِ الملْـــ ثَمِ تدعو الهوى دعـاءَ مُجـابِ
حولَهـا مِـنْ نُجَارِهـا عـينُ رمـلٍ ليس ينفك صَيدُها أُسـدَ غـابِ
يُونقُ العـينَ حـسنُ مـا فـي أكُـفٍّ ثَمَّ تَسقي وحُسْنُ ما في رقـابِ
ففـمٌ شـاربٌ رحيقـاً وطَـرفٌ شـارب مـاءَ لَبّـةٍ وسِـخابِ

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وإن كانت مقدمة القصيدة وشريحة العتاب تمثلان مرحلة الانكسار والهدم في ذات الشاعر فإن شريحة الساقية والخمرة تمثل مرحلة الارتواء والبناء؛ فهو يشبع هاهنا لذته الفنية، و يرسم صور تلك الشريحة بدقائقها وتفصيلاتها، مسبغاً عليها أجمل الألوان وأبدع الحركات والأصوات، فكان هو الشاعر والفنان والمصوِّر والموسيقي في آن واحد، إذ نجده ينتقل عبر الصور من إيقاع موسيقي يتراوح بين علو وانخفاض إلى إيقاع هادئ، ومن حركة متناقضة بين الأعلى والأسفل إلى حركة فيها انتظام ودوران، ومن صور الصخور والبهائم والذَّرِّ إلى صور الدُّرِّ والياقوت، وعيون البقر الوحشي، والرضاب والمياه العذبة، فيقول:

وَمِزاجُ الشَّرابِ إن حاولوا المـز ... جَ رُضابٌ يا طيبَ ذاك الرُّضابِ
مـن جَـوارٍ كـأنهنَّ جَـوار ... يتسلسلنَ مـن مياهٍ عـذابِ

ولا ينسى ابن الرومي أن يصف ثيابهن، فهي رقيقة تشف عما تحتها، كرقة الهواء أو السراب، فيقول:

لابساتٍ مـن الشفوف لَبوساً ... كالهواء الرّقيق أو كالشرابِ
ومـن الجوهرِ المضيء سناهُ ... شُعلاً يلتهبنَ أيَّ التهابِ
فترى الماءَ ثَمَّ والنارَ والآ ... لَ بتلك الأبشارِ والأسلابِ
يوجسُ الليلُ رِكْزَهُنَّ فينجا ... بُ وإن كان حالِكَ الجِلبابِ
عن وجوهٍ كأنهنَّ شموسٌ ... وبدورٌ طلعنَ غبَّ سحابِ

وهنا نجد ابن الرومي يجمع ظواهر طبيعية متعددة: كالهواء، والسراب، والماء، والنار، والليل، والشمس، والبدر، والسحاب؛ ليضفي على صوره ملامح الحياة، ويضع الإنسان أمام قدرة أعظم من قدرته، وإرادة تغلب إرادته، وواهباً يفوق أعطيته ويخرج الشاعر من هذه الشريحة إلى شريحة أخرى تغايرها في الإيقاع والعاطفة، وفي المعنى والغاية، فيصور في خاتمة الشريحة مشية تلك الساقيات ورشاقتهن، وتمايل أجسادهن، ومداعبتهن الشاربين، ليشرع بعد ذلك إلى نقد الشاربين، والكشف عن أهوائهم وفساد أخلاقهم فيقول:

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

فتمـــــايلنَ بـــــاهتزازِ غـــــصونٍ ناعمَـــاتٍ وبارتجـــاج روابـــي
ناهـــــداتٍ مطرّقـــــاتٍ يمـــــاتع نـــــك رُمَّـــــانَهُنَّ بالعُنَّـــــابِ
لـــو تَـــرى القـــومَ بيـــنهنّ لأجبـــر تَ صُراحاً ولم تقـــلْ باكتـــسابِ

وفي البيت الأخير من الشريحة يتعرض الشاعر لمن صرح عنهم في بدايـــة الـــنص الشعري وعرَّض بهم وكنَّى عنهم بقوله: (القوم) ويشير إلى مبدأ الاختيار والجبر في الحيـــاة، فمن يعاين مجالس اللهو والشرب لهؤلاء المسؤولين وتلك الجواري يدرك أن هناك في الحياة ما يجري جبراً لا سبيل للإنسان في التدخل به أو الاختيار، وهنا يذكرنا ابن الرومي بحظـــه التعس، وقدرته ومؤهلاته التي لم تكسبه الرفعة والحظوة، فهو لم يختر مكانه في هذا المجتمع كما لم يختر غيره من المسؤولين والسادة من هم أقل منه شأناً.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٨٩. مـــن أنـــاسٍ لا يُرتَـــضون عبيـــداً وهـــمُ فـــي مراتـــبِ الأربـــابِ
٩٠. حالُهُمْ حالُ مَـــن لـــه دارتِ الأفـــ لاكُ واستوسقتْ على الأقطـــابِ
٩١. وكـــذاك الـــدنيا الدنيَّـــةُ قـــدراً تتـــــصدَّى لأَلأم الخُطـــــابِ
٩٢. مُكِّنوا مـــن رحـــالِ مَـيْسٍ وطيئـــا تٍ وأصـــحابُنا علـــى الأقتـــابِ
٩٣. كـــابنِ عمـــار الـــذي تركتْـــهُ حَمَقَـــاتُ الزمـــانِ كالمُرتـــابِ
٩٤. من فتىً لـو رَأيتَـهُ لـرأتْ عيْـــ ناكَ عِلماً وحِكمـةً فـي ثيـابِ
٩٥. بـزَّهُ الـدهرُ مـا كسا النـاسَ إلا ما عليه مـن لَحمـه والإهـابِ
٩٦. أو حُلـــيِ ظَرْفـــهِ التـــي نَحَـــستْهُ فلـو اسـطاع باعهـا بجـرابِ
٩٧. ســـوءةً ســـوءةً لـــصُحبة دنيـــا أسخطتْ مثلَه مـن الأصـحابِ
٩٨. لهفَ نفسي علـى مَنـاكيرَ للنُّكـــ ـرِ غضابٍ ذوي سيوف عِـضابِ
٩٩. تغـسِلُ الأرضَ بالـدماء فتُـضحى ذاتَ طُهـرٍ تُرابُهـا كـالمَلابِ
١٠٠. من كـلابٍ نـأى بهـا كـلَّ نـأيٍ عن وفاءِ الكلابِ غـدرُ الـذئابِ
١٠١. وإثبـاتٍ علـى الظِّبـاء ضِـعافٍ عن وثابِ الأسودِ يـومَ الوثـابِ
١٠٢. شُـرَطٌ خُوِّلـوا عقائـلَ بيـضاً لا بأحـسابهم بـل الاكتـسابِ
١٠٣. من ظباءِ الأنـيس تلـك اللـواتي تترك الطـالبين فـي أنـصابِ
١٠٤. فـإذا مـا تعجّـبَ النـاسُ قـالوا هل يصيد الظباءَ غيـرُ الكـلابِ
١٠٥. أصبحوا ذاهلين عـن شَـجَن النـا س وإن كان حبلُهم ذا اضطرابِ
١٠٦. في أمـورٍ وفـي خمـورٍ وسـمُّو رٍ وفـي فـاقمٍ وفـي سِـنْجابِ
١٠٧. وتهاويلَ غيـر ذاك مـن الرَّقْـــ م ومن سُـندسٍ ومـن زِرْيـابِ
١٠٨. فـــي حَبيـــرٍ مُنمـــنَمٍ وعَبيـــرٍ وصِـحانٍ فـسيحةٍ ورحـابِ
١٠٩. فـي ميـادين يختـرقن بـساتيـ ـن تمـسُّ الـرؤوسُ بالأهـدابِ
١١٠. ليس ينفك طيرُها فـي اصـطحابٍ تحت أظلالِ أيكهـا واصـطحابِ
١١١. من قـرينَيْنِ أصـبحا فـي غِنـاءٍ وفريدين أصبحا فـي انتحـابِ
١١٢. ف بـين أفنانهـا فواكـه تَـشفي من تَداوَى بها مـن الأوصـابِ
١١٣. في ظـلالٍ مـن الحـرور وأكنـا نٍ من القُـرِّ جَمَّـةِ الحُجَّـابِ
١١٤. عندهم كلُّ مـا اشـتهوْهُ مـن الآ كـال والأَشْـربات والأشـوابِ
١١٥. والطَّروقـاتِ والمراكـبِ والولـ ـدانِ مثـلِ الـشَّوادنِ الأسـرابِ
١١٦. واليَلَنْجوجِ فـي المجـامر والنـدِّ تـرى نـشرَهُ كمثـلِ الـضبابِ
١١٧. والغوالي وعَنبرِ الهنـدِ والمـسـ ـك على الهام واللِّحَى كالخـضابِ

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

كان ابن الرومي منذ مطلع القصيدة وحتى هذه الشريحة شاعراً متأملاً؛ لا يكف عن متابعة ظواهر الحياة وقراءة أسبابها، ومن ثم رسم الصور ومقابلتها بالواقع، لا سيما أن واقع مجتمعه يشهد العديد من الظواهر الاجتماعية التي تستوقف كل شاعر يعي مسؤوليته تجاه مجتمعه، فإن أبدع في تصوير الخمرة والساقيات فهو يعرِّض من بعيد بهذا الترف الذي يقابله فقر مدقع، ويرفض تولي أولئك المسؤولين الذين يفتقرون إلى العلم والمعرفة والقيم والأخلاق، ويرفض كذلك لهوهم وانشغالهم عن أمور الرعية، وتلك القسمة غير العادلة بين (الجهلة والسفهاء) و (الأجلة العلماء).

وهو في البيت الأخير من الشريحة السابقة انتقل من مشهد الجواري الساقيات إلى الحديث عن المسؤولين والمترفين بين تلك الجواري، ليقدم لنا رؤية فلسفية خاصة به تمثلت في أن تفاوت الحظوظ في الحياة والسعادة شيء خارج عن الاختيار والاكتساب، فالسُّعداء لم يختاروا سعادتهم كما التعساء لم يختاروا تعاستهم، فكلاهما مجبر على ما هو فيه. ومن هنا فإن هؤلاء السعداء والمحظوظين من القوم لا يرتضون أن يكونوا عبيداً، لكنهم أصبحوا سادة ومسؤولين، حتى أن الفلك كان حليفهم، فيقول:

لو تَرى القومَ بينهنّ لأجبـر ... تَ صُراحاً ولم تقلْ باكتساب
من أناسٍ لا يُرْتَضون عبيداً ... وهمُ في مراتبِ الأربابِ

حالهم حال من له دارت الأفلاك واستوسقت على الأقطاب ،و يفسر حرف الجر الذي يفيد السببية (من أناس) السبب الذي حدا بابن الرومي للقول بمبدأ الجبرية، فكيف يصل إلى أسمى المراتب أناس لا تقبلهم عبيداً، وكيف حط شان العلماء وذوي الخبرة والكفاءة ؟!.

ويجعل من حركة النجوم والكواكب أسباب سعادة أولئك العبيد ، وكأن النجوم والكواكب تفعل فعل الدهر تتجاوز أصحاب العقول والخبرة والمعرفة وتنتخب السفهاء والجهلة.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library- Yarmouk University

ثم يخرج من حيز الفضاء والفلك ليجعل الدنيا بأسرها شريكة في انقلاب الموازين والتحيز للمحظوظين وإهمال العلماء القديرين، فيقول:

وكذاك الدنيا الدنيَّـةُ قـدراً تتـصدَّى لألأم الخُطـابِ

مُكِّنوا من رحالِ مَيْسٍ وطيئا تٍ وأصحابُنا على الأقتـابِ

يصور الشاعر الدنيا التي أقبلت على أولئك السفهاء وأعطتهم حلاوتها بعروس قبلت خطبة ألأم الخطاب فغرَّها منظرهم وثراءهم وأعرضت عن غيرهم.

ويعبر الجناس غير التام بين كلمتي (الدُّنيا والدَّنية)عن سخط الشاعر على الدنيا وعلى أولئك الخُطَّاب ، بالإضافة إلى صيغة اسم التفضيل (ألأم)، كما يبين نتيجة ما فعلته الدنيا إذ أصبح قوم في نعيم وهناء (رحال ميس وطئيات) بينما الآخرون من العلماء والأجلة في شقاء وعناء (وأصحابنا على الأقتاب).

يحرص ابن الرومي على تقديم الشواهد والأدلة على صدق ما يقول أو يعرض من أمور في مجتمعه، فها هو يعطي شاهداً من الأجلة والعلماء الذين أعرضت عنهم الدنيا وأغفلهم الزمان، فابن عمّار واحد من هؤلاء الذين عدا عليهم الزمان وتركه كالمرُتاب، ثم يذكر صفاته إذ هو فتى في مقتبل العمر وذو علم وحكمة، لكن الدهر سلب منه كل شيء إلا ما عليه من لحم وجلد وربما لو استطاع ذلك لفعل، فيقول:

كابن عمـار الـذي تركتْـهُ حَمَقَاتُ الزمـان كالمُرتـابِ

من فتىً لو رَأيتَهُ لرأتْ عيْـ ناك عِلماً وحِكمةً في ثيـابِ

بزَّهُ الدهرُ ما كسا النـاسَ إلا ما عليه من لَحمه والإهـاب

أو حُلى ظَرْفهِ التـي نَحَـستْهُ فلو اسطاع باعهـا بجِـرابِ

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

إن النتيجة المنطقية أن ينصف الزمان العلماء والحكماء لكن ما أصابهم من مصائب ونكبات كابن عمار جعلهم في شك من جدوى العلم والحكمة وكأن الزمان ليس زمانها مما قاد ابن عمار أن يظن أن العلم والحكمة والكياسة هي ما جلبت له النحس ففكر أن يبيعها بأبخس الأثمان وتتزايد حدة شعور ابن الرومي لشدة ألمه على حال ابن عمار وأمثاله فيأخذ بالدعاء على هذه الدنيا بأن يصيبها أعظم مكروه لما أغضبت وأحزنت أمثاله، إذ يقول:

سوءةً سوءةً لصُحبة دنيا أسخطتْ مثلَه من الأصحابِ

يدل تكرار الدعاء (سوءةً سوءةً) على شدة غضب ابن الرومي وسخطه على هذه الدنيا، كما تدل كلمة (مثله) على أن ابن عمار لم يكن هو الشاهد الوحيد على انقلاب الموازين وسوء حظ العلماء في هذا العصر –العباسي الثاني– إن حاله حال الشاعر أيضاً وحال غيره، إنها ظاهرة اجتماعية أصابت المجتمع العباسي في عصره الثاني، حيث شيوع اللهو وشرب الخمرة، وكثرة الجواري وانتشار الفساد، وتولية الأعاجم أمور البلاد، وتباين المستوى المعيشي بين طبقات المجتمع وغيرها .

وهنا لا يرى ابن الرومي سبيلاً لصلاح حال البلاد إلا بالثورة، وتنظيم الصفوف ممن يغارون على الحق ويغضبون له، فيقول:

لهفَ نفسي على مَناكيرَ للنُّكـ ـرِ غضابٍ ذوي سيوف عِضابِ

تغسِلُ الأرضَ بالدماء فتُضحى ذاتَ طُهر تُرابُها كالمَلابِ

من كلابٍ نأى بها كلَّ نأيٍ عن وفاءِ الكلابِ غدرُ الذئابِ

واثباتٍ على الظِّباء ضِعافٍ عن وِثاب الأسود يومَ الوِثابِ

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يدعو الشاعر هنا إلى تطهير المجتمع من تلك الفئة الظالمة والمفسدة، وينادي بالثورة، ولا يقبل إلا السيوف سلاحاً يشهر في وجه أولئك المفسدين، فتغتسل الأرض بـــدمائهم لتعـــود نقية طاهرة وطيبة.

وتوحي عبارة (لهف نفسي) بشدة شوق الشاعر ولهفته إلى الانتقام لذاته وأمثاله مـــن المغلوبين ممن لحقهم الضيم والجور، إلى تطهير الأرض بأسرها من هؤلاء المسؤولين، وقد وصفهم بالكلاب (من كلاب) لكنهم أخذوا عن الكلاب النجاسة وتركوا الوفاء، ليشتركوا مـــع الحيوانات المفترسة في صفة أخرى كالذئاب التي أخذوا عنها صفة الغدر، إذ تغدر بـــضعاف الغنم وتجتنب الأقوياء منها.

ولعل اختيار الشاعر لقافية الباء المكسورة والمسبوقة بحرف مدٍّ تشعرنا بأنه يبحـــث عن الفرج في وسط زحام المصائب، ويتبين ذلك من خلال حركة الشفتين فمن فتحهما عنـــد حرف المد (ا) إلى ضمهما عند حرف (بِـ) ثم فتحهما وانفراجهما عند الإشباع

إن ابن الرومي ليس كواحد من أبناء مجتمعه يكدح ليعيش، وينجـــب أولاداً ويملـــك حُطاماً، إنه فنان شاعر، لذا فمسؤليته تبدأ من تغيير نظام الحياة ذاتها، هادفـــاً إلـــى الجمـــال والكمال، ملاحظاً في دورانه حول ذاته شؤون الناس والكون.

وقد دفعه هذا الإحساس إلى الوقوف عند مواطن الخلل، ومتابعة الأسباب والدوافع لكل ظاهرة اجتماعية تخل بالنظام وتضرب البنية الاجتماعية، كما أدرك أن طبيعة حياة المجتمـــع ومستواه المعيشي يفرزهما النظام السياسي والإداري، وقد امتلك الجرأة للوقوف عند بعـــض كوادرهما، فها هو يعود مرة أخرى معرِّضاً برجال الشرطة، إذ يقول:

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

شُرَطٌ خُوِّلــوا عقائــلَ بيــضاً لا بأحسابهم بــل الاكتــسابِ

من ظباءِ الأنيس تلك اللــواتي تترك الطالبين فــي أنــصابِ

فإذا ما تعجّبَ النــاسُ قــالوا هل يصيد الظباءَ غيرُ الكــلابِ

نلاحظ أن ابن الرومي في هذا السياق الشعري يصرح للمرة الثانية بمأخذه على رجال الشرطة ويرفض زعامتهم لهذا المنصب الأمني، كما نلاحظ أنه لم يشر إلى جهات مــسؤولة أخرى، ولعل ذلك يعود إلى أمرين أولهما: الخوف من السلطة وغضبها ومن ثم نيل عقابهــا، وثانيهما: أنه جعل من الشرطة مثالاً وشاهداً على الفساد السياسي والإداري كابن عمارالــذي جعله شاهداً على تعاسة العلماء والأجلَّة من أبناء المجتمع.

ولو تأملنا الفعل الماضي المبني للمجهول (خُوِّلوا) بما يعطيه من معنى دلالي لوجدنا أن ابن الرومي ينتقد بإيماء من هم أعلى منصباً سياسياً من رجال الشرطة؛ إذ إنَّه يأخذ علــى من خولهم ذلك المنصب، مؤكداً من خلال أسلوب النفي (لا بأحــسابهم) أنهــم لا يــستحقون منصبهم لكن الحظ الأعمى ساعدهم.

نلاحظ أن كلمة (كلاب) تتكرر في القصيدة بشكل واضح ، وهــي تعطــي معنــى الاحتقار، والنجاسة ،والعدوانية في جميع السياقات، كما تتكرر أيضاً كلمــة (الظبــاء) فــي مواضع متعددة لتدل على المرأة الناعمة المؤنسة ، أو الخير والنعمة، وبالتالي وكأن الــشاعر يعادل بين الكلاب والمسؤولين المترفين، وبين الظباء والنعيم وأسباب السعادة، فالنعيم والجري وراءه يترك الإنسان غير المحظوظ في تعب ومشقة ، في حين يسوقه الحظ إلى من لا يستحقه دون مشقة أو تعب .

ومن هنا فابن الرومي يمثل كل إنسان غلبه الزمان وفاته الحظ السعيد، ولم تقف عنده الكواكب والأبراج، فهو شاعر –كما يبدو– مصيري، لا يقف عند رؤية الواقع، بل يمد شعاع

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بصيرته إلى الأبعاد إلى غاية الحياة، ويجعل من الناس في المجتمع شركاء له في البحث عن هذه الغاية، واستنكار تفرد البعض بها دون الآخر أو دون الأجدر، فيجعل صوتهم يعلو صوته:

فإذا ما تعجّبَ النـاسُ قـالوا هل يصيد الظباءَ غيرُ الكـلابِ

وفي هذا البيت تمتد بذور الثورة وتنتشر لتنتقل من الخاص إلى العام، ومن الذات إلى الآخر، ومن الصمت إلى القول، ومن الخنوع والاستسلام إلى الرفض والاستنكار.

إن الفعل الماضي (قالوا) المسند إلى واو الجماعة يدل على أن الفعل امتد من الفرد إلى الجماعة، كما يوحي معناه بالرفض والاستنكار، واتخاذ القول شكلاً من أشكال الثورة وخطوة من خطواتها، فالناس بدأوا يعبرون عن رفضهم ومن ثم –ربما– انقلابهم من أجل العدالة الاجتماعية.

ويصرح ابن الرومي باضطراب أمور الناس وسوء معيشتهم، في حين أن المسؤولين وأبناء الطبقة المترفة مشغولين، فيقول:

أصبحوا ذاهلين عن شَجَن النـا س وإن كان حبلُهم ذا اضـطرابِ

في أمورٍ وفي خمـورٍ وسـمُّو رٍ وفـي قـاقُمٍ وفـي سِـنْجابِ

وتهاويلَ غير ذاك مـن الـرَّقْ م ومن سُـندسٍ ومـن زِرْيـابِ

فـي حَبيـرٍ مُنمـنَمٍ وعَبيـرٍ وصِـحانٍ فـسيحةٍ ورِحـابِ

يدل البيت الأول من الأبيات السابقة على تباين واضح بين حال طبقتين من المجتمع: الطبقة المترفة بما فيها من مسؤولين ، وطبقة عامة الشعب. كما توحي صيغة اسم الفاعلين (ذاهلين) وما يليها من أبيات بسعادة الطبقة المترفة وطبيعة معيشتها، وشدة انشغالها عن مسؤوليتها لدرجة الذهول وكأنهم يعيشون لعالمهم فقط، أما الشطر الثاني من البيت فهو صورة

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

موجزة عن حال طبقة عامة الشعب، لكنها تحمل معاني كثيرة : كالفقر والجـوع، والبـؤس والحرمان، وقلة الملبس، وضيق المسكن (وإن كان حبلهم ذا اضطراب) وتشير كلمة (حبلهم) بمعناها الدلالي إلى امتداد معاناتهم وطولها، وتعقد حياتهم.

وبالتالي فإن ابن الرومي وإن بدا للقارئ أو السامع أنه يتحدث عن الطبقة المترفة من المجتمع فقط إلا إنَّه يومئ إلى نقيضها، فكل ما تعيشه هذه الطبقة من نعيم وسعادة ، وغنـى وقصور، ولباس فاخر، فإنَّ عامة الشعب –الطبقة الفقيرة– تعيش الحرمان من كل ذلك، فهو لا يعرض لتفصيلات حياتهم –أعني الطبقة المترفة– بهدف الإعجاب أو الإطراء والمديح لكـن بهدف التعريض والنقد والإدانة.

وها هو يتناول أسباب انشغالهم عن أمور الناس مرة أخرى، فيقول: (في أمور) وكأنه يريد أمورهم الخاصة وما سبق أن أشار إليه من شرب الخمرة ومداعبة الجواري، ثـم يقـف عند جوانب أخرى أكثر خصوصية كاللباس والمسكن، فهم يلبـسون أفخـر أنـواع الألبـسة وأثمنها، (في خمورٍ وسَمورٍ وفي قاقم وفي سنجاب) وكلها حيوانات يتخذ من جلودها وفرائها أجود أنواع الألبسة، كما أنها حيوانات بعيدة الموطن، وهذا يعني أنهـا تستحـضر بتكـاليف باهضة الثمن.

ونلاحظ في هذا البيت ورود الجناس غير التام (أمور –خمـور) وكـذلك (خمـور– سمور) بالإضافة إلى تنوين الكسر في حرف الراء (رٍ) مما يوحي بـصوت رنـين متكـرر ومتعاقب، ولعل الشاعر أراد بهذا الصوت أن يبعث في نفس السامع تنبيهاً وإيقاظاً لحال تلـك الطبقة، ومن ثم إذكاء روح الثورة في نفوسهم من خلال المعاني المبثوثة في هـذه الأبيـات كانشغال المسؤولين وغناهم وترفهم مقابل حرمان عامة الشعب.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library- Yarmouk University

وبعد هذا الرنين وتعداد أنواع الفراء واللباس المختلفة و تحديد البلاد المستوردة منها، يأتي إلى شرح كيفية حياكة هذه الأقمشة، إذ تنقش وترسم عليها التصاوير (وتهاويل) بالإضافة إلى تخطيطها بأنواع الخطوط والعبارات _ وربما الأشعار أحياناً _ بماء الذهب وهذا يدل على تكلفتها الباهضة وشدة عنايتهم بأناقة ملبسهم ، وقد كانت الكتابات الشعرية في ذلك العصر ظاهرة حضارية فلا نجد أثراً إلا وعليه كتابات شعرية ، بدءاً من الدور وما تحويه من الفرش والمتاع والمقتنيات ، ومروراً بالمساجد والقبور ، وانتهاء بما كتبته الجواري على لباسهن أو أجسادهن أو أدواتهنّ [1].

ولا ينسى ابن الرومي أن يشير إلى ما يتمم الأناقة ويشذي النفس إذ يبين لنا أنهم يتخذون أطيب أخلاط العطور، مما يبعث في نفس الطبقة الفقيرة الألم والوجع والحسرة، وهذا ما يوحي به التنوين المتتابع في قول الشاعر:

في حَبيرٍ مُتمنَمٍ وعَبيرٍ وصِحانٍ فسيحةٍ ورِحابِ

فإن كان هذا ملبس ومعطر الطبقة المترفة فإن الفقراء وعامة الشعب يلبسون الثياب الرثة ويتعطرون عرق أجسادهم ،وبيوتهم خربة لا تتجاوز أن تكون غرفة ذات شقوق تداهمها المياه، وتسكن جدرانها الفئران.

وإن كانت بيوت الأثرياء ذات صحان فسيحة وميادين مملوءة بالبساتين وأنواع الفاكهة فإن بيوت الفقراء والعامة ضيقة ، وجدرانها متشققة ، تسكنها الفئران . وقد صور حدائق أولئك الأثرياء والمسؤولين، فقال:

في ميادين يخترقن بساتي ن تمسُّ الرؤوس بالأهدابِ

---

(1) أحمد فهمي عيسى: الكتابات والنقوش الشعرية في العصر العباسي، مكتبة نانسي، دمياط، ٢٠٠٣، ص١٥.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

لـيس يِنفك طيرُها في اصــطخابِ تحت أظلالِ أيكها واصــطحابِ

من قرينَيْنِ أصبحا فــي غِنــاءٍ وفريدين أصبحا في انتحــابِ

إن بيوتهم واسعة تخترقها البساتين الخضراء، فتوحي كلمة (ميادين) بشدة اتــساعها، كما تدل الصورة الفنية على جمالها، فقد صور الشاعر هذه البساتين التي تتدلى منها الخضرة والورود والفاكهة بعيون ذات أهداب وقد مست هذه الأهداب رؤوس المارين من تحتها.

ولا بد أن هذه البيوت ذات البساتين والحدائق الغناء موطن محبب للطيور الــشادية، ولشدة سعادة هذه الطيور فإن أصواتها مستمرة ومتنوعة النغمات، وحركتها لا تنقطع.

ولو تأملنا كلمتي (اصطخاب- اصطحاب) لوجدنا أن تنوع مخارج حروفهما تتوافــق مع معناهما، فهما تدلان على تنوع الأصوات والحركة وكذلك مخارج حروفهما.

ويقيم الشاعر من صورة هذه الطيور مفارقة نستقي منها معاني عديدة، إذ أنَّ بعــض هذه الطيور متآلفة ومقترنة وتشدو بألحانها سعيدة (من قرينين أصبحا في غنــاء) وبعــضها الآخر مفترقة ومحزونة (فريدين أصبحا في انتحاب).

وهنا نلمح ثنائية ضدية لا يخلو منها عالم الإنسان أو الحيوان فإن كان المجتمع الذي يعيشه الشاعر يشهد تناقضاً بين سعادة وشقاء ، وغنى وفقر، وترف ولهو، وبؤس وحرمــان، فإن هذه الثنائية سر من أسرار الحياة، استطاع الشاعر بفنه أن يجعل منها لوحة فنية نابــضة بالحركة والحياة منذ بداية النص الشعري وحتى آخره.

وبعد ذلك يتجاوز الشاعر صورة البساتين والحدائق إلى الحديث عن ثمارها، إذ فيهــا أشهى أنواع الفواكة التي تشفي من أراد التداوي بها، كما تحمي من يتظلل بها من الحــر أو يتقي بها من البرد، فيقول:

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

بين أفنانها فواكـــه تَـشفي من تَداوَى بها من الأوصـــابِ

في ظلالٍ من الحرور وأكنـــا نٍ من القُرِّ جَمَّـــةِ الحُجَّـــابِ

يوظف الشاعر الطباق بشكل واضح لرسم صورة حياة هؤلاء المتـــرفين (قـــرينين- فريدين) و (غناء- انتحاب) و (الحرور- القر) وكلها تسهم في تعميق المعنى وتجلية الصورة.

كما يشير إلى كثرة الحجاب الذين يتخذونهم حراساً على بيوتهم وحدائقهم، وتدل كلمة (جمَّة) إلى عددهم الكبير، وبالتالي عناية هذه الطبقة بالحفاظ على ممتلكاتها وربما خوفها من دخول عناصر غريبة إليها، أو أنَّه مظهر اجتماعي تتطلبه طبيعة حياتهم المترفة بالإضافة إلى ذلك فإن كثرتهم تدل على كثرة الأموال التي تصرف فـــي مواضـــع لا تجنـــي إلا العـــبء الاقتصادي على كاهل الدولة.

تصلح هذه القصيدة لابن الرومي أن تكون مادة لدراسي علم الاجتماع والتـــاريخ، إذ يتحدث فيها عن حياة الطبقة المترفة باستفاضة ودقة كما يومئ إلى الطبقة الفقيرة ومعاناتها.

لقد امتلك هؤلاء المترفين كل ما تشتهي النفس من أكل وشـــرب وجـــواري وخـــدم وحجاب، وقصور وحدائق، وأفخر أنواع اللباس والعطور، فيقول فيهم أيضاً:

عندهم كلُّ ما اشتهوْهُ مـــن الآ كـــال والأَشْـــرِبات والأشـــوابِ

والطروقات والمراكب والولـــ دان مثـــل الـــشودان الأســـراب

واليلنجوج في المجامر والند تـــرى نـــشره كمثـــل الـــضباب

والغوالي وعنبر الهند والمســـ ـك على الهام واللحى كالخضاب

ولديهم وذائل الفضض البيـــ ض تبـــاهي ســـبائك الأذهـــاب

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

وبالإضافة إلى ذلك نجد لديهم النوق وأنواع المراكب الأخرى فضلاً عن الغلمان الذين يتصفون بالجمال، وكذلك البخور والند، ولكثرته وشدة اهتمامهم كان يملأ قصورهم كالضباب، وقد استخدم الشاعر صيغة الجمع وجمع الجمع للدلالة على الكثرة (الآكال، الأشربات، الأشواب، الطروقات، المراكب، الولدان) كما يوظف الصورة الفنية (مثل الشودان الأسراب) و (كمثل الضباب) ليجعل القارئ أو السامع على اطلاع وتصور لمظاهر حياة هؤلاء المترفين.

ويربط الشاعر بين استخدامهم أنواع البخور التي تنتشر في أرجاء القصور وبين استخدامهم أنواع العطور والطيب المختلفة (الغوالي، عنبر الهند، المسك) وكلها أنواع ثمينة وبعيدة المنشأ، وقد كانوا يبالغون بالتطيب بها حتى بدت على رؤوسهم ولحاهم كالخضاب، وإلى جانب ذلك يكشف ابن الرومي عن أنواع المرايا التي كانوا ينظرون فيها، فهي مفضضة تكاد تكون أجمل من سبائك الذهب، كما نلاحظ أن الشاعر يستخدم صيغة جمع الجمع بشكل واضح (الفضض، الأذهاب) وهذا يدل على كثرة الفضة والذهب لديهم، ولا يكتفي بذلك بل يبين لنا أنها من الفضة الخالصة والذهب المسبوك.

هكذا اجتمعت لدى هذه الطبقة المترفة جميع أسباب السعادة، وتوفر لديها كل ما تشتهي النفس أو تخطر به الخاطر، حتى انشغلوا بملذاتهم وأغفلوا مسؤولياتهم، بينما كان نصيب عامة الناس التعاسة والشقاء، والفقر والجوع، والبؤس والحرمان.

لقد أفاض ابن الرومي في حديثه عن ملامح حياة أولئك المترفين ليكون حديثه هذا دعوة إلى العدالة الاجتماعية، وانتصاراً للعلماء والأجلة من الناس، وإدانة للخلفاء والوزراء والمسؤولين وكل من له صلة بهم، ثم بوحاً بأمنيات إنسان مغلوب ومقهور، قادته شجاعته الأدبية أن يشجب الواقع، ويعارض السلطة، ويفتح عيون العامة على أسباب الخلل والضعف في بُنية مجتمعهم ونمط حياتهم المترعة بالآلام والأحزان.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library- Yarmouk University

الشريحة السادسة :(١١٨-١٤٠)

١١٨. والغوالي وعَنبرِ الهندِ والمســـ ـــك على الهام واللِّحَى كالخضابِ
١١٩. ولديهم وذَائلُ الفِضَضِ البيـــ ـــضُ تبـــاهي ســـبائكَ الأذهـــابِ
١٢٠. لم أكُن دون مالكي هذه الأمـــ ـــلاكِ لو أنصفَ الزمانُ المُحـــابى
١٢١. أنت طَبٌّ بـــذاك لكـــن تغابيْـــ ـــتَ وحابيتَ كـــلَّ كـــابٍ ونـــابِ
١٢٢. آتياً ما أتى الزمانُ من الظلـــ ـــمِ وهاتيك منـــك ســـوطٌ عـــذابِ
١٢٣. قاتَـــلَ اللَّـــهُ دهرَنـــا أو رمـــاهُ باستواءٍ فقـــد غـــدا ذا انقـــلابِ
١٢٤. يَعْلِفُ الناطقين من جَوْره الأجْـ ـــلالَ والناهقينَ محـــضَ اللُّبـــابِ
١٢٥. ثم تَلقى الحكـــيمَ فيـــه يُمـــالي كـــلَّ وغـــدٍ علـــى ذوي الآدابِ
١٢٦. جانحاً في هواهُ يَحكم بالحَيْـــ ـــفِ علـــى الأنبيـــاء للأحـــزابِ
١٢٧. لا يَعُدُّ الصوابَ أن تغمر الثـــرْ وةَ إلا ذوي العقـــولِ الخـــرَابِ
١٢٨. غيرَ مستكثرٍ كثيراً لذي الجهْـ ـــلِ وإن كان في عديـــد التـــرابِ
١٢٩. وإذا مـــا رأى لحامِـــلِ علـــمٍ قـــوتَ يـــومٍ رآه ذا إخـــصابِ
١٣٠. فمتى ما رأى له قـــوتَ شـــهرٍ عدَّهُ المُلكَ في اقتبـــال الـــشبابِ
١٣١. لا تُـــصَمِّمْ علـــى عقابـــك إيَّـــا يَ إذا أحـــسنَ الزمـــان ثـــوابى
١٣٢. فعسى يُمْنُ ما تُنيلُ هـــو القـــا ئدُ نحـــوي مواهـــبَ الوَهَّـــابِ
١٣٣. فمتى ما قَطَعْتَـــهُ جـــرَّ قطعـــاً للعطايا مـــن ســـائر الأصـــحابِ
١٣٤. كم نوالٍ مبـــاركٍ لـــك قـــد قـــا د نـــوالاً إلـــيَّ طـــوعَ الجنـــابِ
١٣٥. وأُمـــورٍ تيـــسّرت وأمـــورٍ بالمفـــاتيح منـــك والأســـبابِ
١٣٦. لا تُقابِـــلْ تَيَمُّنـــي بـــك بـــالردْ دّ ولا الظـــنَّ فيـــك بالإكـــذابِ
١٣٧. فاحم أنفـــاً لأنْ يُعَـــدَّ مُرجِّيـــ ـــكَ ســـواءً وعابـــدُ الأنـــصابِ
١٣٨. واجبي أن أرى جـــوابيَ عُتبـــا كَ فلا تجعلِ الـــسكوتَ جـــوابي
١٣٩. فتكونَ الـــذي تَنـــصَّل بـــالمُنْـ ـــصُلِ من ضربةٍ بصَفْحِ القِـــرابِ
١٤٠. إن في أنْ تَعُقَّني بعضَ إغـــضا بي وفي أن تهينَنـــي إغـــضابي

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

يتخذ ابن الرومي موقفاً حازماً من الطبقية والتفاوت الاقتصادي في عصره، ويرفضها متأذياً من تباين الحظوظ في الثروة والمكانة الاجتماعية، وغير مقتنع بشرعية ذلك التبـــاين، فنجده في هذه القصيدة يتظلم من ارتفاع نصيب غيره واتضاع نصيبه، ويثور كذلك على ذلك التباين ضارباً صفحاً عن مظاهر التعليل التأملية والزهدية، ربما لأنه أصبح يمثـــل شـــريحة كاملة من شرائح المجتمع، أولئك العلماء والشعراء الذين كسدت بضاعتهم، وانحـــط شـــأنهم، وعلا شأن أسافل القوم الجهال، إنه يعمد إلى إظهار السخط وإبداء الـــشكوى مـــن اخـــتلاف حظوظ الناس في هذا المجتمع والنقمة على إثراء الغير وافتقار الذات بما يعبر عـــن رغبـــة مقموعة في الثراء والمنصب، وشعور بالإحباط منبعث من ذلك القمع ، ولقد عبر عن موقفـــه هذا من خلال المقابلة والتضارب، وهو وإن فصل في شرح أحوال الأغنياء والمسؤولين فـــي مجتمعه فإن تفصيله وشرحه هذا يعني تجرده وتجرد العامة من كل ما يذكر من نعيم وهناء. إنها مقابلة تحتاج من القارئ إلى استنباط وتحليل واستشفاف نفسية الشاعر من بـــين شـــرائح قصيدته المختلفة.

يستهل الشاعر الشريحة الأخيرة بتأكيد جدارته بالثروة والمنصب، ونفي استحقاقه لما هو فيه من ظلم أكاديمي واقتصادي –إن جاز التعبير– فيقول:

لم أكُن دون مالكي هذه الأمـــ لاكِ لو أنصفَ الزمانُ المُحـــابى

يبدو ابن الرومي من خلال هذه القصيدة وغيرها أبرز تتويج لشعر التظلم من الحيف الاقتصادي والاجتماعي، ولموقف التشهير بالتفاوت الطبقي في المجتمع العربي القـــديم وفـــي عصره خاصة، كما يبدو شعره في هذا المعنى قمة في وصف حرمان الفنان في عصر تقاسم عقائل المال فيه حراس الدولة من الشرطة وضباط الجيش وكبار التجار الـــذين ملكـــوا كـــل

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

شيء، وفي ذكر اختلال أحوال الفقراء، لوجودهم في مجتمع اتصف أغنياؤه بالأنانية وغلظ الكبد، وصمتت فيه نداءات الأخلاق القديمة وضعفت فيه أوامر الدين ومؤسسات الدولة[1].

وكأن الشاعر في هذا البيت يصرخ مطالباً بمكانته الحقيقية والتي يستحقها، ويطالب بالعدالة الاجتماعية وإنصافه (لو أنصف الزمان) ثم ينتقل موظفاً أسلوب الالتفات من ضمير المتكلم (لم أكن) إلى ضمير المخاطب (أنت طب) لمخاطبة أبي سهل بن نوبخت ومعاتبته، فيقول:

أنت طَبٌّ بذاك لكن تغابيْـ ... تَ وحابيتَ كلَّ كابٍ ونابِ

آتياً ما أتى الزمانُ من الظلـ ... ـمِ وهاتيك منك سوطُ عذابِ

إن أبا سهل بن نوبخت على معرفة تامة بكفاءة ابن الرومي وجدارته لكنه أظهر الغباء وعدم الفطنة ومال بدون حق مع كل عائب وشاذ ممن حوله، وكان عوناً للزمان عليه، فأصبح الشاعر يعاني عثرات الزمان و ظلم الصديق.

وبعد بيتين من العتاب الموجه إلى أبي سهل ينتقل إلى الحديث مرة ثالثة عن انقلاب الأوضاع في المجتمع، وتباين الحظوظ وكساد الأدب والحكمة، فيقول:

قاتَلَ اللَّهُ دهرَنا أو رماهُ ... باستواءٍ فقد غدا ذا انقلابِ

يَعْلِفُ الناطقين من جَوْره الأجْـ ... ـلَ والناهقينَ محضَ اللُّبابِ

ثم تَلقى الحكيمَ فيه يُمالي ... كلَّ وغدٍ على ذوي الآدابِ

جانحاً في هواهُ يَحكم بالحَيْـ ... ـفِ على الأنبياء للأحزابِ

لا يَعُدُّ الصوابَ أن تغمر الثـ ... ـروةَ إلا ذوي العقولِ الخرَابِ

غيرَ مستكثرٍ كثيراً لذي الجهْـ ... ـلِ وإن كان في عديد التُرابِ

وإذا ما رأى لحامِلِ علمٍ ... قوتَ يومٍ رآه ذا إخصابِ

فمتى ما رأى له قوتَ شهرٍ ... عدَّهُ المُلكَ في اقتبال الشبابِ

---

[1] د. مبروك المناعي: الشعر والمال، دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، ص٤٨٠-٤٨١.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

يبدو أن غرض الشاعر الرئيسي في هذه القصيدة –وهو عتاب أبي سهل– كان غرضاً شكلياً، فهو لم يوجه عتابه له إلا في أبيات معدودة، وكان على ما يبدو يؤطر لموقف الشاعر والفنان الأديب من التفاوت الطبقي في مجتمعه، وضعف مؤسساته، وفساد القيم والأخلاق فيه، وإن كان بعض الشعراء الشعبيين قد وقفوا الموقف نفسه ورفضوا ما كان من فساد اجتماعي واقتصادي إلا إنَّهم اختلفوا مع ابن الرومي وكبار الشعراء في إخراج المعنى، إذ إنَّ الشعراء الشعبيين قدموا المعنى مباشرة وبشفافية وبطريقة تنحى منحى السخف والسخرية وتعمد إلى الإضحاك، ولم تكن نصوصهم تتميز بالسمك الفني والتكثيف التعبيري الذي كان لدى كبار الشعراء.

وها هو ابن الرومي يلعن الدهر الذي اختلفت فيه الموازين واضطربت أحوال الناس وتباينوا في الحظوظ، ثم يصور نصيب الشعراء والحكماء في هذا الدهر بعلف الدابة بينما نصيب السفهاء زبد الأشياء الخالصة. " ويلحظ بعض الدارسين أنّ لفظة " الدهر " في ديوان ابن الرومي لفظة محورية كثيرة الدوران فيه ، توجد وسط ألفاظ سياقية تدل عليها وهي : التفريق– الانقلاب – العناء – الفاجعة ....."(١)

ويقدم من خلال صيغتي اسم الفاعلين (الناطقين، الناهقين) دلالة معنوية تتمثل بتمايز المستوى الفكري لكل من العلماء والشعراء (الناطقين) والسفهاء وأسافل القوم من شرطة وكتاب وتجار (الناهقين) وتحمل هذه الصورة كذلك تبايناً في المعنى والصوت، فصوت الناطقين صوت بشري مرغوب في سماعه وذو معنى، بينما صوت الناهقين صوت حيواني مرغوب عن سماعه ويخلو من المعنى أو الفائدة.

وقد أصبح الحكيم في هذا الزمان يمالئ الأراذل من الناس ويساندهم، بل خرج عن دوره الإنساني الذي عرف له ليقف مع المبطلين دون المحقين، وخرج كذلك عن المقاييس

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والحقائق فعد الصواب خطأ والخطأ صواباً، فرأى أن أصحاب العقول الخربة هم الذين يستحقون الثروة، واختلفت كذلك نظرته للعلم وقداسته، فعطل حقهم في العطايا وقصر في إكرام وفادتهم ومكافأتهم المالية التي يستحقونها.

وإذا أمعنا النظر في هذه الأبيات وحاولنا ربطها بما يليها لوجدنا أن المقصود بـ (الحكيم) هو أبو سهل بن نوبخت وكل من يساويه في المكانة والقدر، ولذلك فقد انتقل من خلال أسلوب الالتفات من ضمير الغائب (فمتى ما رأى) إلى ضمير المخاطب (لا تصمم) في الأبيات التالية:

لا تُصَمِّمْ على عقابك إيَّا ... يَ إذا أحسنَ الزمان ثوابى

فعسى يُمْنُ ما تُنيلُ هو القا ... ئِدُ نحوي مواهبَ الوَهَّابِ

فمتى ما قَطَعْتَهُ جرَّ قطعاً ... للعطايا من سائر الأصحابِ

كم نوالٍ مباركٍ لك قد قا ... د نوالاً إليَّ طوعَ الجنابِ

وأمورٍ تيسّرت وأمورٍ ... بالمفاتيح منك والأسبابِ

تشير بعض الدراسات الأدبية إلى أن " قصائد الاستنجاز وعتاب الممدوحين كانت ظاهرة استشرت في القرن الثالث الهجري، وارتبطت بتراجع العطاء على المدح وأسهمت في تضخم هذا النوع من الشعر " [1]. ولعل ابن الرومي من أكثر الشعراء استنجازاً وعتاباً على تأخر العطية، وأكثرهم شكوى من كساد الشاعر، فكان شعره في الممدوحين والأصدقاء أكبر من عطاياهم مما زاده بؤساً ونكداً فها هو يرجو من أبي سهل أن يمن عليه بالعطاء، مذكراً إياه بأعطيات له كثيرة كانت سبباً في الرزق وتيسير الأمور.

---

(1) د.مبروك المناعي: الشعر والمال، ص ٢٠٦.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

ويبدو أنَّ الشعور الانفعالي لدى الشاعر قد أخذ بالفتور والبرود، وتراجعت حدة موقفة لا قبولاً وتسليماً لواقع العصر بل رغبة في كسب ود الممدوح وعطائه وتعـويض حرمـان الذات المقهورة مادياً ومعنوياً.

ثم يوظِّف الأساليب الإنشائية من نهي وأمر لبلوغ المعنى وتوطيد أركان الخطاب مع ممدوحه فيقول:

لا تُقابِلْ تَيمُّني بك بـالردْ دّ ولا الظـنَّ فيـك بالإكـذابِ

فاحم أنفاً لأنْ يُعَدَّ مُرجِّيـ كَ سـواءً وعابـدُ الأنـصابِ

فتكونَ الذي تَنصَّل بالمَنْـ صُلِ من ضربةٍ بصَفْح القِـرابِ

يضفي الشاعر في هذه الأبيات على ممدوحه لبوساً دينياً فيجعله موضع تبرك ورجاء، ويباين بين حاله وحال من يتبرك ويعبد الأنصاب، إذ إنَّ عابد الأنصاب لا يجني فائـدة مـن عبادته هذه كما لا ينفعه ولا يضره معبوده، بينما أبي سهل فإنه موضع رجاء وأمل ؛ لأنه قد خبره في مواضع سابقة (كم نوال مبارك لك).

وقد طلب منه أن يحمي أنفه من الضيم، فكان موفقاً في استخدام كلمة (أنف) بمعناها الدلالي، فكلمة أنف تدل على العزة والكرامة والشموخ، فكان من الواجب على أبي سـهل أن يصون كرامة صديقه ، ويحفظ عزته ورجولته وشموخه ، وألا تكون قطيعته ضربة قاتلـة ولا يلبث انفعال الشاعر أن يستمر قليلاً في البرود والاستعطاف حتى يأخذ بالتزايد والحـدَّة مرة أخرى، فيقول:

إن في أنْ تَعُقَّني بعضَ إغـضا بي وفي أن تهينَني إغضابي

كنتَ تأتي الجميـلَ ثـم تنكَّـرْ تَ فعاتبتُ مُجملاً في العتـابِ

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

فأْتَنِفْ تَوبــةً وراجــعْ فعــالاً ترتضيهِ الأســلافُ للأعقــابِ

يستخدم الشاعر هنا معنى شرعياً يحتم على أبي سهل البر والعطاء، فيعد منعه العطاء عقوقاً (تعقني) بما توحيه الكلمة من معنى التقصير في الطاعة وإهمال الواجبــات المترتبــة عليه، كما توحي بالذنب والعقاب، وإن عقوق أبي سهل للشاعر وإهانته سبب في إغضابه .

تم تعلو نبرة الغضب وتأخذ طريقها إلى التهديد، فيبين لأبي سهل أن عتابه في هــذا النص الشعري كان مجملاً لا مفصلاً، وكأنه ينذره بنصوص شعرية لاحقــة إن تــأخر فــي العطاء، لا غرو أن الشعر سيفه الذي يشهره في وجه أعدائه أو يدافع عن ذاته.

وهنا يستخدم الشاعر أفعال الأمر تباعاً وبنبرة كلها أنفة وحدَّة (فــأتنف) و (راجــع)، ويطلب منه الرجوع إلى فعاله الخيرة والتوبة عما بدا منه من تقصير وعقوق، وهنــا يــربط الشاعر بين العقوق والتوبة، فالتوبة تجبُّ ما قبلها، كما تستوجب فعل الخير والإقــلاع عــن الخطأ، إنه يطلب منه توبة وفعلاً خيراً ترتضيه الأسلاف للأعقاب.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

ثالثاً ـ رائية العطوي يشكو فيها الزمان .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ثالثاً – رائية العطوي يشكو فيها الزَّمان :

العطوي شاعر عباسي العصر، بصري المولد والمنشأ، كناني الولاء، معتزلي العقيدة. عاش في فترة ذهبية من العصر العباسي، وعاصر في بلده أشهر علمائه من شعراء وكتّاب ومتكلمين، فنهل من علومهم وتلقى عنهم. وحين بلغ مبلغ الرجال لم يجد حظاً في بلده فارتحل عنه إلى مركز الخلافة، وتقرب هناك من ذوي النفوذ بعلمه وأدبه، ولكنه مع هذا لم يحصل على بغيته التي ارتحل من أجلها والمكانة التي يريد الوصول إليها، وهكذا يعيش بقية حياته فقيراً مملقاً حتى وفاته [١].

ترجم له ابن المعتز في طبقات الشعراء، ولم يذكر نسبه بل اكتفى بكنيته ولقبه [٢] أما من جاء بعده فاتفقوا على أن اسمه (محمد) لكنهم يختلفون في ذكر اسم أبيه، فمنهم من يقول: (محمد بن عطية) [٣]، وقيل (محمد بن عبد الرحمن بن أبي عطيه) ومنهم [٤] من يكتفي بقوله: (محمد بن عبد الرحمن بن أبي عطية) أما كنيته (أبو عبد الرحمن) فلم يختلف أحد فيها.

يتضح من قراءة ما وصل من شعره أنه كان فقيراً مملقاً، كثير الشكوى من الفقر والحرمان من الحياة المرفهة التي كان يعيشها غيره من العلماء، والجاه و ذوي الحظوة التي كان يجدها هؤلاء العلماء من الخلفاء والوزراء، كما ذم الزمان واشتكى الأصدقاء وأكثر من معاقبتهم.

---

(١) محمد جبار المعيبد: شعراء بصريون، ص٧.

(٢) ابن المعتز: طبقات الشعراء، ص٣٩٥.

(٣) الطبري: تاريخ بغداد، ١٣٧/٣.

(٤) الأصفهاني: الأغاني ١٢٣/٢٣/ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣٩/٦.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

وأزاء هذا الفقر أهمل الاهتمام بمظهره ونظافته، وتنبه إلى قيمة المال فقتر على نفسه حتى وصف بالبخل والتقتير [1].

لذا يصلح العطوي أن يكون نموذج الشاعر الفقير الرافض مظاهر فقره وحياته البائسة، لكن رفضه جاء على نمط الشكوى من الزمان، ولعله لم يمتلك الجرأة الأدبية للرفض المباشر وإدانة الدولة لما هو فيه من ضيق وفقر وتدهور حياة عامة الشعب، من طبقته فأخذ يشكو الزمان ويعاتب الأصدقاء، مبرزاً ملامح حياته البائسة، في قصائد شعرية تتسم بالقصر، وإخراج المعنى ببساطة وشفافية بعيداً عن التكثيف الشعري أو التعقيد، فيقول[2]:

مَنْ رَمَاهُ الإِلَهُ بالأَقْتَارِ ... وَطِلابِ الغِنَى مِنَ الأَسْفَارِ

هُوَ فِي حِيْرَةٍ وَضَنْكٍ وَإِفْلا ... سٍ وَبُؤْسٍ وَمِحْنَةٍ وَصَغَارِ

يَا (أَبَا القَاسِمِ) الَّذِي أَوْضَحَ الجُو ... دُ إِلَيْهِ مَقَاصِدَ الأَحْرَارِ

خُذْ حَدِيثِي فَإِنّ وَجْهِي مُذْ بَا ... رَزَ هَذا الأَنامَ فِي ثَوْبِ قَارِ

وَهْوَ لِلسَّامِعِيْنَ أَطْيَبُ مِنْ نَفْـ ... ـحِ نَسِيمِ الرِّيَاضِ غِبَّ القِطَارِ

هَجَمَ البَرْدُ مُسْرِعاً وَيَدَي صِفْـ ... ـرٌ وَجِسْمِي عَارٍ بِغَيْرِ دِثَارِ

فَتَسَتَّرتُ مِنْهُ طُولَ التَّشَارِيـ ... ـنِ إِلَى أَنْ تَهَتَّكَتْ أَسْتَارِي

وَتَسَجْتُ الأَطْمَارَ بِالخَيْطِ وَالإِبْـ ... ـرَةِ حَتَّى عَرِيْتُ مِنْ أَطْمَارِي

وَسَعَى القَمْلُ مِنْ دُرُوزِ قَمِيْصِي ... مِنْ صِغَارٍ مَا بَيْنَهُمْ وَكِبَارِ

يَتَسَارَعُونَ فِي ثِيَابِي إِلَى رَأْ ... سِي قِطَاراً تَجُوَّلَ بَعْدَ قِطَارِ

ثُمّ وَافَى كَانُونُ وَاسْوَدَّ وَجْهِي ... وَأَتَانِي مَا كَانَ مِنْهُ حِذَارِي

---

(1) الأصفهاني: الأغاني ١٢٤/٢٣.

(2) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ١٠/٥.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لَـــو تَأَمَّلْـــتَ صُـــورَتِي وَرُجُـــوْعِي حِيْنَ أُمْسِي إِلَى رُبُـــوعِ قِفَـــارِ

أَنَـــا وَحْـــدِي فِيْـــهِ وَهَـــلْ فِيْـــهِ فَـــضْلٌ لِجُلُـــوسِ الأَبِـــيْسِ وَالـــزُّوَّارِ

والخَـــلا لا يُـــرَادُ فِيْـــهِ فَمَـــا لِـــي أَبَـــداً حَاجَـــةٌ إِلَـــى الحَفَّـــارِ

بَـــلْ يُـــرَادُ الخَـــلا لِمُنْحَـــدَرِ النَّجْـــ ـــوِ وَمَا ذُقْتُ لُقْمَةً فِـــي الـــدّارِ

وَإِذَا لَـــمْ تُـــدِرْ عَلَـــى المُطْعِـــمِ الأَفْـــ ـــوَاهِ سُدَّتْ مَثَاعِـــبُ الأَحْجَـــارِ

يضعنا العطوي منذ مطلع القصيدة أمام ثنائية ضدية تمثل ظـــاهرة اجتماعيـــة فـــي عصره، وهي ثنائية الفقر والغنى، حيث تنعم طبقة من المجتمع بأثواب السعادة والهناء، وقـــد توفر لها كل ما تطمح إليه من قصورٍ وجوارٍ وثيابٍ فاخرة، وطعام وشراب مختلف أصنافه، بينما تعيش طبقةٌ أخرى حياة شقاء وتعاسة، حيث البؤس والحرمان، والفقر والجوع، لا مأوى يجمع أفراد أسرتها، ولا ثياب تستر أجسادهم، أما الطعام والشراب –فإن وجد– فهو مقصور على صنفٍ واحدٍ من دقيق الحنطة أو الشعير.

ويقرر الشاعر بأن الفقر وضيق العيش أمرٌ مقدَّرٌ مـــن عنـــد الله، يـــصيب الـــبعض ويتجاوز آخرين، وتوحي كلمة (رماه) بمعناها الدلالي بأن الفقر لا يشمل الأغلبية كما تـــوحي بأنه أمرٌ خارج عن رغبة وإرادة الإنسان أو اختياره، وليجعله أكثر قبولاً في نفس الإنسان أو رضا به أسند الفعل (رمى) إلى القوة الإلهية ليكون مصدره من عند الله فتقنع النفس وترضخ له وتتحمل مشقته.

ثم يكشف عن حقيقة جوهرية في نفس الإنسان، وهي حبّه للمال وسعيه الدائم للحصول عليه ، سواء أكان فقيرا أم غنيا ، فالمال دائما مطلوب والإنسان طالب له، وهذا ما تكـــشفه كلمة (طِلاب) من سعي دائم نحوه ورغبة شديدة في الحصول عليه، ولذا فهو يستدعي الـــسفر في كثير من الأحيان لا سيما فاقدهُ، وقد وظَّف الشاعر كلمة (الأسفارِ) بصيغة الجمع لتدل على

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

أن طلب المال يستوجب السفر مراراً وتكراراً، كما تدل على المشقة والمعاناة التي يجدها الإنسان في سفره من تعبٍ جسدي أو غربةٍ عن الأهل والوطن.

ولو تأملنا كلمة (الأسفار) لوجدناها تتألف من أربعة مقاطع صوتية طويلة، يبدأ كل مقطع متحرك وينتهي بساكن (ألْـ- أَسْـ- فَاْ- رِيْ) وهذه الحركة التي تنتقل من حركةٍ إلى سكون تماثل حركة المسافر الذي ينتقل من مكان ليستقر قليلاً في مكانٍ آخر، فلا يجد مبتغاه فيضطر إلى الحركة مرة أخرى والانتقال إلى مكانٍ آخر آملاً أن يجد رزقه وهكذا. وهذه حال شاعرنا الذي تنقل كثيراً من مكانٍ إلى آخر ليحصل على الرزق والحظوة التي يتمناهما ثم نجد الشاعر وكأنه باحث اجتماعي يتبين الآثار السلبية للفقر والسفر -طلباً للمال- فيقول:

مَنْ رَماهُ الإلَـهُ بِالأقْتَـارِ وَطِلابِ الغِنَى مِنَ الأَسْـفَارِ

هُوَ فِي حِيْرَةٍ وَضَنْكٍ وَإِفْلا سٍ وَبُؤْسٍ ومِحْنَةٍ وَصَغَارِ

إنّ أولى آثار الفقر وتكلف السفر الوقوع في الحيرة، والحيرة مردها التفكير المستمر من قبل المرء أو ربّ الأسرة في كيفية تأمين لقمة العيش والمتطلبات الأساسية لأبنائه، ثم القلق بشأن أفراد أسرته في غربته وسفره، فهو يعيش حالة من عدم الاتزان والتوتر النفسي بين الواقع والمستقبل، بين المعلوم والمجهول، فحاله وحال أسرته تستدعي القلق وتجلب الغم والحزن، والسفر يستدعي القلق كذلك، القلق على الأهل والأولاد في حال غيابه، فضلاً عن مخاوف السفر ومشقته، إن معاناته لا تنقطع وتفكيره مستمر، وهمومه لا تزول.

ومن الآثار السلبية -أيضاً- للفقر الشعور بالضنك؛ إذ يجد رب الأسرة نفسه عاجزاً عن أداء دوره في إدارة شؤونها وتدبير أمورها، فحق القوامة التي أوكلت إليه تشغل بالهُ، وتجعله في ضيقٍ وهمٍ، لمعاناته الشخصية ومعاناة أفراد أسرته من آثار الفقر، بينما النفسي

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فيتجسد في معاناة الآخرين من أفراد أسرته وعجزه وربما فشله -من منظوره ومنظورهم- في تأمين أسباب الحياة الكريمة لهم.

ويُعد الإفلاس أحد آثار الفقر، إذ تتراكم الديون، وتجوع الأسرة وتعرى، وقد تفتقد إلى المأوى، -وإن وجد- فهو في حالة يُرثى لها، من تداعي أركانه، وتشقق جدرانه، حتى أن الفئران لتهجره لقسوة الحياة فيه.

كما أن قلة الطعام والشراب، ورثاثة الثياب، وسوء المسكن، وكثرة الديون، والإفلاس، كل هذه من شأنها أن تولد البؤس، وتزرع الحقد والكره في قلوب الفقراء حينما يجدون غيرهم يرفل بأثواب النعيم، يأكلون أشهى الأطعمة، ويلبسون أفخر أنواع الحرير، ويسكنون القصور، على الرغم بأنهم لا يفوقونهم علماً أو حكمة أو أدباً.

على أن شعور الأديب بالغربة وكساد أدبه لا يقل أهمية عن هذه الآثار، إذ يشعر بأن الزمان غير زمانه، وأن الأدب بضاعة كاسدة في زمن اللهو والمجون وفي زمن الطبقية الممقوتة، إنه شعور بالمحنة حيث لا يجد المرء مكانته الحقيقية في مجتمعه، ولا يستطيع أن يحفظ وجوده الأدبي الذي كان يحظى به في الزمن الماضي، وهذا يضطره أن يستعطف، ويستجدي أصحاب الجاه والمناصب، والأثرياء من مجتمعه، وقد لا يجد جدوى من استعطافه واستجدائه، فيشعر بالذل والصغار.

وكل هذه الآثار السلبية المترتبة على الفقر من شأنها أن تولد الألم والحسرة والوجع في نفس الإنسان الفقير، وقد أوحى تنوين الكسر في هذا البيت بهذا الشعور، فقد جاءت الكلمات الستة منوَّنة (حيرةٍ- ضنكٍ- إفلاسٍ- بؤسٍ- محنةٍ- صغار) إذ يتوالى الإيقاع ذاته لكلمات تحمل مدلولاً يجمع الحزن والألم.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

ويشكل البيتان مقدمة تمهيدية للانتقال إلى غرضه الشعري وهو الاستجداء، وقد وجه خطابه إلى (أبي القاسم) الذي ربما يكون أحد أصدقائه الأثرياء، أو من المسؤولين الذين يسعى إلى التقرب إليهم ونيل عطائهم، فيقول:

يَا (أبَا القَاسِمِ) الَّذِي أَوْضَحَ الجُو ... دُ إِلَيْـــهِ مَقَاصِـــدَ الأَحْـــرَارِ

خُذْ حَدِيْثِي فَإِنّ وَجْهِـي مُـذْ بَـا ... رَزَ هَذا الأَنَامَ فِـي ثَـوْبِ قَـارِ

وَهْوَ لِلسَّامِعِيْنَ أَطْيَـبُ مِـنْ نَفْـ ... ـحِ نَسِيْمِ الرِّيَاضِ غِبَّ القِطَـارِ

ينتقل العطوي إلى غرضه الشعري عن طريق أسلوب الالتفات، إذ ينتقل من ضمير الغائب (رماه) إلى ضمير المخاطب (خُذْ)، وموظفاً- أيضاً- أسلوب النداء، واستخدام الأداة (يا) للقريب والبعيد، وهو يريد بأن أبا القاسم شخصاً قريباً، خبره عن قُرب، وسبق أن جرّبه في الأيام العصيبة، فذاق حلاوة عطائه، ويطمع في المزيد.

ويبدو أن العطوي قد سأم الناس وعافهم، إذ لم يجد منهم مَنْ يُسانده في أيام شدته ومحنته، فانقطعت علاقته بهم، وسد تجاههم الأبواب وأبقى على صلته بأبي القاسم، فهو الصديق المؤمل به، والمرجو صلته.

وقد استخدم التصوير الفني ليعبر عن محنته وشعوره آزاء أولئك الذين خذلوه وتركوه يصارعُ قدره وحيداً، فقد صور وجهه وقد اكتسى ثوباً من القار، والقارُ مادة نفطية سوداء، وهنا تبرز أهمية الألوان ودلالتها، إذ يرتبط لون القار بنفسية الشاعر الحزينة المشحونة بنظرة سوداوية لمن حوله من الناس ولواقعه المظلم.

وبعد ذلك ينتقل العطوي إلى شرح أحوال معيشته، وظروف حياته القاسية، ليرق قلب أبي القاسم ويجزل عطاءه، فيقول:

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

هَجَمَ البَرْدُ مُسْرِعَاً وَيَدَي صِفْـــ ـــرٌ وَجِسْمِي عَارٍ بِغَيْرِ دِثَـــارِ

فَتَسَتَّرتُ مِنْهُ طُـولَ التَّـشّارِيـــ ـــنِ إلى أنْ تَهَتَّكَـتْ أَسْـتَارِي

وَتَسَجْتُ الأَطْمَارَ بِالخَيْطِ وَالإبْـــ ـــرَةِ حَتَّى عَرِيَتُ مِنْ أَطْمَارِي

وَسَعَى القَمْلُ مِنْ دُرُوزِ قَمِيْـصِي مِنْ صِغَارٍ مَـا بَيْـنَهُم وَكِبَـارِ

لعل معاناة الفقراء من عامة الناس تزداد في فصل الشتاء، إذ يحتاجون إلـى وسـائل تدفئة، وطعام يبعث الدفء في أوصالهم، ولباس يقي أجسادهم برد الشتاء، وبيـوت محكمـة تقاوم المياه الداهمة.

إنها متطلبات تشكل هاجس كل رب أسرة فقيرة، والعطوي واحدٌ من أولئـك الـذين يشغلهم ذلك الهاجس، إذ إنَّه لا يملك قوت أطفاله، ولا يجد ما يدثرهم به في البرد القارص.

ويدل الفعل الماضي (هجم) على شدة تخوفه من أيام الشتاء، فالفعل بمدلولـه يبعـث معاني الخوف، والمواجهة، والصراع، فضلاً عن إيقاعه الموسيقي المتمثل بتفاوت مخارجـه وتجاور أصواته، فهو إيقاع يوحي برنين أجراس الخطر القادم، الذي يأتي به فصل الـشتاء، ولعل فصل الشتاء فصل تتعطل فيه حركة العمال، كالحمالين، والحفـارين، وأولـي العمـل البدني، كما أنه فصل الذخر والادخار، أما العطوي فرصيده من الذُخر والادخار صفرٌ.

وتحمل كلمة (صِفْرٌ) دلالة معنوية ولفظية، إذ إنَّها تدل على قيمة رقمية لا أهمية لها، فهي تعني الخواء والعدم واللاوجود ، كما تبعث أصوات حروفها المعنى السلبي نفـسه مـن خلال حرف الصاد والفاء والراء، فالصاد صوت فيه معنى التنبيه، والفـاء يـوحي بالتـأفف والضجر، أما الراء فيوحي بالاهتزاز وعدم الاستقرار، فضلا عن تنوين الضم الذي يـوحي بالأنين والألم.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

ولو تأملنا اسم الفاعل (مُسرِعاً) لوجدناه يعطي معنى الحركة السريعة المُضادة للحركة البطيئة، ومع أن السرعة تحمل الدلالتين الإيجابية والسلبية إلا إنّ العطوي لا يجد إلا الدلالة السلبية ويتمنى ما يقابلها من حركة، لأنه لا يملك حركة توازيها أو قيمة رقمية تتصدى لهذه السرعة، فقيمة (صفر) لا تمنحه المقاومة.

وتتفاقم مصيبة الشاعر وتضمحل مقاومته أزاء عري جسمه، وبالتالي فهو يفتقد إلى أحد أهم مقومات الحياة ومتطلباتها وهي الملبس، وتتناسب دلالة عري الجسم من الملبس مع دلالة (صفر)، وتتناسب معها كذلك في إيقاعها الموسيقي فحرف العين في كلمة (عارٍ) يُوحي بالتوجع بالإضافة إلى اتصاله بحرف المد (عا) الذي يمكنه من إطلاق آهاته المكبوتة، وأخيراً حرف الراء المنون بتنوين الكسر بدلالته التي تجمع القلق والتوتر إلى جانب الأنين والألم.

قد اتخذ الشاعر شهر تشرين ستراً ووقاية من فصل الشتاء، ويبدو أنه يسكنه القلق، ويشغله تعري جسمه، فيحاول ستر عورته بغير المعهود، إنه يتستر بالزمن ضد الزمن، ولو تأملنا قوله (طول التشارين) لوجدنا أن كلمة (طول) توحي بالامتداد والاتساع، وهذا يعني أن حالته شبه دائمة لا عارضة أو طارئة، وهذا ما يؤكده جمع (تشرين) إلى جانب الدلالة المعنوية للفعل (تهتّكتْ) الذي دل على المبالغة في الإزالة وكشف العورة وهو يقابل الفعل (تسترتُ).

وتتضح مقاومة الشاعر وفاعليته أزاء البرد والجوع من خلال إسناده الأفعال إلى ضمير المتكلم (تستّرتُ- نسجتُ) فالشاعر يحاول أن يقاوم أسباب تعاسته ومعاناته، لكنها مقاومة ضعيفة إذا ما قيست بالأفعال المسندة إلى غيره من الضمائر والأسماء (هجم البردُ- تهتكت أستاري- سعى القمل- يتساعون....الخ).

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library- Yarmouk University

إن ثياب الفقراء من الناس تحكي قصتهم في هذه الحياة، من خلال رقتهـــا، أو بهاتـــة ألوانها، أو قصرها أو كثرة رقعها، فضلاً عن فرديتها، إذ لا يملك أحدهم ثوباً آخر بديلاً عن ثوبه اليتم.

وهذه حال العطوي الذي يحاول أن يستر جسده بأثوابه الخلقة الباليـــة، إذ يحـــاول أن يصلح شقوقها، ويرتق فتوقها بالخيط والإبرة (نسجتُ أطماري) وكأن هذه الـــشقوق والفتـــوق اتسعت حتى اشتملت الثوب كله فأخذ بالنسيج، وكأنه يصنع الثوب من جديد، كما تتناسب دلالة (أطماري) مع السياقات السابقة التي تدل على الكشف والعورة، فالفعل (طمر) معناه المعجمي ستر الشيء حيث لا يُدْرى، لكنها محاولة فاشلة لأن ثيابه البالية شهدت مـــرات عديـــدة مـــن إصلاح شأنها، وتآكلت خيوطها، حتى أصبحت في غاية الوهن والضعف ولا يمكنهـــا ســـتر عورة صاحبها.

ويدل الفعل (عريتُ) على الضعف والتجرد، فالشاعر يعلن ضـــعفه أمـــام متطلبـــات الحياة، وتجرده من أبسط مقوماتها كما يختلف عالم الأغنياء عن عـــالم الفقـــراء فـــي نمـــط معيشتهم، من حيث المسكن والملبس والمأكل، فإذا كان الأغنياء يلبسون أفخر أنـــواع الفـــراء المستوردة، والحرير الموشى بالذهب، فإن لباس الفقراء أطمارٌ شاحبة، وإن كانـــت قـــصور الأغنياء تسكنها الطيور المغردة والحيوانات الأليفة فـــإن بيـــوت الفقـــراء تملؤهـــا الفئـــران والحيوانات القارضة، ورؤوسهم يسكنها القمل، وهو –القمل– حشرة غالباً ما تـــلازم انعـــدام النظافة الشخصية أو تدهور الحالة الاجتماعية ليصبح مرضاً يحتاج إلى العلاج والوقاية (فهو يتواجد عادة في الأحياء الفقيرة).

إن إصابة الشاعر بالتَّقمل علامة دالة على فقره وسوء حاله، كما يبدو أن فقره يبلـــغ درجة شديدة يمتد من الماضي البعيد وحتى الحاضر، وهذا ما يوحيه الفعل الماضي (ســـعى)

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

والفعل المضارع (يتساعون) الذي يدل على كثرة أعداده من جهة واستمراريته من جهة أخرى.

ولو تأملنا البيت الشعري:

وَسَعَى القَمْلُ مِنْ دُرُوزِ قَمِيْصِي مِنْ صِغَارٍ مَا بَيْنَهُم وَكِبَارِ

لوجدنا أن التركيب اللغوي (من دروز قميصي) يوحي بمعانٍ عديدة، فالفقر ومظاهره يتخلل حياة الشاعر من كل الاتجاهات، كما يوحي بشعور الضيق وشدة المعاناة الناجمة عن الفقر (دروز) ويفهم القارئ من خلال هذا التركيب اللغوي بأن قميص الشاعر مهترئ وبالٍ فدرزوه اتسعت لتسمح للقمل بالسعي والتكاثر من خلالها.

أما التركيب اللغوي (من صغار ما بينهم وكبار) فيدل على طول تعايش الشاعر مع القمل، فضلاً عن كثرته وتكاثره (صغار- كبار) وهذا ما يؤكده الطباق الوارد هنا، فالشاعر على معرفة جيدة به صغيره وكبيره.

ويلفت النظر في هذه الأبيات نوع الحركة التي توحي بالسرعة (هجم- مسرعاً) وبالتردد (سعى- يتساعون) لتتلائم مع المعنى وتسانده؛ فالبرد محط مخاوف وقلق بالنسبة للشاعر (هجم البرد) والقمل يملأ ثيابه منذ زمن بعيد وما زال ، ويستعير الشاعر حركة القطار وشكله الطويل ليكشف عن معاناته وامتدادها، فالقمل يسعى حتى يصل رأسه مشكلاً قطاراً يتلو قطار (قطاراً تجول بعد قطار).

وتتناسب الألوان مع الأشكال والصور لدى الشاعر فالقمل يتناسب لونه مع لون القطار، وحركة القمل في صفٍ منتظم تناسب حركة القطار المتتابعة والمنتظمة.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لم يفلح الشاعر في محاولاته للتصدي ضد البرد وتستره منه بالزمن (التشارين) ولا إصلاح ثيابه (نسجتُ الأطمار) لأن حركة الزمن ودورانه أقوى من قدرة الشاعر وخارجة عن إرادته ورغباته، فقد جاء فصل الشتاء في موعده، فيقول:

ثُمّ وَافَى كَانُونُ وَاسْودَّ وَجْهِي وَأَتَانِي مَا كَانَ مِنْهُ حِـذَارِي

لقد وصل الشتاء (وافى كانون) في موعده وكان وفياً في وعده، وتحققت مخاوف الشاعر وهواجسه.

ولو تأملنا هذا النص الشعري لوجدنا اللون الأسود يشغل مساحات كثيرة منه (القمل- قطار- أسودّ) وهو لون يعكس نفسية الشاعر السوداوية وشعوره بالحزن والقلق والخوف، كما أنه لون يبعث على التشاؤم.

يمثل الشاعر الإنسان الكادح المعدم الحال، الذي يفتقد إلى أسباب السعادة أو أبسط ما يحتاج إليه الإنسان، وعلى الرغم من ذلك فالشاعر لا يرضى بالاستسلام أو انتظار الموت والفناء بل نجده يصارع الحياة ويبحث عن رزقه وقوت يومه، فيخرج منذ الصباح الباكر آملاً في الفرج والخير لكنه يعود صفر اليدين، فيقول:

لو تَأَمَّلْتَ صُوْرَتِي وَرُجُـوعِي حِيْنَ أُمْسِي إِلَى رُبُوعٍ قِفَـارِ
أَنَا وَحدْي فِيْهِ وَهَلْ فِيْهِ فَـضْلٌ لِجُلُوسِ الأَنِـيْسِ وَالـزُّوّارِ
وَالخَلا لا يُرَادُ فِيْـهِ فَمَـا لِـي أَبَـدَاً حَاجَـةٌ إِلَـى الحَفَّـارِ
بَلْ يُرَادُ الخَلا لِمُنْحَـدَرِ النَّجْـ ـوِ وَمَا ذُقْتُ لُقْمَةً فِي الدّارِ
وَإِذَا لَمْ تُدِرْ عَلَى المُطْعِمِ الأَفْـ ـوَاهِ سُدَّتْ مَثَاعِبُ الأَحْجَـارِ

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

إن معاناة العطوي لا تقف عند حد الفقر بل يُضاف إليها الوحدة، لتصبح معاناة معقدة، إذ ربما كان الحضور الإنساني حوله وفي منزله يخفف وطأة المعاناة لكنه في لحظة ما يشعر بأنه إنسان مسحوق بين دفتي الفقر والوحدة، فالربوع المقفرة التي يشير إليها تحتمل المعنين، خلو دياره من الرزق والقوت وخلوها من الأنيس والجليس، أو الأهل والولد، وقد صرح بوحدته في الجملة الخبرية (أنا وحدي) ثم يوظف الاستفهام الإنكاري (وهل فيه فضلٌ لجلوس الأنيس والزوار) ليبين لنا أنه يعاني بشدة من الفقر والوحدة في آن معاً، كما نلمح في هذا السياق رؤية فلسفية وهي أن الإنسان كائن اجتماعي لا يمكنه أن يعيش بمفرده معزولاً عن أقرانه من البشر.

ولو تأملنا الإيقاع الموسيقي في هذا النص الشعري لوجدناه يمضي على وتيرة واحدة، إذ إنَّ الشاعر يبدو شاكياً زمانه ومستعطفاً أبا القاسم لنيل عطائه، فهو وإن يرفض ما كان يجري في مجتمعه من تفاوت طبقي، ويبين حالة الطبقة الكادحة من مجتمعه إلا إنَّه لا يملك سبيلاً للرفض سوى الشكوى والتذمر. فأصوات الأنين والوجع والآهات لا تغادر بيتاً من أبيات القصيدة، والحزن والبؤس لا يفارق الشاعر أبداً.

ويبين الشاعر مدى حرمان الطبقة الفقيرة التي تنتظر لقمة تسد جوعها، فيوظف أسلوب النفي (وما ذقت لقمة في الدار) ليشير إلى حرمانها الطعام مطلقاً حتى تكاد تفقد حاسة التذوق (وما ذقت) ، وهو يمثل عمق معاناة تلك الطبقة وشدة نقمتها على الطبقة المترفة التي تنعم بحياة رغيدة .

ويسبغ على أبي القاسم الصفات الإيجابية ويجعله مصدر الأمل والرجاء وذلك من خلال صيغة اسم الفاعل (المُطعم) والصورة الفنية (إذا لم تدر على المطعم الأفواه سُدّت

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

مثاعبُ الأحجار) إذ يصور أفواه الفقراء الجياع بالمثاعب (والمثاعب هي مجاري المياه) وأبا القاسم المطعم الذي يسد بعطائه تلك المثاعب.

ويوحي الفعل المضارع (تُدِر) بحركة دورانية مستمرة، وكأنّ معاناة هؤلاء الفقراء لا تنقطع، كما يوحي بأن المطعم هو المركز والأساس والفقراء الجياع يتبعون مطعمهم وينقادون إليه، ويجرون في مساره، كما توحي صيغة الجمع في (الأفواه- مثاعب- أحجار) باتساع شريحة الفقراء وكثرتهم في المجتمع آنذاك.

نلاحظ من خلال قراءة النصين الشعريين السابقين لابن الرومي والعطوي تبايناً واضحاً من حيث الأداء الفني والدور الوظيفي لكل منهما، فنص ابن الرومي تعلو فيه الشاعرية والتكثيف الشعري واللغة الفنية، وطول النفس الشعري، بينما نص العطوي يأخذ طابعاً مغايراً تبرز فيه المباشرة والوضوح، وتقل فيه الصور الفنية، ويصل إلى غرضه الشعري بأبيات قليلة، أما على صعيد الدور الوظيفي فإن ابن الرومي كان يمثل أنموذج الشاعر الرافض لواقع مجتمعه رفضاً مباشراً، فوجّه رفضه صريحاً لقطاعات سياسية ومسؤولة وعاب عليها فسادها، كما صور حياة المترفين من جميع جوانبها، ودعا إلى ثورة عامة على التباين الطبقي، واتخذ من غرض العتاب وسيلة يعبر من خلالها عن رفضه، بينما علق العطوي أسباب تعاسته على الزمان وبيّن جوانب من معاناة الفقراء وطبيعة حياتهم، ولم يكشف عن الجهات المسؤولة التي يقع على عاتقها إصلاح حالهم، فكان أنموذج الشاعر الرافض رفضاً سلبياً غير مباشر.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

الخاتمة :

تناولت الدراسة صورة المجتمع في شعر العصر العباسي الثاني ، وبيَّنت طبيعة الحياة الاجتماعية فيه ، وأثر الحياة السياسية والاقتصادية في حياة الفرد والمجتمع .وقد عرضت الدراسة بداية لنبذة موجزة عن الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في العصر العباسي الثاني وما طرأ على الخلافة العباسية من الضعف و من تدخل العناصر غير العربية في سياسية الحكم ، وتولي الوزارة من قبل الأتراك وتسلطهم وقبضهم على زمام الأمور حتى بلغ الأمر بهم أنّهم كانوا يعيّنون الخلفاء ويعزلونهم و قد قتلوا بعضهم وسملوا عيون بعضهم الآخر .كما بيَّنت الدراسة أبرز الحركات الاجتماعية التي ظهرت في المجتمع العباسي آنذاك وما كان لها من أثر في اضطراب الحياة وانتشار الفساد والتخريب كحركة الزنج وحركة القرامطة ،ثم كشفت عن بعض التيارات السياسية والفكرية ، كالشعوبية والزندقة والتَّصوف ، وكل هذه الحركات الاجتماعية والفكرية هي إفرازات اجتماعية كان اختلال النظام السياسي وضعفه سببا في ظهورها .

وبعد هذه النبذة التاريخية الموجزة عنيت الدراسة بتجلية موقف الشاعر في العصر العباسي الثاني من مجتمعه من حيث فئاته وقيمه الاجتماعية .

وقد تجلَّى موقفه بالرفض المباشر للسلطة الحاكمة سواء أكان خليفة أو وزيرا أو قاضياً ، فقد رفض الشاعر آنذاك الخليفة الضعيف والمنشغل بملذاته عن أمور الرعية ، كما رفض الوزير غير العربي وأخذ عليه ظلمه وقسوته وأعجميته وسوء إدارته ، مثلما رفض أنموذج القاضي الضعيف والجاهل الذي قضى بغير شرع الله ، وخالف أحكامه وجرى وراء شهواته وأهوائه .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

علاوة على رفضه للطبقة الحاكمة فقد رفض الشاعر _ كذلك _ التفاوت الطبقي في مجتمعه وما ظهر فيه من فساد ولهو وترف ومجون وفقر وجوع .

كما اتَّخذ الشاعر _ آنذاك _ شكوى الزَّمان وتغيّر الأحوال سبيلاً للرفض لما ساد مجتمعه من مظاهر إجتماعية سلبية ، وضعف في بنيته السياسية والاقتصادية ،إذ إنّه لم يكن يمتلك الجرأة في الوقوف في وجه السلطة فنزع إلى الرفض من خلال اتجاهات فكرية وفلسفية تبنَّاها ، وعبَّر من خلالها عن عدم رضاه عن أحوال مجتمعه .

وقد كانت السخرية سبيلاً للتعبير عن موقف بعض شعراء العصر العباسي الثاني ، إذ استطاع الشاعر من خلالها النيل من طبقات مجتمعه وقيمه السلبية ، بروحٍ تجمع بين النقد والسخرية والاستهزاء .

وبعد أن بيَّنت موقف الشاعر في ذلك العصر من مجتمعه ، فصَّلت نقد الشعراء للطبقات الاجتماعية ، وقسَّمت تلك الطبقات إلى ثلاث ، أوَّلها : نقد الطبقة الحاكمة، وما تعرض له الشعراء آنذاك من نقد للخلفاء ، والوزراء ، والولاة ، والقضاة ، من حيث ضعفُهم وسوء إدارتهم أو فساد أخلاقهم . وثاني تلك الطبقات الاجتماعية : الطبقة المثقفة متمثلة بالكتَّاب والنّحاة والمعلمين والشعراء ، وآخرها طبقة العامة متمثلة بنقد الشعراء للبخلاء والأغنياء والتُّجار والطفيليين المتدينين في ذلك العصر ، وما وجهوه إليهم من نقد لسلوكاتهم أو نمط حياتهم ، وقد تميَّز الشعراء بقدرتهم على الكشف عن جوانب مختلفة من حياة تلك الطبقة وقيمهم ومستوياتهم الفكرية.

وفي الفصل الثالث توقفت الدراسة عند بعض القيم الاجتماعية السلبية في مجتمع العصر العباسي الثاني وموقف الشاعر منها ، وأثرها في المجتمع كالفقر والجوع ، فعرضت لطبيعة المأكل والمسكن والمشرب والملبس لدى الطبقة المسحوقة من الشعب ، ومن القيم

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

الأخرى البخل ، إذ بيّنت من خلال النماذج الشعرية سلوكات البخلاء ونفسياتهم ، ومن ثمَّ ما استجدَّ فيه من قيمٍ اجتماعية سلبية كالنفاق والرياء والغدر والخيانة وتبدّل مفهوم الصداقة وضعف العلاقات الاجتماعية الحميمة بين الأصدقاء ، وما ظهر من ظلمٍ وجورٍ وتكبّرٍ وغرور لدى بعض فئات المجتمع العباسي آنذاك .

وقد خصصت الدراسةُ الفصلَ الرابع لدراسة نصية لنصين من الشعر تقدمهما توطئة ، تبيّن سبب اختيار هذين النصين ومنهجية دراستهما ، وقد كان النص الشعري الأول بائية ابن الرومي في عتاب سهل بن نوبخت ، ويمثل هذا النص نمط الشاعر الرافض رفضاً مباشراً لطبقات مجتمعه وقيمه السلبية ، ويتسم بالجرأة والوضوح في الكشف عن عدم رضاه عن السلطة والمسؤولين ووصول غير الأكْفياء إلى مناصب إدارية هامة ، وتعرض أيضاً إلى ما تفشّى في المجتمع آنذاك من مفاسدَ ولهوٍ وترفٍ وغنى ، وكثرة الجواري ، وانتشار دور القيان ، وما كان يجري فيها من فاحشة .

كما وقفت الدراسة عند النواحي الفنية من حيث اللغة والتصوير والتقنيات الفنية المختلفة التي وظفها ابن الرومي في نصه .وقد وفرَّ طول النص الشعري مادة غنية للدراسة من حيث الموضوعات التي طرحها والجوانب الفنية التي تميَّز بها شعر ابن الرومي .

وقد كان النص الشعري الثاني لشاعرٍ مغمورٍ وهو " العطوي " يشكو فيه الزّمان ، وقد عرضت الدراسة لنبذة عن حياة هذا الشاعر للتعريف به ، وبإنتاجه الشعري .ويتميَّز النص بأنَّه يمثل نمط الشاعر الرافض رفضاً غير مباشر بيّن فيه حياة الطبقة البائسة من المجتمع وأوجه معاناتها ومظاهر حياتها ، وإلى جانب ذلك توقفت الدراسة عند الجماليات الفنية للنص.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

١- الآبي، الوزير الكاتب أبي سعد منصور بن الحسين: الأنس والعرس، الطبعة الأولى، تحقيق د. إيفلين فريد يارد، دار النمير، دمشق، ١٩٩٩.

٢- الأبشيهي،شهاب الدين أبو الفتح محمد بن أحمد : المستطرف من كل فن مستظرف، عني بتحقيقه إبراهيم صالح ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٩.

٣- ابن الأثير ، عزالدين أبو الحسن علي الشيباني : الكامل في التاريخ ، دار الكاتب العربي ، بيروت ، ١٩٨٦ .

٤- البحتري: الديوان، تحقيق د. عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت، ٢٠٠٠.

٥- البرمكي، جحظة: الديوان، تحقيق جان عبد الله توما، إشراف د. سعدي ضناوي، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦.

٦- البغدادي،أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت : التطفيلوحكايات الطفيليين وأخبارهم ، تحقيق د. عبدالله عبدالرحيم عسيلان ، الطبعة الأولى ، دار المدني ، جدة ، ١٩٨٦ .

٧- البيروني ، أبو ريحان محمد بن أحمد الخوارزمي : الآثار الباقية عن القرون الخالية ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٢٣ .

٨- الثعالبي ، أبو منصور عبدالملك بن إسماعيل : الإعجاز والإيجاز ، دار صعب ، بيروت ، (د. ت) .

٩- ـــــــــــ ، أبو منصور عبدالملك بن إسماعيل : الظرائف واللطائف ، دار المناهل ، بيروت ، ١٩٩٢ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

١٠- ـــــــــــ ، أبو منصور عبد الملك بن إسماعيل: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٥.

١١- ـــــــــــ ، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل: خاص الخاص، قدم له حسن الأمين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٦.

١٢- ـــــــــــ ، أبو منصور عبد الملك محمد إسماعيل: رسائل الثعالبي الكناية والتعريض، دار صعب، بيروت، ١٩٧٢.

١٣- الجاحظ، أبو عمرو عثمان بن بحر: البخلاء، تحقيق طه الحاجري، الطبعة السادسة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١.

١٤- ـــــــــــ ، أبو عمرو عثمان بن بحر: رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الحانجي، القاهرة، ١٩٦٤.

١٥- الجهم، علي: الديوان، تحقيق خليل مردم بك، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، (د.ت).

١٦- ابن أبي حديد : شرح نهج البلاغة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الأولى ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٧ .

١٧- الحصري ، أبو إسحاق إبراهيم بن علي : جمع الجواهر في الملح والنوادر ، تحقيق علي محمد البجاوي ، الطبعة الثانية ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٥٣ .

١٨- الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي: زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق علي محمد البجاوي ، الطبعة الثانية ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ، ١٩٦٩. .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library-Yarmouk University

١٩- الحموي ، ياقوت : معجم الأدباء ، دار المستشرق ، بيروت ، (د. ت) .

٢٠- حميد، سعيد: رسائل سعيد بن حميد وأشعاره، تحقيق د. يونس أحمد السامرائي، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧١.

٢١- خبزأرزي الخبزأرزي: شعر الخبز أرزي، مستل من مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد التاسع والثلاثون، الجزء الثاني، يناير، ١٩٩٦.

٢٢- الخزاعي، دعبل: شعر دعبل الخزاعي ، تحقيق عبد الصاحب عمران الدجيلي، الطبعة الثانية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٢.

٢٣- ابن خلدون ، عبدالرحمن ابن خلدون المغربي : المقدمة كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة ، بيروت ، ١٩٨٣ .

٢٤- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان وأبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٧.

٢٥- الراغب الأصفهاني، الإمام أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، تحقيق د.عمر الطباع، الطبعة الأولى، دار الأرقم، بيروت، ١٩٩٩.

٢٦- ابن الرومي، أبو الحسن علي بن العباس بن جريج: الديوان، تحقيق د. حسين نصار، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣.

٢٧- الزركلي ، خيرالدين : الأعلام ، الطبعة الخامسة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٠ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

٢٨- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: تاريخ الخلفاء، تحقيق محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٥٢.

٢٩- الشابشتي ، أبو الحسن علي بن محمد : الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، الطبعة الثانية ، مكتبة المثنى ، بغداد ،١٩٦٦ .

٣٠- الشبلي، أبو بكر جعفر بن يونس المشهور بدلف بن جحدر: الديوان، تحقيق د. كامل مصطفى الشيبي، الطبعة الأولى، مطابع التضامن، بغداد، ١٩٦٧.

٣١- الشهرستاني، الإمام أبو الفتح محمد بن عبد الكريم: الملل والنحل، تحقيق الأستاذ الشيخ أحمد فهمي محمد، الطبعة الأولى، دار السرور، بيروت، ١٩٤٨.

٣٢- الصابي، أبو الحسن الهلال بن المحسن: الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاة، ١٩٥٨.

٣٣- الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق د. سهيل زكار، دمشق، ١٩٨٨.

٣٤- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك: الوافي بالوفيات، الطبعة الثانية، دار صادر، بيروت، ١٩٨٢.

٣٥- الصنوبري، أحمد بن الحسن الضبي، الديوان، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، (د.ت).

٣٦- ابن طباطبا العلوي الأصبهاني ، أبو الحسن محمد بن أحمد: شعر ابن طباطا العلوي، جمع وتحقيق د. شريف علاونة، دار المناهج ، عمان، ٢٠٠٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library- Yarmouk University

٣٧- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥.

٣٨- ابن الطقطقي ، محمد بن علي بن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، تحقيق عبدالقادر محمد مايو ، راجعه أحمد عبدالله فرهود ، الطبعة الأولى ، دار القلم العربي ، حلب ، ١٩٩٧ .

٣٩- ابن عبدربه ، أبو عمر أحمد بن محمد : العقد الفريد ، شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته ورتب فهارسه أحمد أمين ، إبراهيم الأبياري ، عبدالسلام هارون ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٨٢ .

٤٠- العبد لكاني لزوزني، أبو محمد عبد الله بن محمد: حماسة الظرفا، تحقيق محمد جبار المعيبد، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والفنون، ١٩٧٨

٤١- ابن العديم، الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق د. سهيل زكار، دمشق، ١٩٨٨.

٤٢- العسكري، الإمام أبو هلال: ديوان المعاني، مكتبة القدسي، (د.ت).

٤٣- ابن أبي العون: التشبيهات، عني بتصحيحه محمد عبد المعيد، طبع في جامعة كمبردج، ١٩٥٠.

٤٤- أبو العيناء محمد بن القاسم خلاد: الديوان، جمع وتحقيق أنطون القوال، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤.

٤٥- ابن فضل العمري ، شهاب الدين أحمد بن يحيى : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق عبدالله بن يحيى السريحي ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، ٢٠٠٣ .

٤٦- أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

٤٧- ابن قتيبة ، أبو محمد عبدالله بن مسلم : الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٦ .

٤٨- ابن قتيبة الدينوري ، أبو محمد عبدالله بن مسلم : عيون الأخبار ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٠ .

٤٩- القرطبي، الإمام أبي علي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن البر النمري: بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، تحقيق محمد مرسي الخوالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣.

٥٠- الكاتب، خالد: الديوان، تحقيق د. يونس أحمد السامرائي، الطبعة الأولى، دار الرسالة، بغداد، ١٩٨١.

٥١- الكتبي ، محمد بن شاكر : فوات الوفيات ، تحقيق د.إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٣ .

٥٢- المبرد: أبو العباس محمد بن يزيد: الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٨١.

٥٣- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب، تحقيق شارل يلا، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٧٤.

٥٤- ابن المعتز : ديوان شعر ابن المعتز، تحقيق د. يونس أحمد السامرائي، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٧.

٥٥- ابن المعتز: طبقات الشعراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٥٦- المعذل، عبد الصمد: الديوان، تحقيق زهير غازي زاهر، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٩٧٠.

٥٧- ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم : لسان العرب ، الطبعة الأولى ، دار صادر ، بيروت ، ٢٠٠٠ ..

٥٨- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمد رضا مروة و د.يوسف الطويل و د. يحيى الشامي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤.

٥٩- أبو الوفاء ريحان بن عبد الواحد المخزومي: المناقب والمثالب، الطبعة الأولى، تحقيق إبراهيم صالح، دار البشائر، دمشق، ١٩٩٩.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

ثانياً: المراجع

١- أدونيس ، علي أحمد سعيد : مقدمة للشعر العربي، الطبعة الثالثة ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٩ .

٢- أيوب ، عبدالرزاق : انعكاس الفكر السياسي على الأدب العربي في العصر العباسي ، الطبعة الأولى ، دار طلاس ، دمشق ، ١٩٧٥ .

٣- برجسون، هنري: البحث في دلالة الضحك، ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧.

٤- التطاوي، عبد الله: النظرية والتجربة عند أعلام الشعر العباسي، دار غريب، القاهرة، ١٩٩٩.

٥- جست، روفون: ابن الرومي حياته وشعره، ترجمة الدكتور حسين نصار، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨

٦- جيدة، عبد الحميد محمد: الهجاء عند ابن الرومي، منشورات المكتب العالمي، بيروت، ١٩٧٤.

٧- حسين، محمد محمد: الهجاء والهجاؤون، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٠.

٨- حمدان، ابتسام أحمد: الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي، الطبعة الأولى،دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٧.

٩- حمود، محمد: ابن الرومي الشاعر المغبون، الطبعة الأولى، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٤.

١٠- خالد، أحمد: ابن الرومي، الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٧.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University
© Arabic Digital Library- Yarmouk University

١١- خريسات، صالح: سيكولوجية الضحك، الطبعة الأولى، دار آفاق، عمان، ١٩٩٨.

١٢- خليل، ياسين عايش: دراسات في الأدب العباسي، الطبعة الأولى، دار الفكر، عمان، ٢٠١٠.

١٣- الذويخ، سعد فهد: صورة الآخر في الشعر من العصر الأموي حتى نهاية العصر العباسي، الطبعة الأولى، عالم الكتب الحديث، اربد، ٢٠٠٩.

١٤- ربابعة، حسن محمد علي: الصورة الفنية في شعر البحتري، المركز القومي للنشر، الأردن، اربد، ٢٠٠٠.

١٥- زنجير، محمد رفعت: الاتجاه المعاكس في الأدب العربي، الطبعة الأولى، دار قتيبة، دمشق، ٢٠٠٣.

١٦- السامرائي، يونس أحمد: شعراء عباسيون، الطبعة الأولى، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٧.

١٧- السنوسي، السيد مصطفى: ابن دريد حياته وتراثه اللغوي والأدبي، الطبعة الثانية، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٩٢.

١٨- أبو سويلم، أنور: أبو العيناء دراسة وتوثيق في حياته ونثره وشعره، ونوادره وأخباره ومروياته، الطبعة الأولى، دار عمار، عمان، ١٩٩٠.

١٩- شرف الدين، خليل: ابن الرومي، مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٠.

٢٠- شلبي، سعد: ابن المعتز العباسي صورة العصر، (د.ن)، ١٩٨١.

٢١- شلق، علي: ابن الرومي ملامح وأبعاد، الشركة الشرقية، لبنان، ١٩٧٠

٢٢- أبو صفية، جاسر خليل سالم: ابن الرومي ناقداً، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، الحولية الثانية والعشرون، ٢٠٠١/٢٠٠٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

٢٣- ضيف ، شوقي : العصر العباسي الثاني ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القـاهرة ، ١٩٧٥ .

٢٤- ـــــــــ : الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤.

٢٥- أبو طالب ، محمد نجيب : الصراع الاجتماعي في الدولة العباسية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٠ .

٢٦- طقوش ، محمد سهيل : تاريخ الدولة العباسية ، الطبعة الأولى ، دار النفائس ، بيروت ، ١٩٩٦ .

٢٧- عباس، حسين: خصائص الحروف العربية ومعاينها، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (د.م)، ١٩٩٨.

٢٨- عبدالرحمن ، عفيف : معجم الشعراء العباسيين ، دار صادر ، بيروت ، ٢٠٠٠ .

٢٩- عصفور، جابر أحمد: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغـي، دار المعـارف، القاهرة، ١٩٧٣.

٣٠- العطري، عبد الغني: أدبنا الضاحك، الطبعة الثالثة، دار البشائر، دمشق، ١٩٩٤.

٣١- عطوي، علي نجيب: الشعر في العصر العباسي مظاهره وأهم اتجاهاته، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٣.

٣٢- العقاد، عباس محمود: ابن الرومي حياته من شعره، دار الكتاب العربـي، بيـروت، ١٩٦٧.

٣٣- أبو علي، محمد بركات حمدي: سخرية الجاحظ من بخلائه، الطبعة الثانيـة، مكتبـة الأقصى، عمان، ١٩٨٢.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٣٤- عمر ، فاروق : الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية ، الطبعة الثانية ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٩٧٧ .

٣٥- العوا، عادل: مواكب التهكم، دار الفاضل، دمشق، ١٩٩٥.

٣٦- عويضة، الشيخ كامل محمد محمد: دعبل بن علي الخزاعي الصورة الفنية في شعره، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣.

٣٧- العيسوي، عبد الرحمن: تحليل ظاهرة الفقر دراسة في علم النفس التربوي، الطبعة الأولى، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروتن ٢٠٠٩.

٣٨- عيسى، فوزي: في الشعر العباسي، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ٢٠٠٨.

٣٩- فارس، عزت محمود علي: أدب الفقهاء حتى نهاية القرن الثالث الهجري، الطبعة الأولى، دار يافا ودار مكين، (د.م)، ٢٠٠٦.

٤٠- فهد، بدري محمد: تاريخ العراق في العصر العباسي، المكتبة الوطنية، بغداد، ١٩٧٤.

٤١- الفيل، توفيق: القيم الفنية في الشعر العباسي من بشار إلى ابن المعتز، مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٨٤.

٤٢- القحطاني، عبد المحسن فراج: منصور بن إسماعيل الفقيه حياته وشعره، الطبعة الأولى، دار الأرقم، بيروت، (د.ت).

٤٣- قنيبي، حامد صادق وأبو زيد، سامي: محاضرات في الأدب العباسي (الشعر) دار ابن الجوزي، عمان، ٢٠٠٦.

٤٤- القيسي، نوري حمودي، وناجي، هلال: المستدرك على صُناع الدواوين، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٩١.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

٤٥- كساب، نعيم طوني: ابن المعتز شعره في ضوء عصره وحياته وآرائه النقدية، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٥.

٤٦- أبو ليل، أمين: العصر العباسي الثاني، الطبعة الأولى، دار الوراق، ٢٠٠٧

٤٧- المعيبد، محمد جبار: شعراء بصريون من القرن الثالث الهجري، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٧.

٤٨- المناعي، مبروك: الشعر والمال، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، تونس، ١٩٩٨.

٤٩- منتز، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام ، ترجمة أبي ريده، أعد فهارسه رفعت البدراوي ، الطبعة الرابعة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ودار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٦٧ .

٥٠- نافع، عبد الفتاح: الشعر العباسي قضايا وظواهر، الطبعة الأولى، دار جرير، عمان، ٢٠٠٨م،

٥١- النجار، إبراهيم: مجمع الذاكرة أو شعر عباسيون منسيون، منشورات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجامعة التونسية، (د.ت).

٥٢- نجم، وديعة طه: الشعر في الحاضرة العباسية في القرنين الثاني والثالث للهجرة، الطبعة الأولى، شركة كاظمة للنشر والتوزيع، (د.ت).

٥٣- يسرى ، سلامة: الأدب في القرن الثالث الهجري (ظواهر فنية واجتماعية عند شعرائه) دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٤.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ثالثاً : البحوث والرسائل .

١- راجحة عبدالسادة سليمان الزبيدي : شعر النزعات الشعبية في العصر العباسي الأول ، رسالة ماجستير ، الجامعة المستنصرية ، ١٩٨٩.

٢- سامي يوسف أبو زيد وعبدالرؤوف زهدي : بناء القصيدة في شعر ابن الرومي ، مجلة علوم إنسانية ، العدد ٣٥ ، السنة الخامسة ، ٢٠٠٧ ، www.ulum.nl .

٣- سامي يوسف أبو زيد وعبدالرؤوف زهدي : قضايا معجمية في شعر ابن الرومي ، مجمع اللغة العبية الأردني ، www.majma.org.jo .

٤- محمد صالح الخوالدة : صورة المجتمع في شعر ابن الرومي ، رسالة دكتوراه ، جامعة اليرموك ، إربد ، ٢٠٠٩ .

٥- محمد عبدالقادر أشقر : المؤثرات البيئية والشخصية في شعر ابن الرومي ، موقع موسوعة دهشة ، www.dahsha.com .

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

Abstract
The Social Criticism In the Poetry of the Second Abbasid Era (232-334Hj.).

Prepared by: Ameeneh AbdelMawla Hamad Al-Harahsheh

Supervised by: Professor May Ahmad Yousef.

Poets of the Abbasid Second Era were able to record the political, social, historical and economical events of their era. Some prominent poets were recognized for their ability of revealing the right images of social life in their poems, the positive and the negative points; in addition to identifying the most dominant aspects that affected it.

Specifically, this study aims at clarifying the real image of the Abbasid society as it was reflected in the poets' poetry of that period, identifying their criticism of its prominent aspects and their attitudes towards that society.

This study started by giving a historical hint about the political, social and economic life of the Abbasid era, the Second; indicating the effect of these aspects on its society.

Then, the study traced the Abbasid poet's views of his society, its classes and social values. It also revealed the nature of his views in the verses of the poems. The poet's Contradictory views were very clear in his poetry that vary between direct and indirect and ironic rejection.

Social classes that have been addressed by the Abbasid poets is also studied, here. These classes were divided into three dimensions: Poets' criticism of the ruling class, poets' criticism of the qualified class and the poets' criticism of the public class.

The study also stated the main social values (negative ones) that were versioned in the poetry of the Abbasids' poets, and their attitudes towards these negative values. The conclusion of the study included the main points and the findings of the study.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

© Arabic Digital Library- Yarmouk University